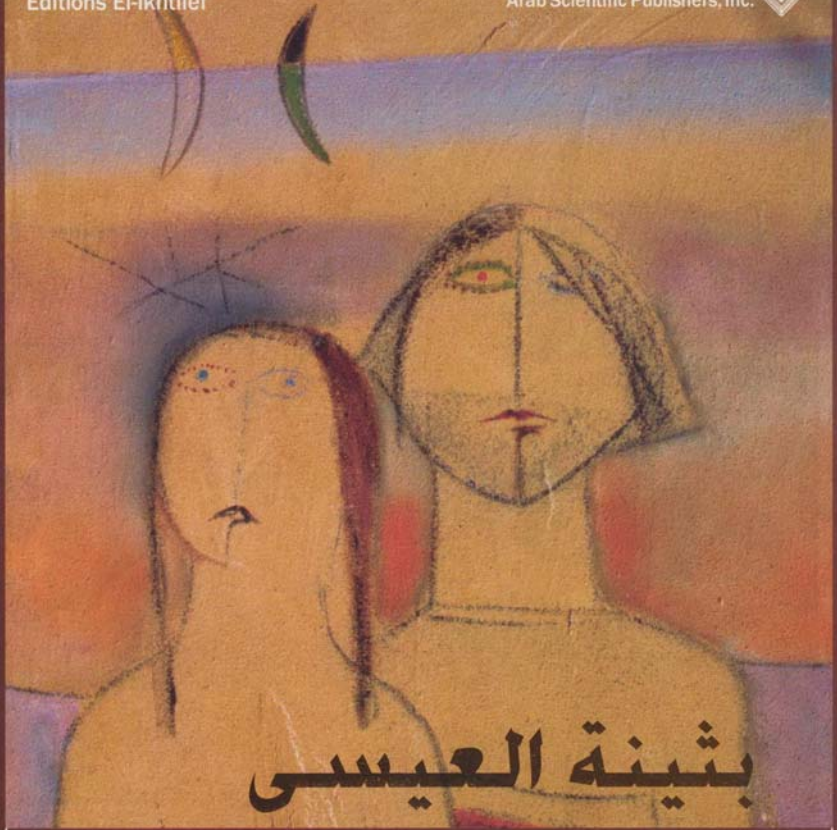


منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtlef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



بشينة العيسى

تَحْتَ أَقْدَامِ

الأمّهات



26.9.2012

رواية

تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ

رواية

بشينة العيسى



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtlef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Twitter: @ketab_n

تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 4-788-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions Elkhitlef

149 شارع حسبية بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/ فاكس: +213 21676179

e-mail: editions.elikhitlef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 785108 - 786233 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أيجاد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الفراد

إليك

يا عشي الصغير

حيث أحمد..

حيث وخالد وعبدالمحسن

"لن يصحبنا أحدٌ إلى تلك الحجراتِ المخبوءةِ المترية، حيثُ لا مفاتيحَ ضوءٍ ولا نوافذَ نورٍها. ستكونُ الأمهاتُ مشغولاتٍ ياخوتنا، أشباهًا جارحينَ كحوائفِ المرايا. سيدرفنَ الحسرةَ دونَ انتباهٍ في الأواني، ليكونَ طعامُ العائلةِ ملحًا، مُرًا، كالترابِ في أفواهنا، كُلِّما ابتسمنَا لملاكٍ يعبرُ عمتنا ويتوارى. أمّا الأصدقاء، فلا بُدَّ أنَّهم سيعونَ فكرةَ الموتِ مبكرًا ويرتبونَ نجاةَ التعلُّقِ والفقْد. ربَّما يتركونَ لنا بعضَ ورداتٍ على عتباتِ أبوابٍ لن تُفتَح. سنذهبُ وحيدينَ إذًا، ترافقنا الأجسادُ لحين، ثمَّ تُنسلُ ببطءٍ خيوطًا لا تلحظها السنائر، تمامًا كالأرواحِ التي غادرتنا."

- سوزان عليوان -

أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنِ

.. (تَغْيِيرَ طَعْمِهِ كَثِيرًا)

موضي

1

.. في جيبي قطعة شوكولاتة ملفوفة بقرطاسٍ أصفرٍ لَمَاعٍ.. يلمعُ يلمعُ! كلما أخرجتُ قطعة الشوكولاتة من جيبي وتأملتُها شعرتُ بالدغدغة في قلبي، وأنا أرى الضوء يرقصُ على القرطاس ويبيع حياتي بالبريق، وفمي بالعدوية الداكنة، ورأسي بالسكر والأحلام والكركرة، وكنتُ أعرفُ بأنني آتي المحظورَ عمداً، وأنتهك تابوهات جدتي قصداً، وأن عليّ أن لا أفعل ما أفعله، ولكنني كنتُ ملتزمة بمشروعِ العصيانِ هذا حتى آخر قطرةٍ من دمي، وأردتُ - بكل بربريتي وطفولتي - أن أرى حدقتي فطوم تتسعان، نعم! أن تتسع حدقتها بقدرِ المستطاع، وإن أمكن أن تقفز عيناها خارجَ وجهها لترتيميا بين قدمي، فأنا أودّ أن أرى ذلك أيضاً، وإن كان في الوسع جعلها تبكي وتركل الأرض وتضرب رأسها بالحائط، وتبرطمُ وتزبدُ، فسيكون ذلك من دواعي سروري وحبوري وبهجتي، ولحسن الحظ، أو ربما لسوء الحظ! جرى الأمر كما خططت تماماً: وقفتُ فطوم قبالي مرتدية مريول الروضة الأزرق، وسألتني لماذا أنظر إليها بالطريقة التي أنظرُ بها إليها، واضعة يدها اليمنى على خاصرتها، باذلةً جهداً مفتعلاً في هزّ وسطها (على اعتبار أن لجسدها وسطاً!) حتى راح جذعها الهزيل يهتز مثل خيزرانة، فتحينتُ اللحظة الملائمة، لحظة الحلم / لحظة الإيذاء، وأخبرتها بكل بجاحة بأن في جيبي قطعة شوكولاتة واحدة!

- واحدة؟

.. وكلنا - في البيت الكبير - نعرفُ ماذا يعني ذلك! كلنا نعرفُ، بأنه إما أن تكون في جيبي ثلاث قطع شوكلاتة، أو صفراً.

عندما اتسعت حدقتنا فطوم دهشة وذعراً (تماماً كما خططت) أضفتُ بأنها من أجل خطيبي وحبيب قلبي ونور عيني وروحي وحياتي وعمري فهَاد بن خالي علي! تلفظتُ باسمه مفتعلة كما هائلاً من الغنج، كما تفعل حسناء الفيلم العربي عندما تنادي حبيبها: فؤاد، فتغنيتُ بدوري: فهااد! وأعجبني وقع الاسم وموسيقاه وقابليته للاستخدام في هكذا مواقف تتطلب أسماء خاصة! وكنتُ قد سرحتُ في اسمه، جرسه وملاءمته لكل شيءٍ حتى.. حتى هجمت عليّ وطرحتني أرضاً، ثم تمددت فوق جذعي وهي تهرس قطعة الشوكولاتة بأصابعها، ويدها الأخرى تشدّ شعري إلى الخلف، لأن فطوم تستغل كل شجارٍ ينشب بيننا لكي تستكمل مشروعها في تحويلي إلى طفلة صلعاء.

صرختُ وناديتُ وبكيت وعندما نهَضت من فوقي، ونهضتُ بدوري من على الأرض، كانت ملابسي قد توسخت بالغبار والككاو الذائب، فرمقتها بنظرتي المخيفة - التي أخبئها لهكذا مناسبات وأتدرب عليها قبل النوم - فانقضضت عليها وطرحتها أرضاً، رفعتُ تنورتها عالياً لأكشف عن سروالها الداخلي العامر بالثقوب، عضضتها بكل قوتي، غرزت أنيابي في طراوة لحم بطنها وأمعنت في الأمر حتى نتأت سرتها من ثقبها (ولم تعد إليه منذ ذلك اليوم)..

.. أخذت فطوم تبكي وتضرب رأسها بالأرض، ثم حملتنا إحدى المدرسات بعيداً، بعد أن انتزعتنا بصعوبة من بين جمهورنا العريض من أطفال الروضة الذين تكدسوا في المشهد وأخذوا في الهتاف، تارة باسمي، تارة باسمها، ولاحقاً بأسماء لا علاقة لها بنا: نادي القادسية، ونادي برشلونه، وفيمَ أنا أحمل بعيداً، منحّت جمهوري بضعة تلويحات

من يدي.. يدي الوسخة بالغبار والككاو الذائب.

* * *

حملتنا المدرّسة معاً إلى غرفة الناظرة، هناك وقفنا قبالة مكتبها العريض، برأسٍ مطأطئة وكثيرٍ من الخوفِ لما تفاقمت إليه الأمور، كانت فطوم تنظر إلى الأرض ففاتها أن ترى الشعرة السوداء التي تطل من منخر الناظرة. كانت الناظرة سيدة شبه بدينة ترتدي معطفاً كحلي اللون، ونظارات سميكة بإطار بنيّ غليظ، وحجاباً أسود تلفه حول رأسها، وبدت لي - فيم عدا ذلك - بلا ملامح، لا شيء يشير إلى حضورها باستثناء المعطف والنظارات وشعرة أنفها، وصارت تحملق فينا بوجه مصمت وفارغ، ثم سألتنا أخيراً، ما الأمر؟ فأخبرتها بالحقيقة: فطوم تريد أن تتزوج من فهادي، والكل يعرفُ بأنه خطيبي أنا!

احتجّت فطوم من فورها بأن فهاد قد أخبرها بأنه يحبها أكثر منّي، فكيف يمكن أن يكون خطيبي أنا وليس خطيبيها هي؟ رددتُ عليها بأنه أخبرها بذلك قبل أن يخبرني بأنه يحبني أكثر منها، فزعمتُ بأنه فعل ذلك قبل أن يغير رأيه بصددي، وهكذا كانت كل واحدة منا تتجهّد لكي تبرهن للأخرى بالدليل بأنها الأخيرة، المختارة، الناسخة التي تجب ما قبلها، حتى تحول الأمر إلى تراشق بالسباب والشتائم: كذابة! غشاشة! غبية! وما إلى ذلك، فصارت الناظرة تضحك منا، وبدت عيناها من خلف نظارتها ضئيلتان ومخيفتان، أسنانها كبيرة ونظيفة، والشعرة السوداء تتدلى من أنفها وتهتزّ مع ضحكاتها، كانت شعرة أنفها القبيحة تضحك منّا! شعرتُ بالمهانة، ورأيتُ عيني فطوم تفيضان بالدمع فبكيّتُ معها ولأجلها، بكينا بعضنا وإحساسنا العارم بالغرابة والعار، بكينا بذاءة العالم وهو يضحكُ منا من جلال شعرة أنف، ولم أكن أفهم كيف يمكن أن تجد تلك الناظرة / الشعرة ما يُضحكُ في ألمي، أو في ألمِ فطوم، أو في ألمينا معاً، ونحن نوجّه اغترابنا صوب العالم بكل حسن نية!

أرسلتنا الناظرة إلى الفصل بعد أن جعلتنا نعتذر من بعضنا ومنها، ثمّ فتحت لنا علبة شوكولاتة ماكتوش كانت تخبئها تحت مكتبها كمكافأة لنا على حسن اعتذارنا، وهمت كلّ واحدة بأخذ ثلاث حباتٍ: من أجل فهاد والأخرى ونفسها، ولكن الناظرة شجبت "جشعنا" وهممت بكلمات متبرمة حول تربيتنا السيئة وأصرت "واحدة بس" ..

اخترتُ قطعة شوكولاتة مغلقة بقصدير أصفر، تشبه التي هرستها فطوم داخل جيبي، ولكن عندما انتقت فطومة واحدة حمراء فعلتُ مثلها وأنا أغلي غيظاً، (لماذا لم أنتقي الحمراء أولاً؟ هل أنا عمياء؟!)، في رأسي ذو الخمسة أعوام: كان الأحمر هو ملك الألوان كلها، لأنه لون الفراولة والحب والدم.

في الطريق إلى الفصل تجاسرت فطوم وسألتني:

- مضايي.
 - نعم.
 - شتسوين لو قال فهادي إنه يحبني أكثر منك؟
 - أتزوِّج واحد ثاني.
 - مثل منو؟
 - مثل "نصّور"
 - نصّور الأقرع؟
 - هو يقول راح يطلع له شعرٌ بعدين.
 - بس نصّور "أقرع"!
 - "جسّوم" كان أقرع.. بس طلع له شعر.
- بدت منشغلة الذهن، إذ لم يخطر لها بأن يكون عندي خطيب

احتياطي، ذلك أمر لم تحسب حسابه، وأحبيتُ أن أغيظها أكثر فأردفتُ:

- ناصر يعطيني دائماً "الشيبس" الي تعطيه إياه أبله ناديه..
- أبله ناديه الوكيلة؟
- ناصر ولد الوكيلة.. ما تدرين؟
- لا!
- وسيارتهم حمراء..
- ثم رفعت قطعة الشوكولاتة ذات الغلاف الأحمر عالياً ولوّحت بها في الفضاء "مثل هذه!".. وتساءلتُ "لماذا لم أفكر بذلك من قبل!؟"
- بس فهادي أحلى..
- لأنه ولد خالي علي.
- قولي الله يرحمه!
- الله يرحمه!
- وعنده "سيغا 2"..
- ويعرف يمشي على ايده.
- ويعرف تسع كلمات إنجليزية..
- وحافظ سورة "والشمس وضحاها!"

حسناً، حسناً.. أعترف! لا أحد مثل فهاد بن خالي علي، لا أحد في هذه الدنيا قريب ولو قليلاً من أن يشبهه، والمشكلة أنه لا يوجد منه في هذا العالم إلا واحد لا يقبل القسمة على طفلتين مشحونتين بهاجس الزواج، كان عالمنا - بقدر ما يسعني أن أتذكر - يتمحور حول فكرة واحدة مفادها أن التي تتزوج فهاد بن علي هي التي تفوز بالسباق! والآن فطوم غيرانة لأنني أوجدت لنفسني بديلاً عنه، إنها تريدني أن أنافسها

(أو ربما أشاركها) حبه لأجل أن يستمر هذا الصراع القدريّ بيننا، إنها تذكرني بأسباب تغريني بالتمسك بموقفي إزاءه لكي لا تصبح رغبتها بالزواج منه بلا معنى، في ذلك الوقت، كان تقليد الواحدة للأخرى هو الطريقة الوحيدة لتجنب تفوقها، وهي لا تريد الزواج من فهاد بقدر ما تريد هزيمتي، لأنني غريمتها الأبدية، وصديقتها الوحيدة، وأختها التي لم تنجبها أمها أو أبوها، لا شيء يضاهي لذة الانتصار عليّ في النهاية!

هَمَسَتْ لِنَفْسِهَا:

- هو قال إنه راح يتزوجني.

- متى؟

- يوم الاثنين في سطح "أمي غيضة"

- أنا بعد.. قال لي بيتزوجني يوم الثلاثاء..

- أنا قال لي يوم الأربعاء إنه راح يتزوجني..

- وأنا قالي بيتزوجني يوم الخميس!

لابد وأن تفوز تلك التي حظيت بآخر تصريح من تصريحات فهاد الهوائية، المختارة التي سكنت على وجنتها الريح، وفي تلك الأيام، لم يخطر لنا أبداً بأن تلك الحلقة الملعونة ستدور بنا إلى الأبد. تبرّمت فطوم بكثير من الحق:

- غشاش فهادي!

خبأت فمي بيديّ ورحتُ أضحك، ابتسمت فطوم، وبدت لطيفة بضميرتها الغليظتين وشعيرات رأسها الهاربة من تعسف دبابيس الشعر المائة المغروسة في كل رأسها، سألتني:

- ليش تضحكين؟

- تذكرت شي.

- شنو؟

- شي عيب!
- وواصلت الضحك..
- شنو؟ قولي لي.. والله ما أقول حق أحد والله!
- قولي ورب الكعبة؟
- ورب الكعبة!
- قولي ورب المصحف؟
- ورب المصحف!
- قولي ورب أمي غيضة؟
- ورب أمي غيضة!
- لأنها جدتنا العظيمة، غالباً ما نقحمها في أيماننا الغليظة.
- أعرف كلمة "وسخة"..
- شنو؟
- دنوتُ من أذنها وهمستُ: "زير نسا"
- زيرنسا؟
- زير نسا!
- شنو يعني؟
- يعني مثل فهادي كل ما يشوف بنت يقولها بتزوجك!
- وإنتي شعرفك؟
- سمعت "رقية" مرة تقولها، بس لا تخافين.. سويت نفسي ما سمعت!

وبدأنا نضحك ونهمس بالكلمة السرية "زير نسا" ونتخيل كيف سيبدو فهاد لو قذفناها في وجهه.. بالتأكيد! كانت لنا أيضاً تلك اللحظات المارقة من التواطؤ، لحظات مارقة! دخلنا غرفة الفصل

وجلست كل واحدة في مكانها: أنا على يمينه وهي على شماله، فقد وعدنا جدتنا بأن نجلس إلى جانب بعضنا في الفصل، أن نتحالف أمام الغريب الذي نصبناه عدواً لمجرد أنه آخر، أخبرتنا جدتي بأن "أطفال هذه الأيام" ليسوا أهلاً للثقة، وكأننا نجيء من خارج الزمن! كان علينا دائماً أن نشكك في أخلاق الآخرين كما لو كنا ملائكة، أن نفترض فيهم سوء النوايا، وسوء التربية، وسوء الخلق، كان العالم سيئاً بما يكفي، إلا عندما يمد لي "نصور الأقرع" يداً عامرة بالعلوك والبفك والككاو، عندها كانت تتداعى كل نواميس جدتي!

كنت غالباً ما أظهار بالصمم عندما يتحدث إلي طفلاً لا تجمعني به قرابة دم، كان الخوف يجثم على صدري من أي شيء / شخص لا يمت بصلة إلى "البيت الكبير" .. المكان الذي أتينا منه، المكان الذي هو محور الكون، المكان الحقيقي الوحيد الذي تتوالد الحكايا من رحمته، وتنتهي عند عتبه، وكان كل ما يحدث خارج جغرافيا بيتنا الكبير هو خدعة بصرية، الآخرون كانوا أقل حقيقة مني، أقل إنسانية مني، أقل وجوداً مني، وكان أمراً عادياً جداً بالنسبة لنا، فطوم وفهاد وأنا، أن نتصرف مع الآخرين وكأنه لا وجود لهم.

بعد عشر دقائق رددنا خلالها كل ما يمكن ترديده عن الشكل المربع، عن النافذة والكراسة وقابس الضوء، رنّ جرس الفسحة الثانية، ورأيت فطوم تخرج قطعة الشوكولاتة الحمراء وتعرضها على فهاد عندما قفزت من مكاني مادة قطعتي لأسبقها، صاحت فطوم:

- مضايوي الغشاشة!

- فطومة البومة!

عندها قاطعنا فهاد وأخذ القطعتين معاً وفي وقت واحد، وبمنتهى الدبلوماسية قال: يم يم! وأزال الورق اللامع عنهما دون أن ينتبه حتى لكونه أحمر! شعرت لحظتها بأنه يدوس على قلبي وقلبها وقلبيننا وقلبنا!

فيم هو يمسح الككاو المتسرب خارج فمه بأكامه الوسخة.
جلستُ على يمينه، وجلست هي على يساره.. وبدا أن الفكرة
ذاتها تراودنا لأن فطوم سألته:

- فهادي نبي نسألك سؤال.
.. يمصص أصابعه..

سبقتها بسؤاله:

- فهادي.. مو صح إنت تبي تتزوجني؟
- صح!

قالها بالغم المليان بالشوكولاتة!

قالت فطوم وهي على وشك البكاء:

- لا إنت تبي تتزوجني أنا!

- لا أنا..

- أنا!

- أنا!

نهض فهاد وهو يمسح يده بالبنطلون لكي يزيل عنها الدبق وبقايا
الشوكولاتة الذائبة، ثم نشق ومسح أنفه بكمه الذي تجعد وامتلاً بمخاط
أنفه، ثم أصلح من وضع البنطلون على خاصرته وأخيراً وضع سبابته
على رأسه وأخذ يحكه كما يفعل عندما يفكر:

- همممم

- ايه؟

- هممم!

- ابييييه؟؟

وتنأت أعينا الصغيرة من محاجرهما بحماسة، فأدلى بدلوه:

- فطومة دايمًا تعطيني ككاو وحلاو وبفك.. بس شعرها خشن..
وأطول مني..

وبدأتُ أضحك (بكل ما عندي من لؤم) عندما أضاف:

- مضايوي نحيسة شويي.. بس شعرها ناعم! وتعرف توقف على
راسها..

- يعني؟

- يعني أنا أبي أتزوجكم مع بعض.

وبدأنا نبهلق في وجهه طويلاً عندما ختم خطابه:

- أنا رجال.. الشرع حلل لي أربع!

نظرت كلُّ منا إلى الأخرى في تواطؤ خفي، وهمسنا لبعضنا في
وقتٍ واحد: زير نسا! زير نسا!

.. ليس لأنه يحفظ سورة "والشمس وضحاها"، وليس لأنه يعرف
تسع كلمات إنجليزية، وليس لأنه يستطيع المشي على يديه، وليس حتى
لأن لديه غرفة خاصة بالألعاب لم أخط بمثلها قط، وأنا شديدة الإدراك
لحقيقة محدوديتي، خاصةً أمامه! ولكن الحقيقة، أن للحقيقة.. وجوهاً
أكثر غوراً وإيغالاً مما يبدو، تمتد عميقاً صوب الجغرافيا المحرّمة،
إلى المكان القديم الذي تنبع منه الحكايا، حيث التابوهات والتواييت
والشهداء والصمّت المتواطئ، كان وجه فهاد بن علي يبرز من كل
مكان وبكل شكل، يشبه لوحة تهبها كل عين معنى آخر.

كان فهاد - بالنسبة لجذتي غيضة - هو رجل البيت الذي لما
يصير رجلاً بعد، الولد الوحيد ابن الولد الوحيد، الفحل المبعوث في
قطع الإناث، السليل الوحيد للنسل الشريف، ملك الملوك وأمير الأمراء
وشيخ الشيوخ وفارس الفرسان، بدون عرش أو صولجان أو سيف أو
فرس، كان الشاعر بلا قصيدة، العالم بلا علم، المحارب بلا قضية،
البقية الباقية من الابن الذي ذهب، والذي هو كل هذا وأكثر، كان يجيء
إلى الدنيا لكي يتربع على عرش السيادة المطلقة، ويمارس حقوقه التي
اكتسبها بموجب أعضائه التناسلية، لكي يحقق لجذتي البهجة والحبور
برؤيته يقرر ماذا نفعل، وكيف نفعل، ولماذا نفعل.. فإذا ما أرادت واحدة
منا أن تخرج إلى الحديقة لتلعب بالأرجوحة، أو لتطارد الدجاجات،
وجب عليها أن تأخذ الإذن منه، وإذا ما أرادت إحدى أمهاتنا أن تذهب
إلى السوق لشراء البيض والمايونيز، وجب عليها أن تحدد معه موعداً
لكي يكون محرماً في تبضعها، وإذا ما خطر لنا أن نغادر المجلس
بساطة، كان علينا أن نحصل منه على الصك الذي يجيز لنا ذلك!

.. وكان لفهاد بن علي وجهٌ آخر، يرجع الفضل باكتشافه إلى

خالتي هيلة، فهو - على الأقل كما تزعم هي - أحد الأولياء الصالحين المارقين من الأزمنة المقدّسة، ممن يعرجون في أزماننا الصدئة، أزمان النأي والدنس، ويشيعوا فيها حضورهم النورانيّ، فقط بفعل الرحمة الإلهية! كانت خالتي قد حضرت بضعة من مجالس الذكر، وقرأت بضعة كتيباتٍ دينيةٍ عثرت بها صدفة في غرفة انتظار المستشفى، ثم تعرفت على نساء على شاكلتها من التدين لتجتمع معهن كل يوم الجمعة لتلاوة الأذكار وإنشاد الشعر الديني، نصبت خالتي نفسها منصب فقيهة البيت الكبير، وصارت تصدر الفتاوى والتشريعات، تحلل وتحرم، وتمنطق كل شيء رجوعاً إلى قاعدة لاهوتية، أو خاطرة إيمانية، أو رؤيا تمظهرت لها في أحلامها التي تؤمن بأنها مصدرٌ موثوقٌ من مصادر الوحي، كانت خالتي هيلة تستقي من ثقافتها الدينية أسباباً لكي تؤكد على استثنائية فهاد بن علي، فليس كافياً أن يكون الابن الوحيد للابن الوحيد، الولد ابن الولد، عامود البيت وربّه الأعلى، بل ينبغي أن يكون مؤيداً من لدن الله في عليائه! وانطلقت في حبك حكاياها التي تبرهن بها على خصوصية الولد التي تتجاوز كونه ولد، وصارت تزعم بأن انفلاتة فهاد إلى العالم التي حدثت بدون صرخة الميلاد هي وجه من وجوه الكرامة الإلهية، وبأن صرخات الوليد في مهده كان بسبب تعرض المردة والشياطين له، وبأن الحليب الذي تفجر من ضرع أمه يشبه تفجر الماء من الحجر بعد أن ضرب بعصى موسى، كانت خالتي هيلة قادرة على ربط أي شيء، بأي شيء، ولم يكن بمقدور أي واحدة منا أن تشكك في كلامها، مخافة أن تتهم بالتجديف.

الوجه الآخر لفهاد ابن علي، كان الوجه الذي تراه أمي نورة، فقد كان فهاد بالنسبة إليها هو ابن الأخ المتوفى: اليتيم المسكين الوحيد المحروم من حنان الأب، الذي تقطع نياط قلبها إذا ما بكى أو اشتكى، والذي تفيض عيناها بالدمع لمجرد رؤيته يغني، أو ينكش أنفه بسبابته،

أو يتراخض في جنبات المكان، والذي مهما فعلنا له، فلن نستطيع أن نرسم له يتمه أو نردم له حرمانه، كان فهاد بن علي هو الطفل الحزين الذي لما يتعرف حزنه بعد، اليتيم الذي لم يفهم وحشية يتمه بعد، الوحيد الذي لا يعرف بحقيقة وحدته لفرط ازدحام عالمه، كانت أمي تشفق عليه من آتية، من زمنٍ جائرٍ يجابهه مدججا بالأمهاتِ الثكالي، تشفق عليه من حياةٍ مصادرة سلفاً من قبل قوى الحبِّ العليا، لنقل بأن أمي كانت أكثر من يحبه، إن لم تكن الوحيدة التي تحبه، كانت الوحيدة التي لم تطالبه بأي شيء، كأن يكون رجلاً أو أن يكون نبياً، ولو كان فهاد بن علي قد ولد بتناً، مثلي، لكانت أحبته بالقدرِ ذاته أيضاً.

كانت مسحة الشفقة هذه هي كل ما يلزم المشهد لكي تصبح بطريكية جدتي، وخزعلات خالتي، مقبولة لدي! والحقيقة أن جدتي لم تكن تؤمن (أو بالأحرى تكثرث) بنظريات خالتي هيلة عن كرامات فهاد، بقدر ما هي لم تمنع أو تعترض على خالتي إذا ما شحنت رؤوسنا الصغيرة بقصصها التي تدور حول الحرب الأزلية بينه وبين الشيطان الرجيم! وبالقدرِ نفسه لم يسع جدتي أن تشفق على فهاد كما تفعل أمي، لأن الله الذي أخذ منه والده، قد وهبه في المقابل مملكة من الأمهات والجنة التي تحت أقدامهن، ولكنها مع ذلك لم تعترض على دموع أمي التي تقابل بها وجه فهاد حين يطلب منها أن تشتري له لعبة، كان لكل أمٍ طريقته الخاصة في النظر إلى الصبي، والتي لا تتداخل مع نظرة الأخرى ولا تنفيها، لنقل بأنه كانت لدينا دائماً ثلاث طرق متوازية للنظر إليه، نظرة الذكر الأعلى، نظرة الولي القريب إلى الله، ونظرة اليتيم غير المدرك ليطمه.

فاطمة

1

.. ظلت مضايي تباهى بأنه يوم الثلاثاء! اليوم الذي تصحبنا فيه أمها إلى من المدرسة إلى البيت، لتجلس هي في الكرسيّ الأمامي وتستأثر بفتحات التكييف الكبيرة، وتشعرُ بأنها ملكة سيارة "الفولفو"، كان عليّ أن أنصت إلى مباحاتها التافهة وأنا أصرفُ بأسناني، وأراها تتخلل شعرها بأصابعها الصغيرة مرة بعد مرة، وترفعه في الهواء كي تراه الشمس فيصبح لسواده معنى، كانت تفعل كل الأشياء التي تغيظني، والأسوأ من ذلك، أنني كنتُ مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن تكف عن لؤمها وتلعب معي!

أمضت ليلتها عندي بالأمس، وقفت ببابي مرتدية بيجامتها الوردية وحاملة "الباربي" الشقراء بيدها، استقبلتها وأنا أهز وسطى بتحدٍ، واضعة يداي حول خصري: نعم؟ شتتين؟ كان عليّ أن أكون لثيمة معها بحكم العادة، ولكنها تعرفُ سلفاً بأنني سعيدة بحضورها.

أحب أن تبيت مضايي في بيتي، أحب أن نختبي تحت اللحافٍ ونحكي قصصاً، أحب أن نغمس أصابعنا في مصهور الشمع، وأن نعد للباربي عرساً ونستجلب باقي العرائس للرقص، قالت ببساطة "بنام عندكم"، ويبدو أنها سوت الأمر مع أمها لأنها أحضرت حقيبتها وجهزت مريولها المدرسي وفرشاة أسنانها.

وقفتُ مكاني وأنا أراها تدخل صالة الجلوس، تمشي مشيتها الصغيرة المتباهية، تتجه إلى أمي، تجلسُ بين قدميها وتطلبُ منها

أن تحكي لها حكاية، تجيء مضاوي إلى بيتي من أجل القصص، فأمها لا تخبرها بالكثير، وحدها أمي هيلة تجيد قص حكايا فهاد بن علي ومغامراته المدهشة، بالأمس قصت علينا قصة "فهادي والشيطان الرجيم" المفضلة عندي، والتي تسمعتها مضاوي - على ما يبدو - للمرة الأولى، لأنها تصنمت في جلستها، صامته تحدق في وجه أمي وهي تضم قبضتها إلى ذقنها.. حكّت لنا أمي حكاية الشيطان الجالس على عرشه المصنوع من الجماجم، يتفقد أخبار الشر في العالم، أخبار الطلاق والغيبة والصلوات التي أُخلف ميعادها، ثم يدخل عليه أحد المردة ليخبره بأن أوان مجيء فهاد بن علي قد حان! وهنا تتسع حدقتنا أمي وتتساءل معنا:

- يا ترى! ليش الشيطان الرجيم يسأل عن فهاد؟ ليش الشيطان يحسب حساب لفهاد؟ ليش الشيطان يخطر في باله فهاد؟

- ليش؟! ليش!؟

تساءل مضاوي وأجيب أنا، بكثير من الاعتزاز:

- لأنه ولد الشهيد!

.. وأشعر بالحبّ والإيمان يتدفقان ملء صدري لفهاد بن خالي علي، وأمتلي غبطة! أردفت أمي بأن هذا هو قدر أبناء الشهداء الذين أهم أحياء عند ربهم يرزقون، ألا يحق للشيطان أن يخاف من أن يشب الابن علي أبيه؟

وترجع بنا أمي إلى الحكاية: في غمضة عينٍ يذهب الشيطان إلى غرفة الولادة، حيث "شهلة" تكابد مخاض الوليد المنتظر، جدتي غيضة على رأسها، أمي هيلة عن يمينها، وخالتي نورة عن شمالها، مضاوي ما تزال في بطن أمها، وكنّت أنا قد أتممت الشهرين من عمري، ملفوفة بمهادٍ أبيض قطني، نائمة بين ذراعي "رقية" التي تنتظر وحيدة في البيت.

تقولُ أمي بأن "صرخة الميلاد" هي قدر أبناء آدم، وبأن كل آدمي حتما سيصرخُ في لحظة ولادته، لأن الشيطان يلكز المواليد في تمام لحظة انزلاقهم إلى الوجود، فهذه هي طريقته في الانتقام من أعدائه البشر.. عندما ولد فهادي لم يصرخ، شيءٌ ما حدث وأجبر الشيطان على التراجع! وكانت هذه أولى كرامات فهاد التي اكتشفتها أمي بفهمها وسعة إدراكها.

ظلت مضايوي تحدد في وجهِ أمي فاعرة الفاءِ، وترمقها بكثير من الشك:

- أمي هيلة إنتي شفتي فهادي يوم طلع من بطن أمه؟
- ايه شفته.. يا زينه كنه القمر، كله أبوه..
- وشفتي الشيطان؟
- لأ، البشر ما يشوفون الشياطين.. هم في عالم وحناء في عالم..

وراحت تجادل من فورها: كيف عرفتِ بأن الشيطان يكره فهادي أكثر مما يكره غيره من البشر وأنت لم تري الشيطان في حياتك؟ كانت لدى أمي حجتان على صحة ما ذهبت إليه، الأولى هي أن الصغير كان يصرخ كالملدوغ بمجرد أن يغط في النوم، وفي هذا دليل على أن الشياطين كانت تتعرض له في مناماته، لأن صراخه المفرغ لم يكن يشبه بكاء رضيع يعاني من آلام البطن! والثانية هي أن الصغير كان يمعن في البكاء عندما تأخذه أمه إلى مغسلة الحمام لكي تغسل مؤخرته بعد أن يوسخ حفاظه، لأن الشياطين تتعرض له في الخلاء حيث هي في أوج جبروتها، فاضطرت أمه في النهاية إلى الاكتفاء بتنظيفه باستخدام القطن المبلل، وهكذا، بحسب أمي، كانت الشواهد كلها تدل على أن فهاد مستهدف بشكل خاص من قبل الشياطين!

- وبعدين شصار؟

.. لم تكن مضايي لتسمح للحكاية بأن تقف عند هذا الحد، وطالبت بأن ينتقل الحكوي إلى الضفة الثانية، إلى فهاد الذي ولد بدون صرخة الميلاد، وتغير شيء في وجه أمي، تقطبة خفيفة علت جبينها إذ هي تجاهد في استجماع تفاصيل ذلك اليوم، قالت أمي بأن الفرع قد أخذ منهم كل مأخذ، وبأن الشكوك قد ساورتهم بأن يكون ابن علي قد ولد ميتاً، أو مريضاً، أو متعباً بما يتجاوز القدرة على الصراخ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، كل ما في الأمر أن الصغير ولد دونما أي رغبة بالصراخ، وحتى عندما حملته الممرضة من قدميه وضربته على ظهره عدة مرات.. لم يبك، ووضع بمنتهى الدعة في حضن أمه، وشرع من فورهِ في لعبة البهلقة، وراح يمتص العالم بعينيه الهائلتين السوداوين، يتفحص الوجوه التي تتفحصه بدورها: ثلاث أمهات وجدة واحدة! وهفت الأصوات: كنه علي، كله علي! امتدت ذراع جدتي لتتشل الوليد ولم تكن قد شوهدت سعيدة وجميلة بهذا القدر قط، كانت جدتنا هي أجمل نساء الأرض في يوم ولادة حفيدها، وظلت تجوبُ ممرات المستشفى طويلاً، تشر الدنانير فوق رؤوس "الهنديات" من عاملات النظافة والممرضات، وتلقنهن: دفعة بلا عن ولدنا، دفعة بلا عن ولد علي! كانت تجبر كل فقير ومسكين وعابر سبيل يتلقاها في الممر بأن يرفع يديه ويتهل لأجل الصغير الوليد، بمعنى آخر: اشترت جدتي آلاف الدعوات - التي لا يفصل بينها وبين الله حجاب - بآلاف الدنانير، تكدست جموع العاملين من حولها وقد دوختهم الأموال المنهالة فوق رؤوسهم، أموال تكفي لكي تعيدهم إلى أوطانهم، لكي يمتلكوا بيوتهم ويعالجوا أمراضهم ويفعلوا كل الأشياء التي جاءوا إلى الكويت ليفعلوها.

- وأنا، يوم ولدتني أمي.. بكيت؟

- ايه، بكيتي لما شبعتي، ولا رضيتي تسكتين..

- لا ما بكيت.

- إلا بكيتي، فضحتينا قدام الله وخلقه!

وبدا لي أن مضايي تحسدُ فهاد على بدايته المميزة، كانت تشعرُ بالخسارة لأنها أطلقت في وجه الحياة صرخة ميلادها، مثل الناس العاديين، لأن الشياطين لا تكرهها بشكلٍ خاص، ولا تتعرض لها في المنام، أو في الخلاء، أو بأي صورة كانت، نهضت واقفة، ومشت بخطوات صغيرة وخائفة إلى جهاز التلفون، "شتسوين مضايي؟" ولكنها تظاهرت بالصمم، وبدأت تهمسُ في أذن سماعة الهاتف وهي تضمها قريبة من فمها: ماما يوم طلعت من بطنك وزعتوا فلوس على "الهنود"؟

عندما بلغ فهادي شهره الخامس، لم تعد سهلة راغبة بإرضاعه، كانت آلام ظهرها قد تغلبت على مشاعر أمومتها كما تقول أمي، فاستبدلت بثديها العظيمين الدافئين الرضاعات الزجاجية الباردة، وحلمات السيليكون القاسية، واستبدلت بودرة "السيملاك" المفتعلة بزلال حليبها العسلي، وأصرت بأن عليه أن يتعلم (طريقة المص الجديدة) لحليبه الجديد.

لم يتجاوب فهادي مع رغبة أمه، ولم يكن ثمة شيء أبغض إلى قلبه من تلك الزجاجية الملعونة، والسائل الأبيض المفتعل، والحلمة البلاستيكية الكاذبة، والملمس اللا إنساني لهذه الرضاعة التي لا تشبه الأم في شيء، كان بمجرد ما يرى زجاجة الرضاعة في يد أمه حتى يأخذ في الصراخ، يهز رأسه، يركل برجليه، يلوح بذراعيه، يفعل كل ما يمكنه فعله الطفل ذو الخمسة شهور لكي يبدي اعتراضه! كان رفضه قاطعاً، حتى عندما جربت أمه حليباً تزعم بأن طعمه جيد، وحتى عندما اشترت حلمة صناعية تحاكي الخواص الإلهية للحلمة الطبيعية، أو أياً كانت الحيلة التي جربتها، لم يكن الصغير ليقبل بديل أقل عن ثدي أمه مهما حاولت، وتحولت وجبات إرضاعه إلى نوبات مفزعة من الذعر والبلبله، وكان الأمر ينتهي به غالباً إلى أن يسكر في بكائه حتى يعجز عن التنفس، ثم يتقيأ كل قطرة حليب تسربت - بالخطأ - إلى معدته.

أصرت سهلة بسذاجة بأنه سيرضخ للحليب الصناعي في النهاية، لأنه خياره الوحيد! ومع مضي الوقت راح اللبن الإلهي في ثديها يفتر ويفقد زخمه، وصار فهادي هزياً وكثيب الشكل: نحل عوده وشحب لونه وتقعر وجهه حتى فقد الرغبة بالحركة واللعب، لم يعد يضحك

أو يرفس برجليه أو يلوح بيديه أو يطلق في الهواء أصواته الطفلة، كان يرى على الدوام ممدداً على الأرض دونما أي رغبة بفعل أي شيء، كمن نفي في قعر الجوع والتصور، بأعينٍ ناعسة ونظراتٍ اللامكان. لم تكن جدتي راضية عن حاله، ولكنها لم ترغب بالضغط على كتنها حديثة العهد بكونها أما، وحديثة العهد أيضاً بكونها أرملة، فكبتت رفضها في أعماقها وتفرغت للابتهاال، وطوال شهره السادس، كان الصغير يحصد أقل قدر ممكن من الوجبات غير الشهية عن طريق تقطير الحليب الصناعي في فمه بالقطارة وإرغامه إلى ابتلاعه، وكان معظمه يسيل على ذقنه ورقبته، وسط نوبات البكاء المحموم التي تثيرها هذه الوجبة المزعجة، ومع ذلك، أصرت شهلة بأنه سيرضخ للزجاجة الصناعية ويقبل بها "من أجل مصلحته".

ما زالت جدتي تعتقد بأنه كان أكثر اعتقادات كتنها غباء!

ذات مساء، وبعد صلاة المغرب، دخلت أمي هيلة إلى غرفة الجلوس مرتدية جلال صلاتها وهي تتلو أذكار المساء، عندما وجدت فهادي ذو الأشهر الستة يغط في النوم على الأريكة وقد حاصرته الوسائد من كل صوب لحمايته من السقوط، ولم يكن ثمة حاجة لهذه الحماية لأنه ببساطة لم يعد يتحرك، كان الصغير في أكثر حالاته ضعفاً وشحوباً وشبهاً بأبيه المرحوم، وراود أمي خاطرٌ بأن عليها أن تفعل شيئاً من أجل الصغير قبل أن يقتل على يدي أمه البلهاء، حملته أمي بين ذراعيها بتردد وهي تنظر يمينا ويساراً لتتأكد بأنها في مأمن من أمه، ومن جدتي أيضاً، لأنها تعرف في قراراتها بأنها على وشك أن تأتي المحظور: أن ترضع ابن أخيها!

خلعت أمي جلال صلاتها وفتحت أزرار قميصها وأخرجت ثديها الأيمن وألقت له منتصبه في وسط الغرفة، التقطه الصغير بتوثب مرعبٍ اقشعر له بدنهما كله حتى فاضت عيناهما بالدمع وضرعها باللبن، وراح

فهادي يرضع كما لم يرضع في يوم، يرضع بوله المشتاق، بكل الجوع الذي سكن عظامه الصغيرة النائمة من جميع جسده، بكل شغف العالم وقسوته ونهمه وشراسته، كان فهادي يرضع!

بعد دقيقة، دخلت شهلة إلى الغرفة حامله بيدها زجاجة الحليب الصناعي وهي ترجّها في الهواء، لتجد ابنها يرضع من صدر أمي بشغف و- أيضاً - بشيء من اللا تصديق، فاستيقظت في جسدها فورة بكاء قديم، اقعشر جلدها وتشنجت أعضاؤها وطفرت دموعها، أمام حقيقة أنها حرمت الابن الوحيد من الحليب الرباني الذي قسمه الله له من خلالها، من هي لكي تمنع عن الطفل رزقه المكتوب؟ كانت الحقيقة واضحة، إذا لم تعد إلى إرضاعه فالأرجح أنه سوف يموت! انهارت الأم على ركبتيها وهي تعض على يديها بنواجذها بقوة.. لم ترغب بإصدار صوت يزعج رضاعة الصبي الذي أنهكه جوعه وعنادها، ولكن جسدها المغيب في غياهب البكاء كان بحاجة لعضات مؤلمة، وبقعة دم كبيرة تلوث السجادة، لكي يهدأ..

هيلة

1

ابنتي المسكينة تريدُ أن تلعب، تمشي خلف ابنة خالتها طوال الوقت حاملة كل ما يمكنها حمله من اللبنة المحشوة والعرائس، تتبعها وتنادي عليها ولا تكل أمام تجاهل الأخرى وتظاهرها بالصمم، نلعب لعبة كذا؟ نجرب لعبة كذا؟ أنا أختبي وأنتِ تبحين عني، أنا أركض وأنتِ تركضين خلفي، أنا أمشط العروسة وأنتِ تهندمين العريس! ولكن الطفلة لا تريدُ أن تلعب، إنها ببساطة: لا تلعب! "أنا مشغولة! مشغولة!" تبحث عني في أرجاء الشقة، لا تطرق الأبواب ولا تستأذن قبل الدخول، سواء كنتُ أقشر الخيار في المطبخ، أو أدهن جسدي بالزيوت في الحمام، فهي معي أينما حللت، وتجذني أينما ذهبت، ولا مفر من مواجهة عينيها الشيطانيتين، عندها دائماً مزيدٌ من الأسئلة.. أتساءل لماذا لا تذهب بكل تلك الأسئلة إلى أمها؟ ما الذي يجعلها تأتيني كل ليلة بسؤالٍ جديد؟ والحقيقة أنني لا أتساءل! أنا أعرف! أعرفُ أختي! تجد صعوبة في تصديق كل شيء، وفي الامتثال لأي شيء، فكيف لا تكون هذه ابنتها؟ وأنا، كل ما عليّ فعله هو أن أكون لها أمّاً ثانية، هكذا تعاهدنا، أن نتشاطر أمومتنا مع الثلاثة أطفال: فطامي ومضاوي وفهادي، عندما تأتيني ابنتي التي لم أنجبها حاملة على كتفيها الصغيرين خطاطيف أسئلة، فكل ما يمكنني فعله هو أن أجيب! نورة لا تحب أن تعطي إجابات لأي شيء، والأرجح أنها لا تملك إجابات لأي شيء، رأسها غائمة وملوثة وفاسدة، وينبغي عليّ الآن أن أحمي ابنتي من الفساد في رأس أمها، أن أربيها كما يجب، ينبغي للطفلة أن

تعرف من هي، وأي عالمٍ هذا، وما الذي تتوقعه من حياتها وما الذي ينبغي عليها أن تسعى من أجله.

- أمي هيلة!

صعدت على طاولة المطبخ، تربعت في وسط الطاولة وهي ترشقني بالبريق الشيطاني في عينيها، تبعثها ابنتي ممثلة، ابنتي التي لا تجد صعوبة في التصديق ولا في الامتثال ولا حتى في التقليد! صعدت على الطاولة هي الأخرى وتربعت جالسة وعلى وجهها علائم الإحباط، ليس هذا ما تريد فعله، الآن وقد تأهبت جميع الدمى للزفاف الكبير..

- مضايي تلعبين بالعروسة؟

- لأ.

- ليش؟

- لأنني مشغولة!

- إذا إنتي كله مشغولة ليش تجين بيتنا كل يوم؟!

تجاهلتها الأخرى تماماً، وجهت أنظارها نحوي، أنا الغارقة في مرق الدجاج ورأسي في بخارِ القدر، واضح أن عندها سؤال جديد! "أمي هيلة! أمي هيلة!" ناديني طوال الوقت، ناديني "أمي" أكثر مما تفعل طففتي: أمي هيلة قصي عليّ كيف رضع فهادي منك؟ ولماذا توجد بقعة دم سوداء في سجادة الصلاة؟ لماذا وكيف وماذا وهل..

أعرف بأن شهلة ما انفكت تتداعى وتتساقط قطعاً.. رأيتُ الدماء تتفجر من كفيها، رأيتُ قطع لحمها تتساقطُ على الأرض تبعاً، رأيتُ أسنانها تقشر جلدها وتمضغه، رأيتُ القاني يصبغُ أسنانها ويديها وثوبها ويترك لطحته المميزة في سجادة الغرفة، ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل لها؟ كان ابن علي يرضع من ضرعي!

انتصبتُ في وسط الصلاة مثل جذع: أحمل الصغير بيمني وأثبتُ ثمدي بيسراي، لم تكن ثمة قوة قادرة على سلبي تلك اللحظة إلا أن يحول الله بيني وبينه.. ابن علي يستجيب لضرعي ويشبعُ من لبني ويتنشق رائحة جلدي بعد أن حرمت عليه المراضع وانقطع لبنة السماوي ونهشه الجوع، ورغم أنها سقطت بين قدمي تعض على يديها ندماً، لم أكن لأفعل شيئاً من أجلها، هي التي حكمت عليه بالتضور، هي التي كابرته على حساب لحمه ودمه وعظامه، وكانت ثورة البكاء التي تستيقظ أخيراً في كل شبرٍ من جسدها، هي توبةٌ متأخرةٌ لأم آثمة، واستجابة الجسد الترابي للعقاب الإلهي.

مرت دقائق، ثم دخلت أُمي إلى المجلس، لم أرَ وجهها: كنتُ أولي ظهري للباب وقد تسمرت عيناي على الرضيع، وسمعتها تبتهل "إله إلا الله".. وكانت شهادة! تقدمت أُمي بخطواتٍ هادئة لكي تساعدني على الجلوس، وضعت الوسائد حول ظهري وتحت ركبتي، وأومات إليّ، بعينين متواطئتين، كي أظل هادئة، ثم التفتت إلى شهلة التي جنتها لآم ضميرها، حملتها على الوقوف وأخرجتها من الغرفة فيم الأخرى تكيل الاعتذارات اليائسة للطفل وروح أبيه والله في عليائه..

مضت نصف ساعة حتى شبع الصغير، غفا على جلدي وحلمة صدري تملأ فاه، اعتدلت أنفاسه وهدأت وكان قد شرع في الحلم..

حملته عائدة إلى المجلس، كن جميعاً هناك، ينتظرن بصمتٍ متواطئ، أن أفرغ من رضاعته، أمي وأختي وأرملة أخي وحتى رقية، رأيتُ شهلة قد هدأت وفتربكاؤها، رأيتُ نورة متورمة العينين محمرة الأنف، رأيتُ رقية تخبئ رأسها داخل شالها الأسود، ورأيتُ أمي، وجهها العميق الموجل في الأسى، ترفع إلي عينيها الحادثين وتسال: شبع؟

- إيه يمه شبع.

- الحمد لله.

وبسرعة استعادت طبيعتها الأمرة:

- لا تعودينها.

لم تكن أمي بحاجة لتذكيري بذلك، لأن خمس رضعات مشبعات من شأنها أن تحول فهاد بن علي إلى ابن لي، مما يعني حرمة زواجه من ابنتي، وبذلك كانت رضعة واحدة، رضعة وحيدة!

رفعت شهلة رأسها بكثيرٍ من التضرع صوب أمي وسألتها:

- خالتي ممكن يرجع الحليب؟

- شاللي يرجعه؟! الحليب إذا راح.. راح!

.. ومع ذلك، أقسمت شهلة في ذلك المساء أن تجترح المعجزة وتعيد اللبن إلى ضرعها مهما كان الأمر متعذراً ومستعصياً على ثديها الذابلين، لم يلتفت أحدٌ لما بدا أنه تخاريف ندم لأم آثمة، كانت تلك الرضعة اليتيمة كافية لكي تخدر ألما على الصغير ولو لحين.

أمضت شهلة أسبوعاً في أكل البرسيم والشعير، ملأت بطنها بطسوتٍ كبيرة من التمر والرطب، الرهش والسسمية، الجرجير والبربير والبقدونس، رأيناها تمشي كالمسرنمة في الحظيرة بصحبة عنزاتٍ أمي وتشاركها أكل العلف بدون أن تكشر أو تقطب أو تتأفف أو تتقيأ: كانت تأكل بقدرٍ من تستطيع في النهار، وتلقم الصغير ثديها في الليل لكي

يقوم بدوره في استدعاء الحليب من منابعه.

بعد ثلاثة أيام، كان الدم يتفطر من حلمتيها المتشقتين لا الحليب،
ملاً الدم بطن الصبيّ وفمه حتى صار يتقيأ دماء أمه، كانت تلك هي
اللحظة التي فاقت كل احتمالها، فبكت حتى غلبها الإعياء ونامت.. نام
ابن علي على صدر أمه بعد أن أرهقه الجوع والمصّ بلا جدوى، نامت
معه على الأرض، إلى جانب المناديل وأكياس البلاستيك والقيء.
.. ثم حدثت المعجزة.

كانت شهلة غارقة في النوم عندما صرخ الصغير بذعر فاستيقظت
ملتاعة تتفحصه، لم يكن الشيطان هذه المرة! كان تسرّب الحليب من
صدرها هو ما بلبل ملابس الصغير وأفزعه في نومه، وراحت تتفحص
نهديها غير مصدّقة، تحمل في كل يد نهد.. وتضغط الحلمتين لينقذف
الزلال العسليّ في سبعة خيوط حريرية تطعن الهواء وتحطّ على وجه
الرضيع الولهان، وكان فهاد ابن علي يملأ بطنه مرة أخرى من اللبن
الإلهي.

استمرت شهلة في إرضاع ابنها حتى أتمّ العامين من عمره،
أرضعته حتى ما عاد راغباً بصدرها، وصار يفضل عليه البطاطا المقلية
والهامبورغر.

نورة

1

كانت تقف على الباب، تمص إبهامها وتحاصرني بعينيها، أخافني حضورها المبالغت، نهرتها: مضايقي؟ شتسوين عندك؟!

أرسلت عينيها نحو أبيها الممدد على الأريكة في غرفة الضيوف، ذراعه تغطي عينيه، شخيره يتردد في المكان خافتاً تارة، عالياً تارة. همست متواطئة مع هدوء المكان:

- ماما ليش بابا ما ينام معاك في السرير؟
ولم أكن أملك رداً شافياً لابتسي، كانت الأشياء قد تخلت عن وضوحها في عالمي، رددت هامة:

- بابا يحب ينام في الصلاة علشان الصلاة أبرد من داخل..

- بابا حران؟

- إيه، بابا حران.. شفيك ماما؟

- أبي أنام عند فطومة.

.. وكما أفعل كل ليلة، أجهز حقيبتها المدرسية، فرشاة أسنانها، مشطها الورددي، مريول الروضة وما يكفي من العرائس المحشوة، وأرسلها إلى شقة أختي في الطابق السفلي، أتساءل إن كانت تدرك بأنها في دخيلتها تهرب مني، من الفتور الذي يتمدد ثقيلاً على صدر المكان، الصمت المطبق والأشياء التي تجمدت وتيبست وجفت، عللت نفسي بأن هذا أفضل لها، أن تذهب إلى مكانٍ تقدر أن تلعب فيه، مكان يشغلها عما يحدث لي وبني، لم أكن أريد لها أن تعتاد مشهد الأب /

الزوج الذي تخلى عن امرأته بدون سبب، بدون معنى، ومشهد الأم /
الزوجة المهجورة بدون سبب وبدون معنى، لم أكن أريدُ لها أن تشبَّ
في عالم كهذا، وكنْتُ أعول على طفولتها كثيراً كي لا تتبه للأمر، أو
هكذا ظننت، حتى خضت دوراتٍ تدريبية وقرأتُ كتباً عن أسرار "العقل
الباطن"، عوالم مهولة ومفزعة تفتقت أمامي، عرفتُ بأن عليّ أن أحميها
من قدرتي، من لعنة أن تشبَّ البنت على أمها، مهجورة ومتروكة بلا
سبب ولا معنى! وطوال ليالي الصمتِ تلك، ليالي الوحدة والهجرانِ
والخيباتِ والأسرة الباردة، كنْتُ أفكر بها وأتساءل.. يا إله السماوات،
لو كنْتُ أعرف للحظة بأن حياتي ستؤول إلى هذا الشكل، هل كنْتُ
لأنجب إلى هذا الوجودِ طفلة؟ أنا التي انتظرت حدوث ذلك لخمس
سنوات، وسبع إجهاضاتٍ مؤلمة، وما يكفي من الإبر والعقاقير لقتل
بقرة، كيف يسعني الآن أن أشكك في رغبتني بالأومومة؟

كانت تلك ساعة الشاي السيلاني والفسق الحلي والدفء العائلي، تتكى أمي على مساند "السدو" الأرضية حيث علي ممدد على يمينها، يكسر لها الجوز ويقشر لها الفستق ويعبئ فنجانها بالشاي الأحمر كلما فرغ نصفه، امرأته على يمينه وهيلة على يسار أمي، دخلتُ إلى المجلس حاملة ثلاثة علب كرتونية تحمل كعكاً ومعجنات وعصائر وكل ما هو ملائم للاحتفال، وقد كانت حياتي - حتى ذلك اليوم - مليئة بمناسبات الاحتفال، منذ عملي الذي يزدهر وحتى زواجي الذي أورك والجنين الذي لم يتخلّ عني، أمعنت في إرسال السلامات والتحايا، أمرر عيني على الوجوه جذلة، وخزنتي أمي بعينها وهي تميل ذقنها على كفها، تغطي بعض فمها بإصبعين.. كان في صوتها صوت مختلف:

- حامل بعد؟

- اذكري الله يمه!

أطلقت هيلة في الفضاء زغاريد لاهبة، نهض علي من مكانه وقبطني بين عيني، ومن بعده شهلة، توالى التبارك "مبروك! مبروك!".. يعرفون كم طال انتظار ذلك، وبسواء أدلقوا على روجي دعواتٍ بتمام النعمة وبقاء العافية، وحدها أمي تسمرت في مكانها تنظر إلينا، هيلة وشهلة وأنا، بشيء من القلق، تمتت: الله يستر.

كانت ردة فعلها على خلاف ما توقعت..

- وش دعوة يمه!

- يعني كان لازم تحمليين وخواتك بعدهن؟

كيف يمكنها أن تقول لي شيئاً كهذا؟ أأست أحق بالأمومة من هيلة التي سبق وأنجبت صبيين من زوج سابق، وها هي تحبل للمرة

ثالثة من زوج ثانٍ؟ وشهلة التي ما فتت تردد طوال عام بأنها لا تريد أن تحبل لكي لا يفسد قوامها؟ بعد خمس سنواتٍ من الانتظار واللوعة، تطلب مني أمي أن لا أحبل بالتزامن مع أختي وزوجة أخي!

- كله بأمر الله يمه! يعني علشان هيلة وشهلة حملوا أنا ما أحمل؟

- حنًا ناقصين حسد؟

- ماكو إلا العافية يمه بس إنتي فرحي لي!

توسدت فخذها الأيمن، قبلت كفها وأصقته بخدي..

- تكفين يمه قولي مبروك! ولا ترى بزعل وبروح بيتي.

- مبروك يا أمك

- وإكلي كيك.. يا رقية جيبي عصير!

- ما اشتهي، إكلوه انتم.. بالعافية.

.. نهضت بشاقل، ثتن من آلام ركبتيها وظهرها ورقبتها، كانت أمي قد أصبحت عجوزاً في ذلك الوقت رغم كل السعادة من حولها، بحثت في المكان عن بقعة خالية، غير ملوثة بالسعادة، بالدفاء والعائلة، أطفأت أنوار غرفة الجلوس وتمددت على جنبها الأيمن، تتوسد يديها وتصرعها الفكرة: ثلاثة مواليد مرة واحدة!

رقية

1

هدأ المكان. العجوز غفت، البنتان خرجتا للعمل، الأرملة تراكمت في سريرها وأغمضت، الأطفال في الروضة. كنتُ أغسلها الأواني والقدر، أتشاغل بها لحين عودة الأبطال إلى جسد الحكاية.

بعد ساعتين سيعودُ الأطفال من الروضة، سيتحدثون عن حربٍ جديدة نشبت بين الصغيرتين، ستكون فطومة قد انتزعت من رأس مضاي خصلاتٍ أخرى، وستكون مضاي قد غرزت في زند فطومة أظفاراً أخرى، وسيكون الصبي قد اكتفى بالصمتِ والتفرّج بدون أي نوع من الانحياز، الصبي الذي لا يشعر بشيءٍ إزاء المعارك التي تفتعل في سبيله، فهو في أقصى حالاتِ اكتماله، والقلق ليس من ضمن خصاله.

زارني الأطفالُ بالأمس، في غرفتي الخلفية في أقصى حوشِ العائلة، عندما لا يجد أولئك الصغار شيئاً يخربونه يأتون إلى أمهم السوداء المقصية في هامشِ الحكاية، يبعثوا سريري وينبشوا أدراجي، كان فهاد يقفز على فراشي ويهبط على مؤخرته ليعاود القفز، يردد "سأطير! سأطير في السماء!".. عندما يلعبُ الصبي فهو يتحدث بلغةٍ فصحي، مثل أبطاله المفضلين في أفلام الكارتون، الذين لا يتداولون إلا اللغة الرفيعة التي لا تنتمي إلى هاجس اليومي والرتيب. كانت مضاي تتفحص أدراجي ودولابي، استخرجت علبه كريم "نيفيا" الزرقاء وفتحتها، تشقت رائحتها وغمرت وجهها تعبيراً الغريبة، أتساءل، ماذا كانت تتوقع أن تجد في علبه كريم مرطب؟ استخرجت من درجي

السفلي "مصحفى" المهترئ، بحثت تحته وحوله وفي داخله.. عمّ
تبحث؟ ولماذا تبحث على الدوام؟ رفعت عينيها الهائلتين إلى وجهي
ثم سلكت في كبدي تلكم الأسئلة:

- رقية عندك قلم "حمرة"؟

- لأ..

- ليش؟

- ما أحبها!

- ما تحبين الحمرة؟

- ايه..

- ليش؟

- بس! ما أحبها..

- ولا تحبين الكحل؟

- إيه..

- ولا البودرة؟

- مضايوي! ما أحب المكياج.

- ما تحبين المكياج؟

- إيه يا قلبي، ما أحب المكياج.

- طيب تحبين "الشباصات"؟

ضحكتُ، أدرتُ رأسي لأريها مشبك شعري:

- أحب الشباصات..

- كم شباصة عندك؟

- واحدة.

- بس؟

- واحدة كافي.. أصلاً شعري كله يطيح ويخلص.
- أنا عندي ثلاثة!
- لم أكن أعرفُ كيف أردّ، ولكنها لم تنتظر رداً بأي حال.
- رقية!
- نعم؟
- عندك عروسة؟
- لا يا قلبي أنا صرت كبيرة.. ما أَلعب بالعرايس.
- وإنّتي صغيرة لعبتي بالعروسة؟
- ايه..
- ولسبب ما، احمرّ وجهي، وصرتُ أمعن في تجديد شعر فطومة التي جلست بصمتٍ بين فخذي لأسرح لها شعرها..
- رقية!
- هلا يمه..
- عندك صورة حَقك وإنّتي بالروضة؟
- ازدردتُ ريقِي، قاسياً ومؤلماً، طأطأتُ رأسي واستغرقت داخل الشعر المنكوش الذي انطلق في جميع الجهات، هل أردتُ أصمت؟ أهرب؟ كيف أعلل لهؤلاء الأطفال غياب الذاكرة وغياب الطفولة، وحتى غياب الأنوثة؟ غياب التفاصيل التي تبحثُ عنها هذي الصغيرة بنهم؟ كيف أفسر لها خلو حياتي وأدراجي من الصور والعرائس وأقلام الكحل، وكيف أبرر لها ولي كل هذا الفراغ؟ من أين أتيت؟ وكيف صرتُ بينهم؟ كيف أستطيع أن أحكي لها عن شيء كهذا دون أن أفزعها من العالم؟

تدخل الصبيّ بعفويته المعهودة:

- أنا أمي صورتني وأنا لابس "باتمان" ..

- أياااه يا باتماان!

هتفت، سعيدة بمدخلته وسذاجته وغيابِ انتباهه ..

- كان عمري ستين!

- وألحين كم عمرك فهادي؟

- خمسة!

- صح!

- أمي حطت الصورة في الجريدة.

أذكر تلك الصورة، والبلبله التي أحدثتها، والهواتف التي لم تكل من الرنين، تهنئ الأرملة والجددة بالصغير الوسيم الذي يشبه أبيه، الكويتُ كلها تتذكر علي، الكويتُ كلها تحب ابن علي!

تدخلت مضايوي:

- أمي عندها "ألبوم" صور وهي صغيرة في الروضة، وعندها ألبوم

صور وهي عروسة وبابا عريس، وعندها ألبوم صور حقي "مقي" وأنا بيبي وعمري شهرين بس!

- بس ما حطوا صورتك في الجريدة!

- أنا بقول حق ماما تحطها في الجريدة باكر!

تألمتُ من أجلها، هوسها بأن تكون مثله، بأن تحظى بحياته وتحصد امتيازاته، هذي الشقية التي تركض وراء خيبتها، تنهشها الغيرة من الداخل. أدرتُ دفة الحديثِ صوب الأخرى التي أمعنت في الصمت وقد تخدرت من مرور الأمشاطِ على فروة رأسها..

- فطومة إنتي عندك ألبوم؟

وبدون سببٍ مبرر، أدارت وجهها نحو وجهي، كانت عيناها

دافنتان عميقتان، ثم لفت ذراعيها حول جذعي وقالت وهي تضميني بقوة "رقية أنا أحبك واجد!".. كان صوتها نقياً وحقيقياً وبلا مناسبة، تماماً مثل حبها.

عادت موضي إلى تشمم علبه الكريم المرطب مثل قطة.

أفقلتُ بابي بالمفتاح، توكأتُ عليه بظهري ورفعت رأسي إلى السقف، إلى بقع البلل الصفراء وقشور الصبغ التي تقشعت عن وجه المكان، حاولتُ أن أتغاضى عن الفكرة التي تنخرُ رأسي، أسرعتُ إلى دولابي، أخرجتُ قطعة القماش وجلال الصلاة والسجادة المطوية، كريم نيفيا والمشط وعلبة الفازلين.. صارت أدرجي خالية، بما يشبه حياتي وحقيقتي، كنتُ أشبهني كثيراً وأنا أهدق في الفراغ، وأعود لأتفحص مقتنياتي الهزيلة منذ ولادتي المزعومة وحتى اللحظة، ثلاثين سنة أو أكثر، أحب أن أفكر بأنني في الثلاثين، منذ ثلاث أو أربع سنوات وأنا أفكر بأنني في بداية الثلاثين، ولأنني لا أعرف متى ولدتُ بالضبط، فأنا ما زلت في بداية الثلاثين، كل عام يمرّ وأنا لا أزال في بداية الثلاثين، أحياناً في الثالثة والثلاثين، أحياناً في الرابعة والثلاثين، وأحياناً أفكر.. ما المانع في أن أكون في السادسة والعشرين؟ ما الذي يمكن أن يمنع حدوث ذلك؟ أن تجهل تاريخ مولدك يعني أن تفقد علاقتك بالزمن، أو لنقل.. أن يفقد الزمن علاقته بك، لأن الزمن يحب لعبة العد والحساب، يحتاج الزمن إلى نقطة بداية، إلى تاريخ ميلاد.. ما الذي يحدث عندما لا يجد الزمن عتبة ينطلق منها في جريه الولهان صوب التناهي؟ إنه يكف عن الجري ببساطة، لهذا السبب، ما زلتُ في أول الثلاثين، منذ أربع أو خمس سنوات، وأنا في أول الثلاثين وبكامل رغبتني.. وأمام هوس هيلة ونورة وشهلة إلى تصنيف تواريخ ميلادهن كمعلومات غاية في السرية، كنتُ أضحك عليهنّ وأنا أتمزق في داخلي، لو أمكنتني أن أعرف فقط متى ولدتُ لصار بوسع جسدي أن يشيخَ باطمئنان، وأن يستسلم لحقيقة الموت، وأن يحبّ الحياة.

أن لا تعرف موعد ميلادك يعني أن تعيش حياتك كما لو أنك تعوم

في حلمٍ غريب، هل وجدتُ أصلاً؟ أم أن وجودي - آلام مفاصلي وغبش ذاكرتي - هو مجرد خدعة بصرية محكمة؟ هل أنا هنا، أم أنني كذبةٌ أخرى؟ كيف يمكن أن أكون حقيقة فيم كل شيءٍ أعرفه عني هو محض كذب؟ منذ لحظة الميلاد، وحتى الاسم المستعار، والأبوين المجهولين والتاريخ الفجيعة، لا داعي لأن يعرف الصغارُ من أنا، ستكون تلك هي اللحظة التي يفقد فيها العالم أمامهم سمعته الطيبة، فلأبق هكذا إذاً، في الغرفة الخلفية من الحوش، أشرع لهم عالماً من الخواء والأدراج الفارغة، أقص عليهم قصصاً لم تحدث، أسمع منهم قصصاً لم تحدث، أساعدُ حيواتهم على المضي، الحيوانات التي تمشي على عكازين، كنتُ أنا.. طوال سني وجودي هنا، مع هذه العائلة، مجرد عكاز مرمي في الغرفة الخلفية من الحوش، الأم السوداء التي وجدت قبل أن يوجدوا، التي هي جزء من هذا العالم دون أن يفهموا كيف وصلتُ إليه، وإذا ما كنتُ قريبة أو جارة أو ابنة أو صديقة أو عدوة، هؤلاء الأطفال - ولله الحمد - لا يتساءلون بما يكفي، فلتبق الأمور هكذا إذاً، في الغرفة الخلفية من ذاكرة العائلة.

سأكون جزءاً من هذا المكان لأنني جزءٌ من هذا المكان، أساعد المشاهد على الاكتمال وأمنحها واقعتها الفجة، سأكونُ النافذة التي تفضي على الباب الخلفي من العالم، على المكان الآخر الذي لا يتسق مع مثالية العالم الذي دثتته غيضة هنا، الأمومة المقتسمة والموزعة بمساواة بين ثلاثة أطفال يرتعون في عالم الأحضان والحليب والعرائس، يوماً ما سيكتشفون بأن الحياة خارج هذا المكان لا تشبه هذا المكان! بأن ثمة أطفال ولدوا ليموتوا، وثمة آخرين لم يحظوا بأب أو بأم أو حتى بجدة مهيمنة، وأنه يوجد في هذا العالم أطفالٌ لم يجربوا الطفولة كما ينبغي، وكان عليهم - أحياناً - أن يركضوا في الشوارع حفاةً مع البهائم، تحت وابلٍ من الرصاص، مثلي.

أعيد أغراضى الهزيلة إلى الأدرج فاغرة الفاه، أدارى حقيقتى
وأمضى مثقلة بالتواريخ والذكريات والأجداد المفتعلين، أمضى إلى
العجوز فى ركنها المهيب، أدلك لها قدميها وأسألها عما يمكننى فعله
لكى تصبح حياتها أفضل، هل أتبل الدجاجة من أجل العشاء؟ هل
أخذ الدواء إلى شهلة؟ هل آخذ الصبي إلى الحلاق ليقصر غرته؟ ماذا
أستطيع أن أفعل لك، أيتها العجوز الهائلة، كيف أساعدك للسيطرة على
العالم؟ كيف أساعد عالمك على أن يتحرك على هواك؟ ماذا أفعل
لك، يا أمى، كى أسعدك؟

.. غيضة العجوز تشكّ في القدر، تسائل نواياه، تستشف خفاياه، تستنبط مغازيه، تتفحص أسبابه، تحاكم طرائقه، وهي تعرف كيف تتعامل معه، بدون فناجين مقلوبة، ولا نرد، ولا أوراق لعب.. بل بالسني الطويلة التي أفتتها في محاولات تستبسلُ لحل شيفرة الحياة وتفكيك أغازها، كيف يعمل هذا العالم؟ ما هي الآلية التي تمضي وفقها الأمور، الآلية التي نسميها "سنة الحياة"؟ كيف يستطيع المرء أن ينفذ إلى هناك؟ كيف يمكن للمرء أن يجعل العالم في صفه؟ لا أعتقد بأن غيضة تقدر - ولو للحظة - على إقصاء العالم من رأسها، على التوقف عن التفكير فيه وتحليل مجرياته، فكل شيءٍ عندها بمقدار، بسبب ومن أجل سبب، لو انكسر برواز صورة العائلة، لو اصطدمت حمامة بنافذة غرفتها، لو انقطعت علاقة حقيقية يدها، لو داست على طرفِ عباؤها، كل شيءٍ يحدث بسبب، ومن أجل سبب، كل شيءٍ ملغوم ومدجج بالمغازي والعلل، غيضة لا تؤمن بالعشوائية، ولا بالمصادفات، فكيفَ يمكنها - الآن - أن تفسر أنها على وشك أن تحظى بثلاثة أطفال؟!

عندما تزامن حمل هيلة وشهلة ونورة شعرت غيضة بأن سوءاً ما سيحلّ بأسرتها، لأن الحياة لا يمكن أن تعطي بهذا السخاء دون أن تسلبك شيئاً في المقابل يكونُ بذات الحضور وذات الأهمية، ثلاثة مواليد تعني ثلاث حيوات ستحط على الأرض لتطالب بحقها من المساحة والوجود، الحيوانات الجديدة ستزيحُ في الغالبِ تلك الأقدم، الميلاد وجه الموت، الموت قفا الحياة، لا شيءٍ مجاني في هذه الدنيا، عندما تمنحك الحياة شيئاً فهذا لا يعني أنها تحبك أو تؤثرك، بل يعني ذلك - وببساطة متناهية - أنها تعقد صفقة معك، وسيكون ثمة ثمن لكل شيء: لا أستطيع أن أدفع ثمن ثلاثة مواليد! فكرت غيضة..

بعد تلك الليلة، اجتمعت العجوز بابنتها وكتتها لتلقنهن وصاياها: أوصت غيضة الحوامل الثلاثة بأن يدخلن من أبواب متفرقة، أن يشتن الأعين ويختفين أمام انتباه الآخرين، أن يرتدين أحزمة عريضة تلف بطونهن وتخفف من ظهور الحمل، أن يلبسن جلابيات واسعة وزاهية وملونة من شأنها أن تموّه بروز البطن، منعتهن من الذهاب معاً إلى الأسواق والأماكن العامة، وأمرت أن تراجع كلّ واحدة عند طبيب مختلف، وعندما كانت تطرأ مناسبة اجتماعية للتواصل مع المعارف والأقارب، كان الاختيار يقع على واحدة فقط لتأدية الواجب وبالتناوب، ولا يحدث ذلك إلا بعد أن تقوم بتلاوة المعوذات وتأكل سبع تمرات (عجوة) وتمرر بطنها على بخور العجوز ويديها وهي تردد المأثور من الرقية الشرعية من الحسد.

.. حدث مرةً واختلفت نورة وهيلة أيهما أحق بالذهاب إلى حفل زفاف ابنة عمهما، فقررت العجوز أن تحتكم إلى القرعة! وبقدري ما يبدو الأمر عشوائياً إلا أنه لم يكن كذلك بالنسبة لغيضة التي لا تؤمن بالمصادفات، وقررت القرعة أن تذهب هيلة إلى العرس وأن تمكث نورة في المنزل، فاستغرت الأخيرة في بكاءٍ عريض وهي تقسمُ بأنه "دورها" وبأنها أقرب إلى ابنة عمها من أختها وبأنها قد أعدت نفسها للمناسبة منذ شهور وحجزت موعداً في صالون التجميل واشترت فستان سهرة.. ولكن الأمر محسوم، فالقرعة قرّرت! جلست نورة على الأرض، عند قدمي أمها وأقسمت "تري والله إذا ما رححت العرس راح تطلع إلي فد بطني دمها ثقيل وشينة!".. وكان ذلك كافياً لإرهاب غيضة، وهي التي تؤمن بأن الأجنة تمتص عالمها المحيط، وبأن مزاج الأمهات هو الكيمياء التي تشكل أمزجة وطباع ووجوه الأجنة! فقررت أن تقيم لنورة عرساً في غرفة الجلوس، طلبت منها أن تلبس فستان السهرة الجديد وأن تبسج، طلبت مني أن أرقص بالعصي، على أنغام الراديو، وهذا

ما كنتُ أفعله دائماً: أساعدها في السيطرة على العالم.

صممت غيضة خطة محكمة تضمن لها أن لا تتواجد الحوامل الثلاثة في مكان واحد أمام غريب أو قريب أو جار أو عدو أو صديق طوال أشهر الحمل، وباستثناء الأماكن التي سمّتها هي، كنّ في الغالب يتشاركن مصمصة الليمون الأخضر بعد غمسه بالشطة الحارّة، ويتساءلنّ عما ستكون عليه وجوه الأجنة الثلاثة، فاطمة، فهّاد وموضي.

سارت الأمور بالشكل المفترض بالنسبة لها، ولم تخالف أي من النساء الحوامل وصاياها، مرّت الأيام بهدوء، لا يعكر صفوها إلا الدوخة والوحام! ورغم أن العجوز - في بداية الأمر - قد نجحت في تسريب توجسها إلى النساء الثلاثة، إلا أن هواجسهن سرعان ما تبددت، وركنّ إلى الاطمئنان إلى الحياة.
لم يبدُ لأحد بأن شيئاً ما سيحدث..

هيلة

كان يوم جمعة. تمددتُ على جنبي الأيمن أفترش كفي على مساند السدو الأرضية ورقية تدلك أسفل ظهري، نورة وشهلة تشرعان في إفطارهما الثقيل: حميسة "كبدة" و"بيض عيون" و"بخصم" وشاي بالحليب، إضافة إلى كل ما زخرت به المائدة من شرائح الخيار والطماطم والجبن الأبيض، وفيما كانت الحياة عادية جداً سمعنا جرس الباب يرن، ثم تغير العالم.

كان المسئول الأمني، صاحب الصوت الغليظ والجلثة العملاقة والفخزين المتفخين، يقف عند باب البيت، يطلب التحدث مع أمي أو مع شهلة، ليخبرنا - ببساطة - بأن أخي علي قد مات.

- وش تقول أنت؟ وش تهرج أنت؟ وش وش وش..!

تناثرت الأسئلة في كل مكان، دونما أي استجابة من ذلك العملاق البليد ذي الوقفة البلهاء، الذي لم يكتف بأن يدعي موت أخي علي، بل وأخذ يطعم الخبر بمزيد من التفاصيل الغريبة! كانت الكلمات تتطاير من فمه مع رذاذ لعابه، تطنّ وتلاطم في رؤوسنا، وصرتُ أسمعُ صفيراً حاداً في شق مخي الأيمن، ورأيتُ أمي تلوّح بذراعيها وكأنها تهش على الذباب، فمن أين جاءها هذا العملاق الوقح ليخبرها بأن علي، لم يفارق حياته في أوج شبابه وحسب، بل فارقها مقتولاً، في تبادل لإطلاق النار في قندهار، مسلحاً ومصنفاً ضمن جماعة إرهابية! ما عدنا نسمعُ إلا صوتُ أمي وهي تقرّع الرجل: يا قلبي أنتم غلطانين بالعنوان.. لأن الأمر بدا لنا مثل محض سوء تفاهم، خطأ في العنوان، تشابه في الأسماء، أو مثل مزحة ثقيلة! فقد كانت المعلومات التي نملكها عن علي تتناقض بشكل سافر مع كل ما جاء في رواية المنحوس الأمني،

فحسب ما يعرفه الجميع، كان علي في السعودية يحضر معرضاً للذهب والمجوهرات يخص محله، وهذا هو كل وأقصى ما يمكن أن يحدث له وللعالم الذي يتحرك فيه، لأن علي الذي نعرفه لا يمكن أن يكون صاحب تلك الميثة، ولا حتى في أكثر خيالاتنا جموحاً.

تجمدت الأفكار في رؤوسنا، ورفضت عقولنا، أو عجزت عن تصديق الأمر، ليس لأننا كنا أربع نساء مجنونات بحبه، ابتداءً بأمه ومروراً بأختيه وانتهاءً بزوجته، ولم نكن لنقبل ما من شأنه أن يمس اسمه بسوءٍ، بل لأنه ببساطة شديدة كان شخصاً شديد الخفوت، كان علي رجلاً ناعم العينين هامس الصوت حلو الوجه رقيق الأصابع، كان علي من ذلك النوع من الناس الذي لا يريد سوى أن يترك وشأنه ليمارس حياته بالطريقة التي يحب، بتصفح كاتالوجات الأحجار الكريمة، وتبديل اللبمات المحترقة، وصناعة مسابيح الكهرب، ومتابعة توم وجيري، وإتقان أحكام التجويد، وتعلم علم المقامات، لعبة العالم لم تكن مغربة بالنسبة له، لا يقرأ الجرائد ولا يكثر للسياسة ولا يحب التلفزيون، لم يحدث أن أطلق حكماً بخصوص أي شيء، لم يرفع صوته في محادثة قط، لم يفعل لأجل أي شيء، لم يدافع عن رأي، ولم يهاجم رأياً، كنا نراه يذهب إلى المسجد مشياً رغم أنفاس الظهيرة اللاهبة وسخونة الأرض، وكانت أمي كثيراً ما تردد بأنه "حمامة مسجد بيضاء" وبأنه ينتمي إلى المآذن والسماء لا إلى الأرض، وهكذا جاء خبر موته بهذا الشكل المدوي والمشوش جاعلاً الأمر يبدو سخيلاً جداً، حتى أنني رحمتُ أضحك وشاركتني نورة تظاهرة الضحك، تمادينا وأخذنا نسخر من العملاق، صوته ويلاهة وجهه وجثته، كان كل ما فيه وقحاً ومستفزاً، حتى أن أمنا - وهي الصارمة فيما يخص آداب السلوك - لم تعترض، كانت المرارة تقطر في أفواهنا على مهل، فمن أين جاء هذا الحيء.. وان! لكي يطلب من أربعة نساء تفيض قلوبهن بالحب أن

يصدقن المستحيل ويكذبن المنطق والبرهان العقليّ والحدس القلبيّ؟
كنا متيقنات من أن الأمور ستكشف لنا عن الوجه الذي نعرفه عنه، فهو
- حتماً - حيّ يرزق، يتجول في معرضه في الرياض، أصررنا بإلحاح
على أن الأمر مجرد تشابه أسماء، وبأن علي لا يمكن أن يكون مسلحاً
لأنه لا يعرف شيئاً عن الأسلحة، علي لا يستطيع قتل ناموسة ولا دهن
نملة، ولا يمكن أن يشتبك في حربٍ ما لأنه لا ينتمي إلى أي جماعة
ولا يحضر اجتماعات ولا يعرف إلا القليل من الأصدقاء ممن هم على
شاكلته من الخفوت والسمو، لا يعبأ بالأفكار الطنانة ولا تفتنه الدبابات
ولا السيارات ولا حتى الدرجات النارية، لأنه ببساطة غير مهتمّ بتجربة
العالم! ولكنّ المخبول الأمنيّ أصرّ على أمي أن تحضر معه لتتأكد من
هوية المتوفى ولأجل أن تستعيد أوراقه الثبوتية وما شابه..

رقية

1

لفت غيضة جذعها بعباءتها السوداء، أسدلت برقعها على وجهها وصار ليس ثمة إلا عينيها، نادتنى أمرة "يارقية تعالي معي" .. تعالت صيحاتُ احتجاج الحوامل الثلاثة.. فكيف يمكنُ أن تتقيني أنا، من بينهن، لكي أرافقها في أمرٍ بهذه الأهمية؟ وبكل ما يحمله السؤال من دلائل مفجعة، تغاضت الأم عن البكاء والتباكي، وغرست سبابتها الغليظة في وجوههن حاسمة، ومرة أخرى: لم يكن ثمة إلا عينيها.

- كل واحدة تنشر بمكانها وتبلع العافية..

- بس يمه..

- ولا نسيوا انكن حوامل؟

وكانت تلك هي الحقيقة التي لا يمكن إجهاضها، والتي أصبحت الشيء الوحيد الثابت في العوالم الثلاثة / النساء الثلاثة، صمتنَ، طأطأن بمرارة، غادرتُ العجوزُ وأنا من ورائها، وفيم أنا أوصد الباب من دوني، رأيتُ شهلة تقف في آخر المكان، معلقة في الهواء، تترنح في غرائبية المشهد، وبطنها المتدلية أمامها تتمايل وتتهادى.

* * *

ذهبنا بصحبة عبد الله / زوج هيلة والمستول الأمني من أجل التعرف على القتييل الإرهابي الذي يزعمون بأنه علي بن فهاد، قطعنا الطريق الطويل بصمت، دخلنا البناء الغريب بصمت، مشينا الممر الهزيل بصمت، أمام الأعين المرعبة للعساكر الذين يملكون قدرةً مخيفة على

قراءة الوجوه واستشفافٍ مصائرهما.

وهناك.. عندما سلموا لغيضة جواز سفر ابنها الوحيد علي بن فهاد وبقية أوراقه الثبوتية ظلت تحدّق في وجه العسكري بكثيرٍ من اللا فهم، علقت العجوز في بطن اللحظة الغامضة، وسرحت نظراتها الموحشة في وجه الرجل الغريب، تمشط وجهه بالأسئلة الفادحة، تواطأ المكان مع صمتنا وعجزنا وقلّة حيلتنا وهواننا: بس يا أمك.. ولم يكتمل السؤال! سمعنا صرير باب المشرحة يُفتح، أو أياً كان المكان الذي يضعون فيه الجثث الواردة من الخارج، تحركت أقدامنا، تقودنا هي، نتبعها أنا وعبدالله، دخلنا إلى غرائبية اللحظة والرائحة واللون الأبيض الكثير، شهقنا وابتهلنا - عبدالله وأنا - ولم تنبس غيضة بشفة، رأينا الجثمان المسجى وقد غطته الملاء البيضاء، منذ رأسه وحتى أطرافه القصية.. ترنحت غيضة، تشبث بذراعي يمينها وهي تفتح في وجه الرجل الغريب وتضم يده بيدها "لا تفتح الغطا! لا تكشف وجهه!"

- إجراءات يا خالة.. لازم نكشف الوجه!

- أعرفه بقلبي يا أمك، ما لها داعي الإجراءات.. هو ولدي

علي!

- لازم يا خالة!

وفتحت في وجهه مرة ثانية: علي!

تجاسرَ عبدالله وسأل الغريب:

- فيه كسور أو جروح أو إصابات بالوجه؟

- لا.

وكان من شأن ذلك أن يخفف على العجوز وطأة المصاب، ترنحت في خطاها ماشية وسط ثلة الرجال المشفقين والمحدقين، مددت ذراعي في الهواء على يمينها وعلى يسارها تحسباً لسقوط

مفاجئ، وصارت دموعي تسحّ بسخاء، خطت غيضة ثقيلة صوب
الرأس، الوجه، اليد، القلب، وفي لحظة، خطر لها بأنها تريد أن تراه،
ليس لتعرف عليه، فقد سبق وعرفته بكل قلبها، بل لأنها اشتاقت إلى
رؤيته، وأرادت أن تتشوق جبينه وتقبله في عينيه لمرّة أخيرة..

سأل عبدالله: ممكن تطلع العجوز وأنا أتعرف ع الميت؟

ولكنها استبقت الأمر وكشفت الغطاء عن وجه القليل، تملى فيه..
في الوجه الذي طالما حافظ على طفولته وخبأها في وجهه بحيث لا
تبيّن حضورها ولا نفقده، انحنت غيضة على وجه علي وقبلته، قبلته
في جبينه، في خديه، في أنفه، في عينيه، وما بين عينيه، في شعره، في
كتفيه، في ذراعيه، في يديه، في ساقيه، في قدميه، في أصابعه، في أطرافه
في بطنه، في صدره، في أرنبة أذنه، قبلته كثيراً، كثيراً، كثيراً..

عادت غيضة إلى بيتها كما العائد من حربٍ خاسرة، حربٌ كانت تخوضها طوال عمرها مع قدرها الخاص، وفي ذلك اليوم / يوم الفراق العظيم، أعلنت غيضة بنت مزعل بن شيخان لنفسها نبأ هزيمتها أمام القدر، وهي تجرجر خطاها المثقلة بقلبٍ مليء بالرضوض، والإصابات البالغة، والإعاقات المستديمة.

وقفت العجوزُ على شفةِ العتبة تتفحص المكان، تتساءل عما سيكون عليه العالم بعد الآن؟ وهل سيكون؟ كيف سيبدو وجهك أيها الكون، أيها الوجودُ الفسيح الأضيق من حذاء قديم، ما الذي يمكن أن يعبئ خواءك الفاحش؟ ثلاثة مواليد؟ هل يمكن ذلك فعلاً؟ خلعت العجوز برقعها وهي تعبر الحوش وألقت به على الأرض، تكشف وجهها للعالم ملطخاً بزرقة الموت، شاهقاً ومؤلماً بنا يتجاوزُ الفجيعة والحُب، كان علي بن فهاد يسكن البؤبؤين العظيمين، ويشعّ منهما بلا رحمة..

- وش فيك يمه؟ أساعدك يمه؟ تبين شي يمه؟ شتامرين عليه يمه؟

عبثاً كنتُ أبذر الأسئلة في الهواء، في تلك اللحظة لم تكن العجوز ترى إلا ما تريد أن ترى / علي، ولم تكن تسمع إلا ما تريد أن تسمع / الصمت، رمت حقيبة يدها، عباءتها، غطاء رأسها، قذفت نعلها بعيداً، خيل إليّ بأنها تريدُ أن تتعري، أن تتخفف من نفسها، أن تخلع عن حضورها المكان والزمن، الحقيقة والوهم، الحياة والموت، وقفت غيضة أمام الدرجات السبع عند مدخل البيت، وقد تمدد صدرها وكبر كتفاها واستقام ظهرها.. وكأنها بمرور كل لحظة كانت تتحوّل إلى ذلك الكائن الخارق، الذي كل ما يحتاجه هو أن يفقد أحبّ شيءٍ

إلى قلبه، لكي يكتشف قوته!

فُتح باب البيت وخرجت البتاني تمشيان بصعوبة، كل منهما تقبض
بيديها على تكور بطنها وتباعد ما بين ساقها، وشرعنا من فورهما في
قذف أنصال الأسئلة: وش صار يمه؟ وش فيك يمه؟ بشرينا يمه؟
رغم مضي الساعتين على معرفة غيضة بمقتل علي، ما زال أهل
بيتها يدودون في العماء.

* * *

كانت غيضة قد أمرتني وعبدالله أن نمتنع عن تلقي أي اتصالٍ
مذعورٍ من أهل الدار، فكرتُ بأن في ذلك حكمة، فليس أمراً مجبداً
أن تعرف ثلاثة نساء حوامل بخبر وفاة علي عن طريق سماعة هاتف!
أكبرتُ في الأم حنكتها وحسن تديرها ونفاذ بصيرتها، لعلها تريد أن
تهوّن عليهنّ المصاب بوجودها فلا يفجعن ويتعرضن أو يعرضن أجتتهن
لخطر الانفعال.. وكنتُ قد أسأتُ فهمها تماماً!

فهمتُ (لاحقاً) أمام صمتها المخيف الذي جابهتُ به دعر
ابتيتها، والنظرات القاسية التي كانت تغرسها في الوجوه بلا توقف،
بأنها لم ترد لهن أن يتلقين خبر موته بدون أن يتملين في وجهها
وهو في أوج ألمه! أرادت غيضة لأسرتها أن تتشرب مرارة الموتِ
من وجهها مباشرة، أن تقرأها صريحة، مكتوبةً بالقهر واللوعة، في
العينين الهائلتين: أرادت غيضة لأسرتها أن ترى على صفحة وجهها
البارد جثة علي!

لم تكن غيضة لتقبل بأن تعود إلى المكان لتجده ضاجاً بالبكاء
وصنوف النياحة، لم تكن تريد أن تعيب أو تشوه ميتة علي بهذا الحزن
"الناقص" الذي يسيلُ مع الدموع، أرادت غيضة لنا أن نفجع بعلي بطريقةٍ
أكثر ابتكاراً: أن نختنق بموته! تجمدت الدماء في العروق، والدموع في
المحاجر، لم يكن ثمة داعٍ لأن يسألن، كان الموت يؤث كل وجهها،

حتى تساءلنا كيف لا تموتُ هي، تهاوت البتانِ تبكيانِ بين قدميها،
تحتضنان بعضهما وتصيحان..

- آه يا علي!

- يا بعدي يا خوي!

- يا بعد قلبي يا علاوي!

- يا حبيبي يا علي!

- يا روحي يا علي!

- يا نظر عيني يا علي!

- آآآ.. آآآ..

انفجر طوفان البكاء، في لحظةٍ واحدة، وبكينا: هيلة، نورة، وأنا،
انحزنا إلى حزننا النمطي وبكينا، ولكن العجوز ظلت منتصبه في وجوهنا
مثل عامودٍ معدني، بوجهٍ معدنيّ، بقلبٍ معدني، تطلعننا إليها راجياتٍ أن
تبكي معنا، ولكنها هشت علينا بيديها، كما لو أنها تهش على نعاج لا
تكف عن الثغاء، ثم تجاوزتنا إلى داخل البيت، في تلك اللحظة، عرفنا
كلنا بأن علي هو ابنها الوحيد، وكان كل ما عداه، وهذا العالم بأسره،
وابتيها القريبتين من قلبها، والأجنة الثلاثة، والكنة الزائغة الوجود،
والريبة السوداء.. بلا معنى.

عبرت الصالون إلى غرفة الجلوس، كانت شهلة هناك، تتربع على
أحد مساند السدو وتسح دمعاً سخياً، بعد ما تناهى إلى سمعها صياحنا
من "الحوش" ..

- خالتي وين علي؟

- علي راخ.

ثم أولتها ظهرها، ومضت إلى غرفتها لكي "تبدأ" حزنها على
عليّ على نحو ما تريد، ولكنها التفتت إلى كتتها، وانفرجت شفتاها

لمرة أخيرة قائلة: غطي وجهك يا أمك!
منذ تلك اللحظة لم يعرف الرجال امرأة علي إلا من "بوشيتّها"،
إذ سافر وجهها - بأمر غيضة - مع زوجها إلى الغيب.

.. لم تجر الأمور كما أرادت غيضة، فبعد أن عجزت عن السيطرة على العالم، والتدخل في السنن الكونية، وتضليل الموت، واستبقاء الحياة، قررت أن الشيء الوحيد الذي بقي لها هو العجز ذاته، الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تفعله هو أن تتعاطى مع هذا العجز / موت علي، بالطريقة التي تضمن بقاءه، ليست الحياة نقيضة للموت، بل مكّمة له! الشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينقض الموت، أو يجرده من جبروته هو الخلود! كيف يمكن أن يخلّد علي إذا ما استسلمت الأسرة لحقيقة موته بحيث تتعاطى معها بموجب الدمع والعيول؟ الدموع هي آلية دفاعية فطرية يستثمرها القلبُ البشري لاستجلاب التعافي، عندما يتألم القلبُ تبكي العين، وعندما تبكي العين يشفى القلبُ، هذه هي القدرة البسيطة المحضنة التي نملكها كلنا، هدية الإله الرحيم لخلقه قليلي الحيلة، لكي يملكو القدرة على مجابهة العالم، كما هي أجسادنا مزودة بالقدرة على الشفاء، مثلما يتجلط الدم فوق الجرح، أو يلتئم القطع في الإصبع، أو ينبت الإظفر الذي انخلع، أو ينبت العظم الذي انكسر، للروح أيضاً - منطلق شبيهه - لاستجلاب عافيتها، لكي تتجاوز فجيعتها الخاصة، ولكل منا فجيعة! ولكن.. إذا انسأقت الأسرة وراء فطرتها، وراء نمطية الحزن وعاديته، فلن يبقى لعلي ذلك الوجود، وسيذكر اسمه بضع مرات في بعض المجالس، وسيلحق اسمه بطلب الرحمة له .. هل ستكتفي غيضة بذلك؟ كانت الطريقة الوحيدة التي تضمن بها غيضة الخلود لعلي بعد موته هو أن تحرّم على أسرته البكاء عليه!

ولكن، ومرة أخرى، لم تجر الأمور كما أرادت العجوز! فبعد أن حرمت علينا الدمع والجزع والصبر وفرضت علينا حصاراً من الصمت، وغاص المكان في غيبوته، وصرنا نحقق في وجوه بعضنا

كالغرقى، نموتُ كمدأً بمتهى اللا فهم، تداعى كل شيء لحظة علمت البلادُ بالخبر، هذي البلاد الصغيرة التي تنتشرُ فيها الأخبار بسرعة الضوء والسرطان والطاعون، في لحظة واحدة! صارت الهواتف ترن، والأجراس تغني، والفضول يغلي، وصارت الوجوه الغريبة تقتحمُ حزننا المقدس، كان ثمة أقارب لم نرهم منذ سنين يقفون عند باب البيت، يواصلون الطرق بكل بجاجة، وكان ثمة أصواتٍ لم نسمعها منذ الأبد تترقع داخل سماعة الهاتف، بعضهم جاء لتقديم العزاء، وبعضهم جاء للشمامة، وأغلبهم جاء بسبب الفضول وحده، كنا نعيش في أوج حكاية، والناس يحبون الحكايا، الناس سثموا من حيواتهم الخالية مما يستحق الذكر فبدأوا يزاخموننا قصتنا الخاصة.

حدث كل شيء بسرعة، نفشى موتهُ وملاً كل شيء، عرفنا لاحقاً بأن صورة علي بن فهاد تملأ الشاشات في نشرات الأخبار مرفقة باسمه وعمره، تخبر بأنه شارك في تبادل لإطلاق النار في أفغانستان التي ذهب إليها مع آخرين - عرضت صورهم وأسماءهم - لأغراض "جهادية" تنظمها منظمة إرهابية سرية "متطرفة".

* * *

كان العالم يوجه إصبعه البذيئة إلى الأسرة المنكوبة فيما هي تكابد ما لا تدري، وكان تكالب البشر والاتصالات والزيارات والأسئلة قد حال بين الأسرة وبين أن تفرغ للتأسي على ميتها كما تريد، وبعد أن تسرطن الخبر في جسد البلاد، وراحت الألسن تجتره وتعلقه وتلوكه، تجرأت البتتان على مزاوله الولولة، البكاء الذي لم يذرف على روح الميت أطلق على الوصمة السوداء التي لحقت باسمه، وعلى العار الذي دنس ذكره، وعلى الخزي الذي سيلاحق أسرته طوال حيواتهم.. في ذلك المساء، كانت هيلة ونورة تنوحان بين قديمي أمهما:

- تكفين يمه خيلنا نهج من البلد لما العالم تنسى!

- يمه والله ما لنا وجيه نقابل فيها كلام الناس..
- حاسة إني مخنوقة يمه..
- حتى ما عطونا فرصة نترحم عليه..
- الرجال مات والناس فرحانة بالخبر!
- والكلب إلي ذاع الخبر ليه ما قال إنا لله وإنا إليه راجعون؟!!

ولكن غيضة العظيمة - المتربعة بمتهى الأنفة على مساند السدو - لم تنسق وراء انفعالات ابنتها التي تطايرت في الفضاء، وبكثير من الهدوء ونفاذ البصيرة قالت كلمتها تلك: "يا أمك الواحد منا هو إلي يختار مجده وعاره، وإذا طلعتنا من هالبلد مالنا وجيه نرجع بها، بيصير فوق وجع الموت وجع غربة، ويبظل اسم أخوك طول عمره موصوم".

هكذا أعلنت غيضة عن حقها في أن تبقي على فخرها بابنها، حياً وميتاً، قاتلاً ومقتولاً، ظالماً ومظلوماً، رغم أنف العالم! أن تمكث في البلاد لتذود عن اسمه شرور الألسن، وتمنع عن عائلتها المنكوبة خزياً من شأنه أن يلاحقها إلى الأبد، قررت العجوز بكثير من الدهاء أن تقلب الخزي إلى نصر، وأن تصنع من تلك الفضيحة مجد الأسرة الأعظم، وأعلنت بأنها ستستقبل المعزين في منزلها لثلاثة أيام، وأمرت بطبع ثلاثة آلاف مصحف باسم الميت، وحفر ثلاثة آبار باسمه، حريصة أن يتم الأمر كله داخل البلاد وفي الضواحي القريبة من منزله، لكي تشيع سمعته في البلاد على نحو ما تريد، وقامت من فورها بإعلان رواية مضادة للرواية الرسمية، أو محورة عنها، تزعم فيها بأن ابنها علي هو مجرد "مغرر به" ذهب إلى قندهار لأجل نقل مساعدات وصدقات للشعب المسلم المنكوب، وتورط في اشتباك لا شأن له فيه، وبأن السلاح الذي وجد في حوزته كان لأجل الدفاع عن النفس في أرض

مائهة بالعدوان، وأنه أخفى الأمر عن الجميع لعلمه بأن أمه لن تسمح بذهابه وراء حلمه الساذج بإنقاذ المنكوبين ونجدة الأبرياء.. أقنعت العجوز نفسها بهذه الرواية، وقالت بأن الأمر لا يمكن أن يتم إلا بهذه الصورة، فهي لن تصدق إلا قلبها، قلب الأم لا يكذب، والروايات الرسمية كلها كذابة، وسرعان ما تسربت قناعتها إلى جميع من في المنزل، وجميع معارف العائلة وأقربائها وجيرانها، والغرباء الذين أثارهم الخبر.. حتى أن بعضهم قد كتب في الصحف مقالات تراثي مناقب "الشهيد" وتذكر بسموه وأخلاقه ورفعة مقامه في العليين، وفي أيام الغزاء لم تتمالك النساء أنفسهن من التأثر، فنثرن في الجوز غاريد رنانة، ويشرن العجوز وأرملة علي بأنه سيشفع لهما عند ربه، وأن روحه تسكن طيور الجنة، تحط على أغصانها وتشرب من مائها .. مندها، أصبح علي هو الإرث البطولي الذي تفاخر به العائلة، وأصبح فهاد ابن علي هو سليل هذا الإرث، والورث الشرعي الوحيد له.

أتمت شهلة شهرها الخامس من الحمل عند وفاة علي، وهذا يعني أن عدتها تنقص عن العدة المفترضة للأرملة بعشرة أيام، ولكن غيضة أصرت على هذه الأيام العشرة وكأنها حق من حقوقها، وزادت عليها ثلاثين يوماً أخرى لتتم مدة النفاس كلها في الحداد.

كان المفترض أن تقضي شهلة عدتها في "البيت الكبير" بحسب

ما تقتضي الآية القرآنية ﴿...لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ يَفْحِشَةً مُبَيَّنَةً...﴾، ولكن أسرة الأرملة انتزعتها من أحشاء المكان في الليلة الرابعة من وفاته، وأعادوها إلى بيت أبيها مع ما أمكنهم حمله من أغراضها، سراً، بلا جلبه وبدون إثارة أي انتباه، وأمام غضبة غيضة الهائلة التي اكتشفت في صباح اليوم التالي خروج كتتها من منزلها بدون إذنها، واتصالاتها الملححة على أسرة شهلة لكي تعود الأرملة إلى بيت زوجها بموجب الأعراف والشرائع، اعتذرت الأسرة بلباقة وبررت تصرفها بأن الابنة حامل، وتحتاج إلى رعاية دائمة، وبأنها لا تريد أن تثقل على عائلة علي بالعناية بامرأته، على اعتبار أنهم مشغولون بحزنهم بما يكفي. عرفت غيضة مندها بأن عليها أن تتصرف على جناح السرعة لكي تعيد الأمور إلى نصابها، لكي تعيد شهلة إلى عش زوجها الميت.

ورغم وجود شهلة في بيت ذورها طوال شهور العدة، إلا أنها لم تسلم من سيطرة غيضة على حياتها، وبمنتهى اللباقة والتسلط، منعت غيضة كتتها من الخروج من المنزل أو الرد على الهاتف أو التحدث مع غريب، وغابت الأرملة في موت زوجها حتى تحولت إلى شبح منتفخ الوجه موشك على البكاء أبداً.. ولكنها مع ذلك لم تبك، إذ أثقلت عليها

العجوز بالأيمان كي لا تبكي، حذرتها من أن البكاء سيتسرب إلى روح الجنين ويصيبها بالعطب، وإلى وجه الجنين ويصيبه بالشوّهات، وإلى روح المرحوم ويلحق بها العذاب، وأنها لن تسمح بأن يحدث شيء لابن علي، ولا لعلي، حتى بعد موته! تصرفت غيضة كوصي على حقوق الجنين، وكرست نفسها لضمان سلامته وحراسة عافيته، كأن تتأكد من أن الأرملة الحبلى لم تنس جرعتها اليومية من الفيتامينات والكالسيوم (تقصد الكالسيوم!)، كانت تقف على رأسها عند كل وجبة لتتأكد من أنها تبسمل، وتأكل صحنّي الأرز بالمرق، مع سبع تمرات، وثلاث حبّات فراولة (سمعت غيضة بأنها تجمل وجوه الأجنة)، وكوب عصير برتقال مع طبق السلطة الخضراء، وكأس لبن بعد ساعتين من الغداء، و.. كانت لدى العجوز دائماً تلك القدرة على إقناع المرأة بضرورة أكل المزيد! وعندما كانت الأرملة تتمنع بحجة أن شهيتها ضعيفة كانت العجوز تسترسل في بكاء حارق - على خلاف طبيعتها - وتشرع في ابتزاز عاطفي تستهدف به قلب الأرملة "إذا تبيني أرضى عليك كملي أكلك" .. ونتيجة لهذه العناية المتعسفة، ترهلت المرأة كثيراً، تضعف وزنها ثلاثة أضعاف، تمدد جلدها وانتشرت آثار التشقق بطول زنديها وفخذيها وبطنها، لم تكثرث غيضة للأمر، وربما خططت له! أن تصبح المرأة بحجم دولا ب ملابس أمر يجعل رغبة الرجال بها أقل! وكان كل ما يهمها في ذلك الحين هو أن تتم شهلة فترة العدة في الأكل والغياب، وأن تأتي بالجنين بريئاً من العلل والعاهات، مفعماً بالعافية.

قررت غيضة أن تكرر نفسها من أجل الولد ابن الولد الذي لما يولد بعد، وكل ما يمت إليه بصلة، بمعنى آخر، أرادت أن تشرف على حياته، أو لنقل بأنها عادت إلى عاداتها القديمة بالسيطرة على العالم وقررت أن تسيطر على حياته، أن تقر كل شؤونه، وهذا يعني - أيضاً - أن تدير شؤون أمه، بالحُبّ والرعاية طبعاً! ولم يكن ثمة

طريقة لذلك ما لم تعد الأرملة إلى عش زوجها الميت، لاسيما مع كل هذه المخاوف التي انتابت العجوز من أن تتزوج شهلة من رجلٍ آخر، يصير - من دون وجه حق - أباً لحفيدها.

انطلقت غيضة من فورها في محاولاتٍ مستبسة لإقناع شهلة بالعودة للعيش معها بمجرد انقضاء عدتها، بحجة أن هذا أفضل ما يمكن فعله لليتيم، لكي يترعع في ذكرى والده الذي حُرّم منه قبل مولده، واستقبلت شهلة الفكرة - بدايةً - بكثيرٍ من التحفظ.

- بس يا خالة..

- يا أمك لا تقولين لي بس، أبي أشوف ولد علي يكبر بين ايديني..

- والناس يا خالة؟ الناس شتقول؟

- يا أمك الناس من متى تعرف تتكلم؟ الناس كلمة توديها وكلمة تجيبها، وأنا ما راح أقبل إن أحد يمسك بكلمة..

- بس يا خالتي..

- تكفين يا أمك طيبي خاطري ولا تكسرين بقلب العجوز!

كانت هذه هي الكلمة السرية التي تستخدمها غيضة إذا ما أرادت استمالة أحد، أو "استخدام" أحد، أو "استغلال" أحد: لا تكسر بقلب العجوز! غيضة الداهية تعرف بما للكلمة من وقع في مجتمع بدوي يتعاطف مع العجائز لمجرد أنهن عجائز، ويعتبرهنّ باباً مشرعاً على القبول الإلهي والأجر الأخروي، ومناهل حية للحكمة البشرية، رضاهنّ على أحد دائماً ما يكون إشارة على حسن خلقه وطيب "أصله" .. لا يؤذي العجائز إلا لثيم فاسد النفس، ولا يبكي عجوزاً إلا فاسق!

- شوفي يا أمك، ربك سبحانه يدري إن معزتك في قلبي مثل بنتي وأكشر، والله إنني ما أفرق بينك وبين هيلة ونورة.. بس يا أمك،

إنتي قولتي لي.. وش هو أحسن للولد، يكبر مرفوع الراس يقول أنا ولد الشهيد، ولا يكبر خافض الراس يقول أنا ولد الإرهابي؟

طأطأت الأرملة منكسره، واغرورقت عيناها بالدموع.. أخذ قلبها ينسحق وصدرها يضيق حتى عجزت عن التنفس، كانت غيضة أكثر من بارعة في نكث الجرح، فهي تعرف بأن أسرة سهلة لم تصدق روايتها عن الوفاة، وأن كثيراً من اللوم المبطن يشوب علاقتهم بالابنة التي لم تعرف بحياة زوجها السرية ولم تحدد بها إما لشدة بلاحتها أو لشدة تواطئها، كانوا يشعرون بمرارة من تم استغفاله، ونظروا إلى علي على أنه قاتل، ومتطرف، وإرهابي، وأسوأ ما نعتوه به أنه أناني! لأن رغبته بالموت تجاوزت رغبته بالحفاظ على حياته لأجل امرأته وابنه الذي لما يولد بعد، كانت أسرة سهلة تشعر بكثير من العتب على الابنة التي ترملت في أوج شبابها وهي لما تتم الواحد والعشرين وكان كل ما تفكر به الأسرة هو أن يتم تصحيح هذا الخطأ، وأن تزوج من أحد أبناء عمومته بمجرد انقضاء عدتها، والأهم، أن لا يشب الوليد على أبيه! لم تكن غيضة لتسمح بذلك، كان أشد ما تخشاه أن يشب ابن علي في كنف بيته غير التي تخطط لتدشينها من أجله، بيته تليق بمقامه وأصله وكل المجد الذي ينتظر وصوله، وقامت بحشد كل الحجج والأسباب لتقنع سهلة بالقبول:

- ولد علي أنا أنكفل به، في بيتي يحصل أحسن تعليم، وما راح يقصر عنه أي شيء، وبدل الأب إلي راح - الله يرحمه ويغمد روحه الجنة - بتصير له كلنا أب، أنا وبناتي ورجايلهن تحت رجوله وطوع أمره، بس إنتي وافقي يا أمك ولا تكسرين بقلب العجوز!

دخلت أم أحمد / والدة سهلة إلى الغرفة، وكان واضحاً أنها أمضت الدقائق الأخيرة واقفة خلف باب ابنتها تنصت على ما يدور بين الأرملة والعجوز، كانت قد سئمت تدخل غيضة في شئون ابنتها

وزياراتها الطويلة التي لا تنقطع ووقوفها المستمر على رأس الأرملة لكي تأكل وتترهل وتفسد شبابها وفرصها بالزواج..

- حرام عليك يا أم علي، حرام عليك! تبين تقطعين نصيب البنت؟ مو كافي إنه تركها وهي مثل الوردة عشان يروح يقتل في خلق الله؟ تبين الناس تتكلم على بنتي؟ فيه بالدنيا أرملة تعيش مع أهل زوجها كأنها مقطوعة من شجرة؟ تبين تقطعين بيني وبين بنتي وحفيدي يا أم علي..

- أستغفر الله العظيم! أستغفر الله العظيم!

بمتهى الذكاء رددت استغفارها، مصرة على أن لا تردّ على الإهانات الجارحة التي أكيّلت على رأسها، وهو على خلاف طبيعتها!

- اتقي الله يا أم أحمد الولد توفاه ربه والميت ما تجوز عليه إلا الرحمة!

- الله يرحمه ويرحم جميع موتاه بس لا تقبرين بنتي في قبر ولدك!

- أستغفر الله العظيم! أستغفر الله العظيم! حتى الشهداء ما يسلمون من كلامك يا أم أحمد؟!

- أي شهداء يا أم علي؟ أنتم تكذبون الكذبة وتصدقونها؟

.. كانت شهلة تتأمل المعركة الضروس بين العجوزين وتمزق، فيم تنهض غيضة من مكانها بتاقل، وجهها يغلي وعيناها تغوران وجلدها يتغضن، يا رقية! تعالي يمك خذي لبيتي! وبصمت تنسحب من المشهد، حذرة من أن تقترف ما من شأنه أن يحيد شهلة عن صفها، ثم تلتف إلى كنتها لمرّة أخيرة قبل أن تغادر:

- هي كلمة ورد غطاها يا شهلة يا أمك.. إن شب ولد علي في

- أنا ما أفكر أتزوج من بعد علي، أبي أعيش عشان ولده.
 - لا حول ولا قوة إلا بالله! بغيناها نسب طلعت علينا نسب!
 إنتي انخبتني أكيد.. سحرتك أم السحورة!
 وعندما التقت عيناها بعيني غيضة، التي بزغت في طرف المشهد،
 رفعت سبابتيها في الهواء وعلقت نظرها في السقف وقالت بوجه متورّم
 وأعين محمّرة "حسبي الله عليك يا أم علي! حسبي الله ونعم الوكيل!"..
 وانطلقت تلعن وتشم وتبكي جنون ابنتها، أو موتها، أو غباؤها، أو
 الثلاثة مجتمعين.

* * *

سارت غيضة بهدوء صوب شهلة وأمسكتها من ذراعيها برفق
 لتحملها على الجلوس ولم تعلق إلا بكلمة واحدة: الانفعال موب زين
 لك يا قلبي، ارتاحي يا أمك عشان إلي ف.. بطنك؟ أخذتي دواك؟
 نشجت شهلة:

- يا خالة أنا بجي البيت عندكم!!
 - تشيلك عيوني يا يمه بس إنتي هدي نفسك..
 - مخنوقة من بيتي يمه!
 - اسم الله على قلبك! إن شا الله عدوينك وإلي يبغضونك!
 باسم الله عليك الرحمن الرحيم..

وأمضينا ذلك اليوم في تهدئة الأرملة ومواساتها ورعايتها، أدلك
 أنا ذراعيها وفخذيها وتقرأ عليها العجوز الآيات القرآنية وتمسح على
 رأسها ووجهها، ولم تفه بكلمة أخرى تخص موضوع عودتها، كان
 صمت غيضة - في ذلك اليوم - هو صمت المنتصر.

* * *

بعد مضيّ عشرة أيام على الحادثة، وقبل ولادة فهاد بن علي

بيومين، أسدلت شهلة بوشيتها على وجهها، ولفت جسدها بعباءتها السوداء، وارتدت قفازاتها السوداء، وجواربها السوداء، وحذاءها الأسود، وجرجرت خلفها حقائبها السوداء، معلنة انسلاخها عن ذويها، وانضمامها فرداً رسمياً في عائلة زوجها المتوفى.

بصميت انطلقت بنا المرسيدس السوداء، عائدةً بنا إلى العالم الذي تحكمه غيضة بنت مزعل بن شيخان، وتركنا الشارع من ورائنا يلهث من وطأة الظهيرة، والأب الذي رمى عقاله على الأرض، والأم التي تولول وتنادي ابنتها، والأخ الذي - وصل متأخراً إلى المشهد - حاملاً معه بندقية صيد، ومثأً الأعين التي تتفرج من مثات النوافذ..

.. ما زال لدى العجوز أمور كثيرة ينبغي التكفل بها، لأجل أن تسيطر على العالم، وماضية في خططها، قامت العجوز بسحب جميع مدخراتها من البنك، وباعت محل الذهب الذي تركه المتوفى لأول راغب بالشراء، وأصبح عندها ما يكفي من المال لأجل تحويل حديقة المنزل الكبيرة إلى مبنى ذو طابقين، في كل طابق شقة تضم أربع غرف نوم، ثلاثة حمامات، صالة وغرفة غسيل وبلكونه تطل على بيتها، كما قامت بملء الفراغ المتبقي في الحديقة بالمراجيح، ودشنت في الزاوية حظيرة حيوانات، فيها معزات وزوجين من البط والدجاج وديزينة من طيور الزينة، وقررت أن هاتين الشقتين هما لابنتها هيلة ونورة، لأنها ما عادت تحتل أن يبتعد أي من أفراد أسرتهما عنها، من بعد رحيل علي.

كان التغيير قد طال كل شيء من المنزل، الحوش، البوابة الخارجية، الحظيرة، كل شيء باستثناء الغرفة الخلفية في الحوش، والتي تكرمت ومنحتها لربيبتها اللقطة، لم يكن ثمة ما يستدعي التغيير، حتى قشور السقف، ووحدة التكييف التي تئن طوال الوقت، وفضلات الأثاث الذي تكسر منذ سنوات، لم يكن ثمة داعي لهدر مالها على قضية مضمونة، قضيتي أنا، إخلاصي وحببي.. كنتُ خارجَ الحسبة! وقد كان العرض بالانتقال لجيرة الأم الرؤوم مغرياً لابنتين وزوجيهما، ليس فقط لأنه يخلصهم من ثقل الأجور الباهظة، ولا لأن مواصفات الشقتين الجديدتين لا تقارن بالشقق الصغيرة التي سكنوها من قبل وفق مواردهم المتواضعة، بل لأن مجاورة الأم الكبرى يعني التنعم بالأطباق التي تبرعُ في إعدادها، "يفكر الرجل من بطنه" .. كثيراً ما رددت غيضة ذلك ونجحت في إثباته.

في اليوم الذي عادت فيه شهلة إلى بيتها الجديد / القديم، قبل

ولادة فهاد بن علي بيومين اثنين، وجدت نفسها واقفة أمام بوابة جديدة لمنزل جديد، وراحت تنظر حولها بحيرة تحاول التعرف على المكان، كان كل شيء قد تغير، استقبلناها كلنا بوجوه مستبشرة: هلا بك يا قلبي هلا بك! حياك الله حياك الله! بسم الله الرحمن الرحيم! ولأول مرة منذ وفاة علي، رأينا شهلة تبسم دامعة، وهي تتفحص البيت القديم وقد سلخ عنه جلده المتقشر، وسائره الباهتة، ومساند السدو المترهلة و.. كان أروع ما في الأمر، أن غيضة قد حولت الطابق العلوي من بيتها إلى شقة فارغة للأرملة ووليدها المنتظر، خصصت غيضة لفهاد غرفتين، واحدة للنوم، وثانية للعب، مجتهدة لكي تثبت للأرملة أنه لن يجد مكاناً يحتويه أفضل من هذا، كانت ألوان الغرف تتناوب ما بين الأزرق والبرتقالي، كما قامت بتوسعة غرفة شهلة وغيّرت أثاثها بالكامل، واستبدلت بالسرير القديم سريراً آخر لنفر واحد تحاصره ستائر شيفون فستقية اللون، لأن غيضة تظنّ بأنه لوّن أهدأ من أن يثير في المرأة أي حنين إلى مقاربة رجل، وخصصت لها غرفة للملابس والزينة ملأتها بالملابس الجديدة وزوجين جديدين من الأقراط وخاتما من الذهب، كما زودت الشقة بصالة كبيرة تصلح لشقاوة الصغار، ومطبخ وجبات سريعة.

في الطابق السفلي، قامت العجوز بدمج الصاليتين في صالة واحدة كبيرة ثلاث ساعات التجمّع العائلي (التي تخطط غيضة لجعلها كثيرة)، كانت غيضة تؤمن بأنه من الضروريّ تغيير كل شيء وقعت عليه عين الأرملة من قبل حتى لا يضح فيها الحنين إلى أيام الزوجية، فأخلت المنزل من كل شيء لمست يد "الشهيد"، وأخبرت الجميع بأن مسئولاً في لجنة خيرية جاء لأخذ ملابسه للمنكوبين في قندهار، الذين استشهد في سبيل إنقاذهم، استطاعت العجوز - خلال أربعة أشهر - أن تدشن جنتها الموعودة، وأن تفجر من تحتها أنهار الخمر والعسل، وكانت تغدو

في كل يوم أكثر شباباً، حتى لم تعد تشكو من آلام ركبتيها، أو تيبس رقبته، أو وهن مفاصلها، فتخلت عن العصاة التي تتوكأ عليها، وعن نظاراتها الطبية، وعن أدوية الضغط والسكر، وأعلنت - صراحة - بأنها منيعة ضد الزمن!

نورة

1

عندما أمشي أبدو كمن يرتطم بجدرانٍ غير مرئية، لا نهائية، تنتشر في جميع الجهات. لا أحد يفهم من أين أتى هذا الاعوجاج الفجائي في خطواتي، تقول أمي بأن للأمر علاقة بالأم ما بعد الوضع، ويقول الدكتور بأنني سليمة تماماً، أصدقك القول - يا علي - بأنني أمشي كالعرجاء رغم أن لي ساقان صلبتان تماماً، ولكن هذه الجدران الهوائية التي أرتطمُ بها مع كل خطوة.. لا أدري من أين تجيء، وهذه الرجفة القديمة، هل هي قديمة حقاً؟ تقول أمي بأنني ممسوسة، ويقول الدكتور بأنه نقص في فيتامين ب، ويقول زوجي بأنني كنتُ هكذا طوال عمري ولكنني أتتبهُ للأمر الآن فقط، هذه أشياء أخبرك بها لأجل أن تكون على علم، أشياء تغيّرت منذ مضيتك، منذ تراكمتنا في هذا الدفء العائلي الخائق للأنفاس، في التكديس المستديم في أحضان بعضنا البعض، إذا كنت شهيداً فعلاً، فهل تشفع لي عند ربك؟ أصدقك القول بأن صلاتي تبهتُ وأنني أتفتت كل يوم عندما أوزع روحي على مشارط العدالة، مع كل ركعة أتذكر بأن عليّ أن أقرص حدود فهاد، وأن أمشط شعر فطومة، وتجرتني ابتسي من ثوب الصلاة "ماما العبي معي" ولا ألعب، لأنني أخافُ أن ألعب، أخافُ أن عليّ أن ألعب مرتين أخريين، وأنا - يا أخي يا حبيبي واستغفر لي عند ربك - طاقتي للحبّ محدودة، وكلما تذكرت ديوني التي لم أسدها لأطفالي الذين لم أنجبهم (آه يا علي) أرى جهنم السوداء تكشر من تحت قدمي وأخرّ على وجهي و.. إنني أموت في داخلي وأتأكل، وديوني تربو، تربو، تربو..

كنتِ في شهرك الثالثِ وكنتِ تشبهين دمية، ألبستك فستانك الأبيض المكشكش الصغير، أساور الذهب في يديك، والخلاخيل في قدميك، والبقمة الصغيرة تتدلى فوق صدرك، وأنتِ - يا بهجة الدنيا - تطلقين في الهواء أصواتك الطفلة، تمدين يديك في الوجود بمنتهى حسن النية! كنتُ أحس بأن ليس ثمة إلا أنتِ، وليس ثمة إلا أمومي لكِ، وكنتِ كلما أصدرتِ صوتاً، أو ما شابه، أهرعُ إليكِ لأتملى فيكِ، لأحملكِ، لأشمكِ وأقبلُ خدودكِ.. ثم..

رمقتني جدتك بتلك النظرات التي لا يستطيع أحد إنكارها أو تجاهلها أو حتى مواجهتها، تجمدت الدماء في وجنتي وجف ريقِي، تجاسرت لأسأل: خير يا أمي وش فيكِ؟ وبدون أن تخفف من حدة نظراتها، أمرتني جدتك بأن أداعب كل من فهادي وفضومة مثل ما داعبتك، وأكدت على كلمة (مثل) كثيراً، اعتدلتُ واقفة، أعدتكَ إلى الكاروكة وتوجهتُ إلى فهاد وقلبي يموج بالأريحية المفتعلة، حملته وقبلته على جبينه، وأنا أغرق في غرائبية الموقف التي لا تحتمل، تساءلت عن معنى ما يحدث، فلم يسبق لي أن أضمرت لابن خالك وابنة خالتك إلا أصدق مشاعر الحب، وفي ذلك اليوم، وأمام الأعينِ كلها كنتُ عرضة للشك والاشتباه، وكنتُ أعاقب على محبتي لك بشكل مهين، أعدتُ فهادي إلى حضن شهلة واتجهت إلى فضومة وقبلتها أيضاً، ثم أعدتها إلى كرسيها وتقدمت خطواتٍ صوب جدتك وطبعت على رأسها قبلة إضافية: طاب خاطرك يمه؟

لم تعجب جدتك بالطريقة التي تجاوبتُ بها مع أوامرها، لملمت خيبتها الصريحة وجرجرت خطاها صوب غرفتها وأوصدت الباب من دوننا. عندما توصلت جدتك باب غرفتها فهذا يعني بأن أمراً جلاً يشغلها،

لأنها منذ وفاة علي باتت تشرع باب عزلتها على الآخرين تحسباً لأي شيء، كأس انكسرت، طفلٌ يبكي من آلام البطن، فرد من عائلتها يرغب بالسفر أو أي شيء يتحرك خارج سيطرتها، ولكنها أوصدت الباب في ذلك اليوم وأربكت الجميع، وبعد مناوشات هامسة أشار الجميع عليّ بأن أذهب لأطيب خاطرها وأعتذر منها عن.. عن ما لا أدري! وجدت نفسي أطرق الباب وأسأل: يمه تامرين على شي؟ يمه أدخل؟ يمه أنا ضايقتك؟ يمه سامحيني.. سامحيني ما أقصد، ولم أكن متأكدة مما أقصده أو لا أقصده، رحّت ألهج بالاعتذارات أمام بابها لبضعة دقائق حتى فتحت لي وكان علي وجهها ابتسامة خفية رضية: روعي يا أمك نادي خواتك!

تسارعنا للجلوس بين قدمي جدتك، خالتك هيلة تدعك باطن رجلها، شهلة تدلك ركبته، وأنا أناولها كأس الشاي، ورقية ترتب لها سريرها، في تلك اللحظة انفرجت شفتي جدتك بكلمات مرتعشة ومهية: ولد أخوكن له عليكن حق!

دمعت عيوننا، فبقدر ما هو حضوره قارسٌ وحتمي، يلطخ الجدران ويملاً البراويز ويقطر من العين، كان قد مضى زمنٌ طويل على آخر مرة ذكرناه فيها صراحة، وكانت تلك المرة الأولى التي تسمح لنا فيها جدتك بأن نتداول ذكره معها. في تلك الأثناء، انطلقت جدتك تخطب فينا خطبتها التي يحفظها الجميع عن ظهر القلب: سمعوني يا أمكم، أنا ما أجبركن على شيء! بس إلي تبي أمها ترضى عليها، إلي تبي تجبر بقلب العجوز المسكينة.. تنسى الفرق بين عيالها وعيال أختها! أنا في هالييت ما عندي هذا ولدي وهذي بنتي، إلي يجري على بنتك يجري على عيال خواتك، قد ما تحبين بنتك تحبين عيال أختك، قد ما تعطين بنتك تعطين عيال أختك، شهلة ما هي أرملة علي، شهلة بنتي قد هيلة وقد نورة، وفهاد ولد علي في ذمتنا وفي رقبتنا، الله أخذ

أبوه بس عطاءه بداله أمين اثنين..

كانت لحظات حابسة للأنفاس، مؤثرة، عميقة، موغلة في الألم،
وشعرنا لوهلة بأن أمانا قد منحتنا الإذن بالبكاء، وكان في صدر كل
واحدة منا الكثير مما ينبغي إفراغه، ورحنا نكيل لها الوعود المطيبة
للمخاطر، واختلطت أصواتنا: لا تحاتين يمه، والله إنه كلهم عيالي
يمه، والله إني أحب الثلاثة حالهم من حال بعض، والله إني ما أفرق
بين فطومة وفهادي ومضاوي، والله..

وصار صوت جدتك يزداد غلظة وثقلاً: ما راح أتغاضى عن حق
من حقوق هاليتيم لو هو قد راس الإبرة، لو بستي بنتك، لو مسحتي
على راسها وإنتي ماشية، لو شريتي لها هدية، لو لاعتبتها.. أي شيء
تسوينه لبنتك يجري على ولد علي، هذا يا أمكم حق اليتيم، وحق أبوه
اللي راح وخلاه برقابكن أمانة، لا تقولين هذي بوسة ما تأثر! لا تقولين
ما تسوي! لا تقولين ما تفرق! لا تفكرين إنها ما تحز بخاطر المحروم
وإنه ما يحس ولا يفهم، إنتي أمه قد ما إنتي أم لبنتك، والأم يا أمك
تعطي بالمسطرة، وتوزن حبها بالميزان وتساوي بين عيالها بالعدل.. من
هاللحظة يا أمكم، خلينا نقرر إن هاليتيم المحروم ما راح يعيش عيشة
اليتيم المحروم، فهاد ولد علي ما هو ولدك إنتي بس يا شهلة، فهاد
ولد هيلة ونورة ورقية وولدي أنا قبل كل شيء، كلنا له أم!

تهاوت شهلة على رأس جدتك بالقبلات والعبرات: يا بعد قلبي
يا خالتي، يا جعلني ما أنحرم منك يا خالتي، عسى الله يخليك لي
ولولدك و..

مسكينة شهلة، لم تظن لحظتها بأن كل ما فعلته جدتك لها في
تلك اللحظة هو أنها جردتها من امتياز أن تكون أم الولد! ورغم أن
الأمر بدا في بداية الموقف مثل فكرة أفلاطونية متناهية المثالية عن
مدينة الأمومة الفاضلة، إلا أن جدتك قد أفرطت في أفلاطونيتها أكثر

من أفلاطون نفسه، حين أعلنت رفضها لأن تستقبل في بيتها المشاعر الطبيعية للأم بتفضيل أطفالها على أطفال غيرها، كان كل ما تريده جدتك هو أن تجرد أرملة ابنها من امتياز الأمومة، وأن تضيف لعالم فهاد أمين آخرين، وإذا كان الشرع قد زاد فضل الأم على الأب بثلاث مرات، فهذا يعني أن كل واحدة منا تساوي ثلاثة من الآباء، ويعني بأن اليتيم الذي حرم من حنان الأب قد حظي بالمقابل بأمين آخرين، تساوي كل واحدة منهما ثلاثة آباء، فأى شيء أفضل من ذلك؟ أن يحوز الصبي على ثلاثة أمهات، في كل أم ثلاثة آباء، عوضاً عن الأم الكبرى والأم الغريبة، والله يضاعف لمن يشاء! لقد حلت جدتك مسألة يتم الصغير ببساطة الرياضيات!

ما بدا في أول الأمر مثل طقسٍ جديدٍ للحُب، واحتفاليةٍ أزليةٍ بالأمومة، وتمجيدٍ متواصلٍ لابن علي، سرعان ما تحوّل إلى ناموسٍ قسريٍ يهيمن على الأسرة بأسرها.

شعرنا جميعاً في البداية بأن الأمر محض مزحة، أو شطحة آنيةٍ تعتري أمننا الكبرى سرعان ما ستنقشع، ولكن ذلك لم يكن، ففي اليوم التالي، عندما وجدت جدتك كنتها تطعم ابنها الخضار المهروسة جذبتها من ذراعها برفقٍ لتبعدها عنه وطلبت مني أن أتولى إطعامه، وأن تتولى شهلة إرضاعك بزجاجة الحليب وهكذا.. حتى أصبح الأمر بمثابة الخطيئة أن تحتضن الأم صغيرها أو صغيرتها، أو تفعل ما من شأنه أن يشعر جدتك بأن ثمة مشاعر خاصة تتاب الأم تجاه طفلها، ولأجل أن تكون أُمِّي أكثر وضوحاً في سياستها الجديدة في توزيع الحب، أجبرتنا - هيلة وشهلة وأنا - على أن نقسم بأن نوزع حبنا بالتساوي، على فهاد، فطوممة ومضاوي، وأن تكون كل واحدة أما لجميع الأطفال، حتى الذين لم تنجبهم، وبالقدرِ نفسه!

كانت هيلة وشهلة بالغتا التأثير وفاضت عيونهما بالدمع وهن يقسمن لجدتك، وحدي كنتُ أشعر بالرعب وقلبي يخفق بجنون وصوتُ أثمِّ في أعماقي يخبرني بأنني أقسمت على اجتراح المستحيل دون رغبةٍ مني، وبأنني لأجل ذلك سأكب على وجهي في نار جهنم!

هكذا صار للأطفال الثلاثة ثلاثة أمهات بالوقتِ نفسه وبالقدرِ نفسه، وبهذا كان خرقاً للقسم مثلاً، أن أشتري لكِ فستاناً، ولا أشتري مثله لفظوم، وبدلة جديدة لفهاد الذي ولد من أجل أن تحتويه الأيدي وتناقله القلوب بلا رحمة، وتطوّر الأمر إلى ما يشبه الهوس، فعندما تداعبُ أمّ طفلها أو طفلٍ أخرى، تشعر فوراً بأن عليها أن تفعل الشيء

نفسه للطفلين الآخرين، وتعجز عن الجلوس مرتاحة حتى "نقضي دينها" تجاههما، كانت أجسادنا تأخذ في الارتجاف كما لو أننا اقترنا إثمًا، ولتحاشي الحرج، كانت هيلة تدوّن في يديها علامات بالحبر الجاف لكي تذكرها بضرورة "قرص حدود" فهاد، أو تعديل شعر موضي، لأن أيّ اعتلال يصيبُ المعادلة ثلاثية الأطراف يعني الإخلال بالقسم، بل ويعني ديناً يثقل كاهل الأمهات، كثيراً ما رددت علينا أننا بأن الله يحاسب عباده على ديونهم، حتى الشهداء منهم، وبأنها لن تتهاون مع ما سمّته "التفرقة في الحب" بين الأبناء داخل منزلها، وكان الشيء الوحيد الذي منعه علينا هو الرضاعة الطبيعية، لكي لا يتحول اللبن إلى دم، وأبناء الخالة إلى أشقاء، فيضطر فهاد إلى الزواج من فتاة من "خارج العائلة"، لأن نسل الابن الوحيد ينبغي أن يبقى نقياً بقدر المستطاع! وبموجب هذا القرار، كان فهاد بن علي خطيباً لك أحياناً، وخطيباً لفظومة أحياناً أخرى، وكان خطيباً لكليهما في الغالب..

اتبعت أمي سياسة صارمة من أجل أن تضمن تحقيق المساواة في "توزيع الحب" على الأطفال الثلاثة، فبعد أن تجاوزتم الأربعة شهور وبدأنا في إطعامكم الخضار والفواكه المهروسة مع النشاء، كانت أمي تقوم بتوزيعكم علينا بطريقة تضمن أن تتكفل كل واحدة بابن / ابنة الأخرى، كانت سهلة تقوم بإطعامك، فيم أقوم أنا بإطعام فطوم، وتطعم هيلة فهاد.. وهكذا بالتناوب في كل وجبة وبنظام متناهي الدقة، كما قامت بفرض أيام معينة تتولى فيها إحدى الأمهات مسؤولية أخذ الصغار إلى الحديقة مثلاً، أو إلى السوق، وعندما مرضت فطوم، طلبت أمي أن أخذها أنا إلى الطبيب، وأن تعتنني هيلة بك أثناء ذهابي، وعندما اشتريت لك مرة حلقتي أذن من الذهب، وبختني أمي بقسوة وأخذت مني الحلقتين لأنني لم أشتري لفاطمة حلقتين آخرين، ولم أشتري لفهاد شيئاً بنفس قيمة الحلقتين لأكون عادلة، كنت أجادل بأنه حتى بين

الأخوة الأشقاء، لا يوجد نظام يمثل هذه الصرامة ولا توجد مساواة
بمثل هذه القسوة، وبأنني لا أستطيع أن أضعف أي مبلغ أدفعه لأجل
ابنتي ثلاث مرات لأن ذلك يتجاوز مقدرتي المادية، فردت علي ببساطة
بأن علي إذاً أن لا أشتري شيئاً أصلاً.

سرعان ما تبين لي بأن المبلغ الذي كنت أنوي ادخاره من السكن
المجانّي مع أمي سرعان ما ستمتصه متطلبات الحياة الجديدة من إنفاق
تضاعف ثلاث مرّات بسبب القسم الأمومي، رغبتُ بشراء ملابس ثمينة
من أجلكِ، ولكنّ ميزانيتي لم تكن تتحمّل ذلك، فاكثفت - كما هيلة
وشهلة - بشراء الملابس الرخيصة، لم يكن بوسعي أن أحمل أختي
وأرملة أخي على شراء ما أريد، وفي الأعياد، كنا نجتمع ونقرر سلفاً
المبلغ الذي سنصرفه على ملابسكم، وكنتُ غالباً ما أواجه بتهمة التبذير،
وأن من غير المعقول صرف ثلاثين ديناراً على فستان لطفلة لم تتم العام
من عمرها، وحتى إذا اتفقنا على المبلغ، كان ذهابنا إلى السوق دائماً
ما يضع سدى وسط شجاراتنا التي تنتهي، وأذواقنا التي لا تلتقي، لم
يكن ممكناً لنا أن نفرح بأطفالنا كما نريد.

تطوّر الأمر إلى أزمة حقيقية عندما بلغتم سنّ دخول الروضة،
لأنني أردت لك أن ترتادي روضة خاصة ثنائية اللغة، وكان أبوك مستعداً
لدفع مئات الدنانير من أجل ذلك، ولكنّ هيلة احتجت بشدة لأنها لا
تستطيع دفع المبلغ ذاته من أجل ابنتها، والأمر ذاته بالنسبة لسهلة،
وقلن بأن علي أن أفكر بأطفالي الآخرين كما أفكر بابنتي (وأن لا
أكون أنانيّة)..

غضبت جدتك مني كثيراً واعتبرت أنني حثت بقسمي، وبكيت
عند قدميها دموعاً مرّة وأنا أردّد بأن المساواة بهذا الشكل ظالمة
ومجحفة، وبأن من حقي أن أطمح بالأفضل لابنتي التي أنجبتها، وكان
ردها ببساطة بأن من الحماقّة أن تهدر مئات الدنانير على تعليم بنت

علوما لن تنفعها في إدارة مطبخها في المستقبل.
لم تتحدث إلي أُمي طوال أسبوع، حتى عدلتُ عن رأيي، وانهلث
على رأسها بالقبلات لتسامحني على "ضعفي وقلة إيماني".

ظننتُ لوهلة بأنه حلمٌ آخر، ولكنه لم يكن كذلك.

كانت الطفلة (فعلاً!) تعبر باب الروضة وهي ترفع طرف فستانها في الهواء كاشفة عن ثقب سروالها الداخلي وبطنها المتفتحة، ناديني على بعد ثلاثين خطوة "ماما نورة! ماما نورة!" وهي تشيرُ بيدها إلى سرتها، وسط الأعين التي تبحلق وتحقق وتتسع، والوجوه التي تضحك وتذعر.. كانت سرتها ملتهبة، حمراء، ناتئة، محاطة بأثارِ أسنان، وقد ازرق محيطها وانكشطَ بعض جلدها على الأطراف، ولما تأكدت الصغيرة من أنني رأيتُ ما رأيتُ، وبأنني أستوعب حجم الاعتداء الذي تعرضت له، التفتت بجذعها نصف التفاتة لتشير - بكثير من الكمد - إلى ابنتي التي تمشي إلى جانب ابن خالها، تمسك بيده، تؤرجح ذراعيها فوق وتحت، تحت وفوق.. وبصوتٍ محايد أكدت "مضاوي عضنتي" وكأن الأمر لم يكن واضحاً بما يكفي.

كان عليّ أن أبذل لها العديد من الرشاوى لكي لا تبلغ أُمي بالأمر، لاسيما وأن فطومة هي جاسوسة العجوز المفضلة، تنقل إليها جميع الأخبار، وترصد لها آخر الأنباء، ليس لأنها لثيمة الطبع، أو خبيثة النوايا، بل لأنها بطبيعتها أبسط مما ينبغي، لا تستطيع كتم شيء، دعوتها للجلوس في الكرسي الأمامي، سمحتُ لها بأن تستأثر بفتحات التكييف، وعندما لمحتُ في طرف الشارع عربة بائع الآيس كريم اشتريتُ لها اثنين، وطوال الطريق إلى البيت كنت أذكرها بأنها إذا لم تخبر أُمي بالأمر ستحصل مني على مزيد من الامتيازات طوال شهر.

كنتُ أتحاشى الكارثة: أن تعرف أُمي بأن حفيدتها قد نشزت - عن سبق الإصرار - عن نواميسها العادلة، وبأن ابنتها قد عجزت عن تربية الطفلة كما يجب، بحيث لا تستأثر لنفسها بأي رغبة، من أي نوع، ولا

حتى حيازة قطعة ككاو، أو إهدائها لابن خالها، وطوال ذلك الوقت، كانت مضايي سكرانة بوجود فهاد، تكرر وتهتف وتلعب: فهودي.. ابحت عن سيارة حمراء! الأحمر لون الفراولة والدم والحب! ابحت عن سيارة سوداء، الأسود لون برقع أمي غيضة! لماذا لا توجد في هذا العالم سيارة وردية؟ أي لون تحب يا فهودي؟ أي أغنية تحب؟ أنا أحب أناشيد "الوردة البيضاء".. كوكو كوكو صاح الديك، يصحو فجراً ويناديننا.. كوكو كوكو.. ثم بدأ كل منهما في دغدغة إبط الآخر، ثم أمسك خصلة من شعرها وداعب بها وجهه، ثم رفعت طرف فستانها لتريه الكدمة الغامقة في أعلى فخذاها الأيمن، وكشف هو عن بطنه ليريها آخر الشامات التي ظهرت على صفحة جلده، وبدأت تعد شاماته، ويعد هو رضوض جلدها و.. سألته إن كان يستطيع تقبيل كوعه، فقال بأنه يستطيع ذلك ولكنه لن يفعلها، لأن الذين يقبلون أكواعهم يتحولون إلى قرود، فردت عليه بأنها تحب القرود، فهي مضحكة وتستطيع تسلق الأشجار، ورد عليها بأنه سيقبل بأن يصير قرداً إذا ما امتلأت الكويت بالأشجار، ولكنها الآن فارغة كصحراء، ولاشك وأنه سيكون قرداً حزيناً، فأخبرته بأنها ستتحول من أجله إلى شجرة إذا ما تحول هو إلى قرد.. والصغيرة المسكينة، صاحبة السرة الناتئة! اكتشفت بأن وجودها في الكرسي الأمامي هو أسوأ ما حدث لها في حياتها، أسوأ حتى من تلقي عضات مضايي، وباءت كل محاولاتها في "الدخول إلى اللعبة" بالفشل، حتى لاذت بالصمت، وكان صمتاً حزيناً، شعرتُ به يسيل في صدري مثل خيطٍ من حميم.. وبدأت أتساءلُ عما يحدث فعلاً، أعني فعلاً! ما الذي يجعل ابنتي غير مهتمة بالجلوسِ إلى جانبي وهي التي تعد الأيام على أصابع يدها من أجل أن يصل دورها؟ وما الذي يجعلها تمعن في تجاهل الأخرى، وتعمد إلى إيلاهما، وهي التي تمضي عندها كل هذي الليالي، تنام في سريرها وتلعب بألعابها؟ ثم.. ما الذي يجعل البنتين تتشجران وتتأخران بهذا القدر، من أجل قطعة

ككاو؟ فهاد؟ كنتُ قد بدأت أتوجس من الأمر، هؤلاء ليسوا أطفالى الذين عرفتهم طوال عمري، لقد طراً أمرٌ ما..

وصلنا إلى البيت، سبقتهم في النزول لأفتح لهم الأبواب، ربتُ على كتفِ فطومة إذ هي تهبطُ من السيارة، مغتمة بما يكفي، الأيسكرىم الذائب يسيلُ على ذراعيها ويقع ثيابها، سبقتُ الاثنين إلى الداخل والصمتُ يطبق عليها تماماً، ولحق بها الاثنين المشغولان ببعضهما، القرد والشجرة.. ثم.. لحقتُ بهما أركض! كنتُ قد نسيْتُ أن أربتُ على كتفيهما كما فعلتُ لتلك، تلك الحزينة، وكنتُ أتساءل فيما أنا أقضي دينى بمتهى الآلية إن كانت هذه هي العدالة؟ ألا يجعلنا الحزن أكثر استحقاقاً للتربيتِ على الأكتاف؟ ألا يحق لها بهذا الامتياز؟ وهل ينبغي أن يكون الحب عادلاً أصلاً، إذا ما كانت العدالة تعني - بأي شكل - تطبيق المساواة؟ كانت الشكوكُ تعصفُ بي من كل صوب، عبرتُ عتبة البيت ورأيتُ الثلاثة يتوجهون إلى رقية، يغوصون في حضنها اللدن، رأيتُ فطومة تكشف عن بطنها لرقية، وتبادلنا - هي وأنا - نظراتٍ متواطئة، أختى السوداء الجميلة! تعرفُ ما ينبغي وما لا ينبغي أن تعرف به العجوز.. وأنا.. عليّ أن أتفحص ابنتى، عليّ أن أعرف بما يحدث.

.. ظننتُ - لهذه المرة أيضاً - بأنني أحلم، وأنا أسمعها تعيد ترتيب الترهات الجميلة، والخزعبلات الموشومة بالحب، والخرافات العامرة بالإيمان، أسمعها تبني ديناً جديداً، نبه في الخامسة من عمره، اسمه فهاد ابن علي، يبشر بنواميس أمي، وينذر من عقابِ أمي، الحقائق التي تحورت وتمحورت وصارت نبوءات، كرامات، تجليات إلهية، قصص تتحرك أحداثها في عوالم سفلية، وعوالم علوية، أبطالها ملائكة وشياطين، أنبياء وأولياء، شهداء وصديقين.. بالتأكيد! لطالما كانت الحقيقة قادرة على التشكل بألف صورة، من أنا - بأي حال - لكي أقرر بأن رجلنا الذي مات كان قاتلاً لا شهيداً؟ ومن أنا - أيضاً - لكي أزعم بأن الصغير الذي ولد بدون صرخة ميلاد هو مجرد صغير ولد بدون صرخة ميلاد؟ ومن أنا أيضاً لكي أدعي بأن بكاءاته الملتاعة لم تكن بسبب تحرشات الجن، بل بسبب غازات البطن! من أنا لكي أعطي الواقع تلك الصبغة... العادية! من أنا لكي أجرد حيواتهم من بعدها النوراني، وروحها الإلهي؟ من أنا لكي أنتزع من الأسرة المنكوبة، المكلومة، المفجوعة.. الشيء الوحيد الذي تحبه والذي يجعل لامتدادها معنى، ذهاب الولد ومجيء ابن الولد؟ من أنا؟

كان ثغرها يفتحُ ويغلقُ أمامي، والظنين في رأسي يعلو ويغطي جميع الأصواتِ، نوبة صداع تتابُ الشق الأيمن من رأسي، نهضتُ واقفة، أبحثُ في أدراجي عن تلكم الأقراص، الأقراص اللعينة التي ما فتئت تتكاثر، لحقت بي، شدتني من قميصي، كانت عينها مشرعتان على الآخر، تغصانِ بالأسئلة، ترتجفانِ من الحيرة.. ماما؟ ماما صح الشيطان يكره فهادي حيل؟ ماما صح الله يحب فهادي حيل؟ أمي هيلة تقول فهادي غير! فهادي غير كل الناس، فهادي قلب على بطنه يوم

عمره شهرين، وطلع له أول ضرس وهو عمره أربع شهور، وقام يمشي وهو عمره تسع شهور، ماما متى طلعت لي ضروس؟ لم أكن أفهم! لم أكن أفهم كيف يمكن أن تتحوّل أمورٌ بهذه العادية إلى خوارق! كيف سأبرر لابنتي الآن بأنها خطت خطأها الأول بعد أن تجاوزت عامها الأول بخمسة أشهر؟ ماذا يجعل ذلك منها؟ طفلة طبيعية؟ لا يكرهها الشيطان بشكلٍ خاص ولا يحبها الإله بشكلٍ خاص؟ واحدة منا نحن العوام الذين نصب في السواد ونصنعه، من السواد إلى السواد، من التراب إلى التراب؟ هل أصبح ذنبها - مثلاً - أنها لم تنقلب على بطنها قبله؟ وهل يعني ذلك - بأي شكل - تفوقه؟ كيف امتلأت رأسها بكل هذا؟ متى حدث ذلك و.. هل كنتُ مشغولةً بي كثيراً بحيث لم ألاحظ الأمر؟ هل فقدتُ إحساسي بابنتي منذ تورطت في زيجةٍ مضحكة كهذه؟ هل أسكرتني وحدتي إلى هذه الدرجة؟ عادت تشدني من طرف قميصي: ماما! ماما نورة!

بالتأكيد! كانت محتاجة للفظ اسمي، محتاجة لتصنيفي من ضمن فاترينة الأمهات اللواتي يتقاذفن من جميع الجهات، كان اسمي هو الشيء الوحيد الذي يميزني على الأرجح، وعندها مني كثير.. أمها هيلة، أمها شهلة، أمها رقية، أمها غيضة، من أنا، لكي أغرد فيما الكل يشغو؟ من أنا لكي أثنغو فيما الكل يغرد؟ من أنا لكي أجيء الآن، متأخرة جداً كما هو واضح، لكي أدمر ركائز عالمها وأخبرها ببساطة بأن كل ما قيل لها هو ضربٌ من الدجل؟ كيف يمكنها أن تصدق الشيء ونقيضه في الوقت نفسه؟ وهل من حقي الآن أن أتكئ على حظوتي، كوني الأم التي أنجبتها، وأعتمد على ذلك وحده لكي تؤمن بي وتكفر بهم؟ جلستُ على الكرسيّ المقابل لمرآة الزينة، توكتأت على يديّ، و.. ما الذي أستطيع قوله لها بدون أن أتحوّل في عينيها إلى عاصية؟ إلى عاقبة؟ إلى مجدفة ملعونة؟ وكان مفعولُ الأقراص قد أخذ يدبّ في جسدي،

يملؤني بالخدر، وأرى وجهها يبزغ وسط غمام أفكارٍ متوسلاً، كانت طفلي تستجديني لكي أخبرها بأنها محشوة بالأكاذيب، بأنها لا تقلّ بشيء عن ابن خالها، أو ربما تريدني أن أخبرها بأنها - أيضاً - لديها كثيرٌ من "كرامات" الطفولة، بأنها - مثلاً - سبقتهم إلى الكلام، سبقتهم في تعلم الحروف، أشياء عادية! هل أحولها - من أجل عيني ابنتي - إلى كرامات؟

- مضاي..

وأدرتُ رأسي صوبها: حيرتها الطاعنة وصنوف التوثب، بصعوبة كنتُ أتففس:

- حبيبي مضاي!

- نعم ماما؟

- مضاي، ما أريك تامين عند فطومة بعد.

ولم أستطع أن أفكر بشيءٍ أقل عبثية من ذلك، من أن أحاول عزل تأثير أختي، تدخلاتها وخزعاتها ودجلها..

- ليش ماما؟

- بس.

لم أكن قادرة على ابتداع ردٍ أكثر لطفاً وملاءمة.. مضيتُ أبعد في تهاويمٍ صداعي، رأيتُ وجهها عالقاً، حائراً، وسط فلول الغمام الذي غشى بصري، والدموع التي فرت، بدون إشعارٍ مسبق، فرت وكرت وواصلت ركضها على خدي، ثم.. ذلك التشيع الذي تسرب عابثاً، يتحرك في جميع الجهات، أكتافي التي تهتز في بكاءاتها الصامتة، رأسي التي غاصت بين ذراعي، جذعي الذي تمدد على السرير، جسدي الذي يرتجف، يرقص رقصة البكاء، جسدي الذي يحاول أن يتحرر من أوجاع ما فتئت تتكدس وتربو، تتلاقح وتتواشج وتمتد في جميع الجهات،

وابتني المذعورة.. أمام طقس البكاء المضحك الذي نزل بجسدي،
تقدمت خطوتينٍ مني، ربتت على كتفي بخفة.. ماما، ماما لا تخافين،
ما أخليك بروحك! ما أنا عند فطومة، ماما..

ولأن بكائي المضحك لم يفتّر، بحثت في رأسها الصغيرة عن فكرة
مبهجة، عن خبرٍ تفرحني به، ولم يسعها أن تفكر بشيءٍ آخر..

- ماما؟

- ..

- ترى فهادي خطبني وقال إنه راح يتزوجني بعدين!
وانفجر البكاء في بكاءاتٍ أُخر..

وَعَسَلٍ غَيْرِ مَطْفَأٍ
(وطن الشوائب والدود)

موضي

1

في عام 1942 ولدت جدتي، في واحدة من مئات خيام البدو المنصوبة بالقرب من مدينة الكويت بجانب السور في زمنٍ كثر فيه الحديث عن هجر الياضية وتجربة الحاضرة، عن ذهب أسود يسيل تحت الأرض، عن لؤلؤ ياباني وكساد اقتصادي وقحط، عن زيارات الأعاجم من حملة الكاميرات الباحثين حثيثاً في مجاهل الحياة البدوية، في زمنٍ كان العالم فيه يتغير بلا رحمة، ولدت جدتي في تلك الخيمة السوداء الأشبه ببشتٍ عربي متفخ في ذلك العام المزدهم بتناقضاته، لتجرب حياة الرمل والخلاء، وزوجت في عام 1951 (وهي في التاسعة من عمرها) لابن عمها فهاد بن علي بن شيخان بن دحين، البالغ العشرين من عمره، لتجرب معه حياةً أخرى، خارج الخيمة وداخل السور.

كان جدي / فهاد بن علي بن شيخان بن دحين سليل أولئك البدو القلائل الذين تاقوا لتجربة البحر واكتشاف خفاياه، جد جدي كان غواصاً، يبحر في الأزرق ويطلق في الفضاء أشعار الحنين للبعران والأغنام وبيوت الشعر، وقبل أن تصاب البلاد الفقيرة الصغيرة المحبة للسلام باختراع اليابان العظيم / اللؤلؤ الصناعي، تمكن جد جدي من أن يجمع لأبنائه إرثاً سخياً، بعد أن ابتسمت له محارة بدانية عملاقة، واستسلم للموجة التي أخذته مع آخرين قلائل من "بيت الشعر" إلى "بيت الطين" ..

كانت جدتي طفلة تلعب بالجريد بين قطعان الأباعر، عندما ناداها

أبوها ليخبرها (للعلم فقط!) بأنه قد زوجها - قبل ساعة - لابن عمها الذي يكبرها بأحد عشرة سنة، والذي يسمونه فهاد بن علي بن شيخان، والذي يتحدث لغة البحر ولغة البادية، نكست جدتي / الطفلة رأسها، ثم التفتت عائدة إلى فضاءاتها الرملية، لتلعب بالجريد بين البعران والأغنام.

انتظر جدي / العريسُ (بأدبٍ) أن تحيض زوجته للمرة الأولى في حياتها لكي يأخذها معه إلى البيت بعد خمسة أعوام من عقد قرانهما، وهي في الرابعة عشر من عمرها، ثم انتظر (بأدبٍ) لست سنوات أخرى حتى تحبل وتنجب له الأبناء، جربت جدتي الحياة في بيت العائلة الممتدة، مع ثلاثة من أشقاء الزوج، (وخمسة من زوجاتِ الأشقاء!)، وأتقنت فنون حياتها الجديدة، منذ التناوب على إعداد الغداء مروراً بحلب البقرات، وحتى غسل الثياب، صارت جدتي امرأة حقيقية منذ طفولتها.

في عام 1954، قام "مجلس الإنشاء" (المعروف فيما بعد بالهيئة العامة للرعاية السكنية) ببناء ألفي وحدة سكنية للمواطنين، الأمر الذي اشتاقت له نفس جدي، والذي حتى ولو لم يخطر بباله أن يحط خارج منزل العائلة، وأن يغرد خارج السرب، وأن يشط خارج تكتل الأسرة.. فسيسرّه كثيراً أن يكون من أولئك الذين تمنحهم الحكومة بسخاء منازل للسكن، في غضون خمس سنوات حصل على بيته الذي أراد، ثم فاز بأموال التثمين بعد ذلك بست سنوات، بعدما احتفلت البلاد بإسالة النفط وانتهاء الحرب العالمية الثانية ومن ثم - طبعاً - تدفق الدنانير وما إلى ذلك..

هكذا قرر جدي - المتخم بماله - أن يجرب تجارة الذهب، وأن يكون سيدها.

كانت جدتي - بحسب زعمها - أكثر أخواتها وبنات عمومها جمالاً، ورغم أنها لم تلتقط في شبابها صوراً تدعّم بها هذا الزعم، إلا أننا صدقنا مزاعمها من فورنا، وفتنا بها بلا تردد! حدثتنا جدتي عن نحول خصرها في شبابها، عن شعرها خرافيّ الطول الذي يلامس رجلي ساقها، والعينين البدويتين القاسيتين، والحاجبين الكثيفين، والأنف العربي المعقوف، والشفاه المقوّسة المتفجرة عنفواناً، والبشرة المرمرية البيضاء، كانت جميلة فعلاً! ما زالت جميلة جداً! تجوب ممرات العالم بخيلاء المرأة التي كانت فيما مضى أجمل نساء الصحراء..

كانت جدتي هي كبرى شقيقاتها الثمانية، وأقربهن - بزعمها - إلى قلب أبيها، كانت بهجة أبيها بمولدها بهجة أصيلة، فلأنها جاءت أولاً، (وقبل أن يبدأ الأب بالقلق على الخليفة الولد حامل الاسم وارث الأب)، لم ينزعج أبوها من مسألة (أنوثتها!)، ولكنه وبعد توالي مجيء سبع إناث أخريات، وإجهاض خمسة من الأجنة الذكور قبيل الولادة بشهرين أو أقل، وموت اثنين آخرين قبل أن يتما عامهما الثاني.. صار الرجل البدويّ المطعون في فحولته أكثر رغبة بمجيء الولد، وبات مع كل يوم يزدادُ بعداً عن بناته، وانتهى به الأمر ليموت من الحسرة، بعد أن تزوج من امرأة ثانية أنجبت له بنتاً تاسعة.

لطالما تباغت جدتي بانتمائها البدوي، وتباغت أيضاً - بنفس القدر تقريباً - بكونها من أوائل البدو الذين جربوا حياتها الحاضرة، ورغم أنها قادرة على أن تمضي كل وقتها في التغزل بحياة البدو والخيام والأباعر، إلا أنها لم تكن قطعاً تفضل الحياة الصحراوية القاسية على قدور "التيفال" ومواقد الغاز ووحدات التكييف يابانية الصنع، استطاعت جدتي أن تبقي على شقيها البدوي والحضري متجاورين في عميق ذاتها،

متصالحينِ ظاهرياً، يتقدم أحدهما على الآخر وفق ما تقتضيه المواقف اليومية ومصالحتها الخاصة، كانت أعرافها البدوية تهيمنُ عليها (مثلاً) عندما يتعلق الأمر بالحفيدِ وأمه (المجنونة التي تلمح برغبتها بخلع غطاء وجهها!)، ثم تقفزُ إلى منظومة فكرية تقدمية تتبناها عندما يتعلق الأمر برغبة إحدى ابنتيها (يعني شيصير إذا نورة ما لبست عباتها؟! العباة تضايقها وهي تشتغل!)، وبدون أن يخطر ببالها بأنها تناقض نفسها!

وعندما يتعلق الأمر بكيفية ممارسة جدتي لأومتها، ورغبتها الدفينة بالسيطرة على عالمها، (وعوالمنا جميعاً بالمناسبة!)، كانت جدتي متهورة بما يكفي لكي تسلخ نفسها عن جلابِ القبيلة، حاملة فوق رأسها صرة من الثياب والعيال والأحفاد، لتأتي بها إلى وسط المدينة، وتبسطها على الأرض، وتدشن فوقها عالماً أمومياً يخصها وحدها.

عاشت جدتي لسنوات كفرد في الأسرة الممتدة لعائلة جدي، في عالم يجوس فيه الحموان والأعمام والجيران والزوجات الغيورات محترفات البصصة، في بيت يضم الأب والأم والأبناء والزوجات والأحفاد وربما - لو كان العالم كبيراً كفاية - لكان هناك متسع لأحفاد أحفادهم أيضاً.. كان حلم والد جدي أن يدشن إقطاعية محشوة بالأقارب، ليحميهم من الانتشار والتبدد في جسد العالم، وإذا كانت أسرة جدتي من أوائل الأسر البدوية التي انتقلت إلى حياة الحاضرة، إلا أن تكدسهم في بيت واحد قد حوّل البيت العائلي إلى قبيلة صغيرة، يعيش أبناؤها متجاورين وملتحمين ومتحدّين ومتوحّدين ببعضهم.

قاست جدتي طوال عمرها من كونها فرداً في أسرة ممتدة، زوجة لأحد أبناء "بيت العائلة" الكبير، ورغم أنها أجادت الأمر إلى درجة الاحتراف، وسبرت كل أغواره، وجربت جميع حيله، وتمرست على جملة طقوسه، وأتقنت سائر عاداته، إلا أنها لم تحبه قط، وطوال أعوام زواجها كانت تلتجئ إلى ما لديها من غريزة البقاء، لكي تصمد أمام الأعين المبحلقة، واحتشادات النميمة، وحبائل الفتنة، وظلال الغيرة المبطنة، والخلافات التي تنشب على هامش صفحة العالم المثالي، والمؤامرات التي تحاك في الخفايا، والحماة المجنونة التي تريد أن تفسد طبخ غيضة لكي يلحق بها غضب الأب، والكنة الغيورة التي تتذمر على الدوام بأن أثاث غرفة غيضة أجمل من أثاث غرفتها، وأم الزوج التي تقحم أنفها في كل شئون كنتها وابنها، شبعت جدتي من المقارنات النسائية المملة، وشكاوى التقصير في العمل، والتذمر عن الملح الزائد في الطعام، ونوبات الحقد أمام أي خاتم ذهبي آخر يضعه

جدي في أصابعها .. شمعني غيضة، ليه غيضة رجلها يسويلها و.. غيضة ما تعرف تطبخ مثلي! لا حد لتلك المشاكل التافهة التي تحول الحياة إلى جحيم!

عاشت جدتي حياة عائلة جدي لتسعة وثلاثين عاماً، وكانت حياة نموذجية بما تضمنه من خلافات وغيره وأحقاد وتواطؤ وغيبة ونميمة وقتنة وشللية وربما بعض المودة! ورغم ذلك لم يخطر ببالها أن تغادر، لم يكن عقلها مدرباً على هضم فكرة ثورية كهذه، ومرّت سنواتها التسع وثلاثون خارج سيطرتها تماماً، وربما خارج رغبتها، حتى..

غرقت البلاد في عدوانٍ الـ 90، واجتاحت البلاد موجة فجائية من الذعر، اضطربت أساسات العالم، وتبلبت نواميس البيت الواحد، وتشطر جسد العائلة إلى أشلاء انتشرت في ربوع السعودية، هرباً من اعتداءات متعسفة ستطال أبناءهم المنخرطين في سلك الشرطة والجيش، غادرت الأسرة مع فلول من غادر، أخذت جدتي حليها ومالها وأبناءها الثلاثة وحفيديها (ابني خالتي هيلة من زوجها الأول) وحشرتهم داخل سيارة جيمس حمراء كبيرة وهي تولول وتحث جدي على المضي..

أمضت جدتي شهور الاحتلال السبعة، ومن بعدها خمسة شهورٍ أخرى، في "المنطقة الشرقية" في جيرة أحد أبناء عمومتها، فيم سافر أغلب أشقاء الزوج مع عائلاتهم إلى جدة والرياض، تقول جدتي بأن جدي لم يرغب أن يبتعد عن الكويت أكثر من ذلك، أن يجرب مدينةً أخرى، لا تشبه الكويت ولا تحمل ريحها بالقدر الذي تحمله الدمام في هذا الجزء من المملكة، وفي هذه الفترة الوحيدة من حياتها، الفترة القلقة المائجة بالعدوان والخوف والألم، اكتشفت جدتي - لأول مرة - جمالية أن تعيش مكتفية بمن لديها، زوج

كهل وأبناء ثلاثة وحفيدين وربيبية سوداء وجدوها تركض في الشوارع
وسط وابل من الرصاص..
أو لنقل، اكتشفت جدتي جمالية أن لا تكون في القطيع، جمالية
أن تكون الراعي!

رقية

الأمهاتُ في كلِّ مكانٍ وكأنهنَّ يجئن من أمٍ كونيةٍ تشظت في انفجارٍ عظيمٍ إلى آلاف الأمهاتِ السارحاتِ السابحاتِ صوب العاديِّ ونحو الرتيبِ، كان المساء، وكنَّ قد قررن أن يكون حديثهن عن الليمون: الليمون الأصفر، الليمون الأخضر، الليمون الأسود، الليمون المصري، الليمون اللبناني، الليمون مع الشاي، الليمون مع المرق، الليمون مع المرقوقة، الليمون مع العسل.. الليمون قضية القضايا، الطفلتان ممدتان بين الساقين المنفرجتين لشهلة، تذرذان السكر في فميهما وتمضغانه، وهو في طرف المكان يستغرق في المجهول، يغيبُ في أغواره الخاصة، ويكشفُ في العالم وجهه الخارق.

أنهضُ "عن إذْلكم" ..

توقني العجوز:

- وين؟

- أجهز العشاءِ، تامرِينِ على شي؟

- خذي الإذن من رب المجلس.

وأومئ برأسي إليه، هو الغارقُ في غيابه، يحدق في كومة قصاصات.. اقتربتُ منه، بالكادِ لمسْتُ كتفه، التفتَ وابتسمتُ..

- فهادي؟ أنا بروح أسوي لكم عشا.. زين؟

- روجي!

- أسوي لك معكرونة مع طماط؟

- لأ

- شنو أسوي لك؟

- هميونغر. (يقصد الهمبورغر طبعاً)

- إن شاء الله.

وما كدتُ أُخرجُ من المجلس، حتى التفتُ صوبه التفاتةً أخيرةً،
لأهيه ابتساماً أخرى، ولأنظر إليه، تحديقته الغريبُ في القصاصاتِ،
يده التي استقرت فوق حقل الورق، يده التي ارتفعت إلى أعلى شبراً..
شبرين و..

- بسم الله الرحمن الرحيم! بسم الله الرحمن الرحيم!

شهقت ويسملت واستعدتُ من الشيطانِ و..

التفت الجميع إليّ ثم إليه، كلهن رأين المعجزة، رأين القصاصات
تلاحق يده، تطير لتستقر في الهواء، ترتفع إذا رفع يده، تهبط إذا أهبط
يده، تلحق يده يميناً، ثم شمالاً.. كانت القصاصات تطيعه! انتصبت
العجوزُ واقفةً: جذعها المشدود، الرعبُ في وجهها، سبابتها التي
ارتفعت عالياً في ابتهالاتٍ متواترة: لا إله إلا الله! قفزت هيلة من
مرقدها، أسرع صوبَ العجوز وهمست بإذنها: بسم الله! يمه ولدك
هذا مخاوي جن؟

- أعوذ بالله من فالك..

- أجل وش إلي قاعدين نشوفه؟

واكتفت العجوز بأن تمتت: سلامٌ قولاً من ربِّ رحيمٍ..

موضي

لم يكن يعرفُ كيف يشرح الأمر أو يبرره.. كان كل ما يعرفه بأنه يستطيع أن يجعل الأشياء تحدث (وكان ذلك ليس مذهلاً كفاية!)، وأن كل ما عليه فعله هو أن يرغب بالأمر.

زلزمني ما حدث، فكيف يمكن أن أرغب بحدوث شيء، من صميم قلبي، ثم أرى الكون يمثل ملييا رغبتني، وكان كل ما عليّ فعله في هذه الحياة، هو أن أرغب؟ كيف يمكنني أن أصدق بأن الأمر هو فعلاً بهذه البساطة؟ كانت أمني على خطأ، لا يمكن أن يكون فهادي ولدأ عادياً يعاني من غازات البطن ويولد بدون أن يصرخ، لا بد وأنه قدّيس أو ما شابه! ففزتُ من مكاني لأجلس على يمينه، وقلبي يرقص من فرط التأثر، كنتُ أريد أن أهتف (آمنت! آمنت!) ولكن صوتي اختنق في حنجرتي، وشعرت بالدم يصعد حاراً إلى رأسي، وتدفقت في داخلي آلاف الأفكار المدوخة..

وثبت فطوم من مكانها وجلست قبالة :

- فهادي إنت ساحر؟

لم يرد..

- ولا مسحور؟

لم يرفع عينيه، كان مأخوذاً بمعجزته الخاصة، رفعت عيني إلى أمني لأراها وقد شحب وجهها، أمني لا تصدق بأن فهاد يصنع المعجزات، أمني لا تصدق إلا ما تقرأه في كتاب العلوم الذي تدرسه لطالباتها! وأنا.. كنتُ أبتهل في داخلي لكبي أتحوّل إلى قصاصة ورق تطير بين يديه، لكبي أكون جزءاً من هذا الشيء العظيم الذي يحدث، وسمعتُ جدتي

تهمس لأمي وخالتي: كل واحدة تاخذ بنتها لبيتها، تأخر الوقت!
أرسلتنا جدتي إلى غرفنا لننام، وكأنها لم تشهد معنا على حدوث
المعجزة، قالت بأن الوقت قد تأخر ويأن علينا أن ننام. ننام؟ ننام!!
يخيّل إليّ أحياناً بأنه كلما كبر الإنسان كلما ازداد عتهاً! لم أنم،
صممت أن لا أنام، تريثت ساعة ثم صعدتُ إلى السطح آملّة - من
كل قلبي - أن أجد هناك، يلعب لعبته المخيفة مع العالم، ويجعل
الأشياء تحدث!

وفعللاً وجدته، ابتهج قلبي، تربعتُ أمامه وأنا أرى القصاصات،
تطير يميناً، تطير شمالاً، تطيع رغباته القلبية..

- فهادي شلون تسوي جدي؟

- ما أدري.

ولم يكن مهماً بالنسبة له، أن يمتلق هذا الشيء الخارق الذي
يحدث له، وكأنه أمرٌ طبيعي جداً، أن يكون المرء خارقاً! وكنتُ ألحّ،
ألحّ، ألحّ.. أردتُ أن أكون خارقة! وأن أجعل الأشياء تحدث، وكان
عقلي قد تفتت إلى آلاف الأفكار، أمام قدرته المدهشة على التعاطي
مع المعجزات كمسلماتٍ محضة، كانت الأسئلة تتفجر داخل رأسي،
فطالما أنه يستطيع أن يملي رغباته على الكون، وأن يجعل الأشياء
تحدث، وأن يحرك الأشياء عن بعد وما إلى ذلك، فهل يعني ذلك
بأن كل شيء في عالمه هو جزءٌ من رغبته؟ وهل يعني ذلك أيضاً
بأنني أنا أيضاً مجرد استجابة كونية لرغبته الداخلية؟ أن وجودي في
حياته هو لأنه يريد ذلك، يختارُ ذلك؟ وهل يحق لنا أن نختار أسئلتنا
الكونية بهذه البساطة؟ وماذا عني أنا؟ هل كل شيء في حياتي هو نتيجة
لرغباتي وأفكاري؟ حتى معاناتي الخاصة؟ قصوري؟ نقصي واعتواري؟
هل اخترتُ؟

- أمس كنت أمشي في (السكّة)..

رفعتُ إليه عيني، أتضرّع إليه كي يخبرني عنه أكثر، عن خوارقه
وكراماته..

- كنت رايح (الفرع) أشتري ككاو.
- وبعدين؟
- بعدين شريت ككاو..
- وبعدين؟
- بعدين طلعت من الفرع..
- و بعدين؟
- بعدين طالعت تحت..
- إيه؟
- وبعدين شفت جسمي.
- شلون يعني؟
- يعني شفت جسمي..شفتني وأنا أمشي في السكة، وبأيدي
ككاو..

- شلون؟
- ما أدري..
- يعني شلون فهادي؟
- ما أدري!!
- يعني إنت كنت طائر في السما؟
- تمتم بكلماتٍ متبرمة عن غبائي وقله فهمي: إنتي شفيج ما
تفهمين؟

وأخيراً أخبرني:

- أنا كنت فوق، وكنت أشوف الناس تحت، وأشوفني، وأشوف
بيتنا من بعيد، وأشوف كل شيء..

- وشففتني؟

- .. شفت (قطوة) داستها سيارة، في الشارع الثاني..

هكذا أخبرني.. بأنه ليس فقط كل ما هو عليه، الولي صاحب الكرامات، والولد ابن الولد، واليتيم الجدير بكل الحب الموجود في الدنيا، بل هو "السوبرمان" بعينه! وفكرت.. لعله زار الجنة بهذه الطريقة، انفصل عن جسده وذهب إلى أنهار اللبن في الجنة حاملاً قريتين كبيرتين من الفخار، عبأ بهما ثديي أمه!

فاطمة

حشرتُ جسدي بين الوسائد، تحت اللحفِ، أهدقُ في الفراغ،
أرى قصاصاتٍ من الورق تبت لها أجنحة، تتحول إلى فراشات،
ترفرفُ حول رأسي وتجنني!

- فطيم! شعندك تسدحين في فراشي؟

فتحتُ الأضواء، ثم أردفت وهي تدخل الغرفة، بمشيها المتهادي،
وبطنها المتكورة:

- ليه ما رحتي غرفتك وخمدتي؟

تربعت على السرير، وجهي يتطلع إلى وجهها، عينا في عينيها،
سألته السؤال الذي كان يدور في رأسي منذ ساعة:

- يمه فهادي فيه جني؟

- فال الله ولا فالك! فهادي ولد خالك علي فيه جني؟ أصلا
فهاد يشرق، والجنانوة يغربون! أصلاً هم من يسمعون خطوات رجوله
يتراکضون من الخوف، شلون يصير فيه جني مثل ما تقولين؟
جلست على حافة السرير، عينا تلمع وصوتها يرتجف.

- يمه أنا كم مرة فهمتك إن ولد خالك ذا مهوب إنسان عادي؟
هو غير.. فهمتي؟ إنتي حطي هالفكرة براسك، هو غير عن كل الناس
ويقدر يسوي أشياء ما يسويها غيره!

- شمعني؟

- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

وتلا صمت.. كانت كل واحدة منا تحدق في الأخرى، بمتيها
الإيمان والتأثر، وقلبي العامر باليقين الشاهد على المعجزة يرتعش داخل

صدري، آه..كم أنا محظوظة! كم أنا محظوظة لأنني ابنة عمّة فهاد بن علي! كم أنا محظوظة لأنني ولدتُ في نفس العالم الذي ولد فيه، في نفس البيت الذي يعيش فيه، في نفس الزمن الذي ولد فيه، لا يفصل بيني وبينه حجاب، كم أنا محظوظة!

شهلة

- .. بس يا خالتي الولد طلع مسكون!!
- مسكون؟! ولد علي مسكون؟! مسكون بعين العدو! قالت
مسكون! ولدي أنا مسكون؟ ما مسكون إلا مخك والله! مسكو..
.. وأجهشتُ..

- وش عليه تصيحين ياخبلة؟ ألحين الصبي الله أنعم عليه، وإنتي
تصيحين تحسبين النعمة نقمة! قومي بس زين، روجي خمدي وفكيني
من حتتك، قومي من قدامي أهوه!

.. لَمَّا رأت غيضة دموعي وارتباكسي وما أنا عليه من قلة إيمان
قالتُ بأننا لا نسائل الله العظيم على العطاء والبلاء، وشجبت قلة عقلي،
والرعب الذي يتباني، ثم قذفتني بكل ما طالته يداها من حبات الفستق،
والريموت كترول، ووسائد الريش، وأنا أجاهد لكي أخرج من عندها
بأقل ضرر، ولما أوشكتُ على الباب، ولهائي يتصاعد، وصدري يضيق،
وأحس بلزوجة العرق على وجهي وكفوفي وظهري، نادى علي: يا بنية!
التفتُ، فغرزت عينها المخيفتين في عمق عيني وقالت: داري حوايجك
بالكتمان، سمعتي؟! أوصدتُ الباب من دوني، ولهائي، وحبات العرق
المتزاحمة فوق جبينتي، وفكرتُ - لأول مرة منذ سبع سنوات - لو..
لو أنني أستطيع أن أتصل بأمي، وأخبرها بأن ابني ساحر أو مسحور أو
ممسوس أو مسكون! وأسألها النصيحة، لمن ألجأ وماذا أفعل وكيف
أنصرف، لو أنني أتصل بأمي، لو أنني أحظى بأم بعد أن كفت غيضة
عن أن تكون أماً!

نورة

- مضايوي! مضايوي! تعالي ماما! تعالي "غرفة الكمبيوتر" بسرعة!
لم أكد أصدّق بأنني سمعتُ صوتكِ تدخلين.. حتى هتفتُ أناديكِ،
وأنا بالكادِ أسيطر على انفعالاتي، بالكادِ أستطيع الجلوس كأن من
تحتي الجمر..

- شفيك ماما؟

- تعالي مضايوي! شوفي شنو لقيتُ في الكمبيوتر!

وأيت، بوجهٍ يفيض تأثراً، قصاصاتِ ابن خالكِ تملأ يديكِ، يخيل
إليكِ بأنها ليست مجرد قصاصات! وضعتها بعناية على طرفِ المكتب،
وتقدمتِ نحوي لتقفي خلف كرسبي مباشرة وأنتِ تحدقين في الشاشة
بفضول، رفعتكِ من إبطيكِ لأضعك في حجري، وأنا أُمسِر بيدي إلى
أربع أو خمس مواقع إلكترونية تتحدث عن موهبة "تحريك الأشياء عن
بعد" والطاقة الكونية (الريكي) وقوة العقل وعلم الباراسيكولوجي..

- شنو هذا ماما؟

- شوفي ماما..

وقرأتُ عليكِ:

"في عام 1968م تسرب للغرب فيلم وثائقي قصير تظهر
فيه ربة منزل روسية تدعى (نينا كولاجينا) من (ليننجراد) وهي تقوم
بتحريك أجساما صغيرة وكوب ماء بمجرد تحريك يدها فوقها.. كما
تمكنت السيدة (نينا كولاجينا) من تحريك علبة كبريت وعيدانها بمجرد
تحريك يدها فوقها، وقد أجريت هذه التجارب عدة مرات أمام أعين
أعضاء أكاديمية العلوم الروسية في أواخر الستينات، كما أراد العلماء
إختبار ومعرفة تأثير قدرة التحريك عن بعد التي تمتلكها السيدة (نينا

كولاجينا) على البشر، فقام العلماء بوضعها عند إحدى أطراف طاولة صغيرة وفى الطرف الآخر جلس أحد العلماء أمامها وقد تم توصيل عدة أقطاب بجسده لمعرفة أى تأثيرات قد تحدث على أعضاء جسده المختلفة، فقامت السيدة (نينيا كولاجينا) بالتحديق فى منطقة صدر العالم الجالس أمامها، ثم بدأت تحرك يديها أمامه من بعيد وبدا على وجهها الألم والتركيز الشديد، وبدأت عضلاتها بالإنقباض، وفجأة قام أحد العلماء القائمين على مراقبة الأجهزة الطبية المتصلة بجسد العالم الجالس أمام (نينيا) عند الطاولة بالإشارة إليها بالتوقف فوراً حيث سجلت الأجهزة الطبية نشاطاً كبيراً فى تحرك عضلات القلب الخاصة بالعالم الذى يجلس أمامها، وقد بدا أنه يعانى من أزمة قلبية، وما إن توقفت السيدة (نينيا) حتى سجلت الأجهزة الطبية، إستقرار عضلات قلب العالم وعودتها إلى إنقباضاتها الطبيعية.."

وكنْتُ بصددٍ أن أقرأ المزيد، لولا أن وجهك كان فى تمام حيرته، وأدركتُ بأن الأمر كثيرٌ جداً على سنواتكِ السبعة، وأكبر بكثير مما تطيقين، سألتني:

- شنو يعنى ماما؟

- يعنى - ماما - فيه ناس بالدنيا.. تقدر تسوي مثل فهادي، وتحرك الأشياء من بعيد، هذي قصة واحدة اسمها "نينيا كولاجينا" وتسوي نفس ولد خالك.

- شلون؟

كانت حيرتكِ حقيقية، فشعرتُ بغصةٍ كبيرة تستوطنُ حنجرتي..

- يركزون أفكارهم، وبعدين يحركون الأشياء بالطاقة إلي في أفكارهم.

وعرفتُ بأنني بالغتُ كثيراً في ردي، وبأنني أحملك ما لا طاقة لكِ عليه، ورحتِ تحمليين في الشاشة أمامي، تحاولين بصعوبة تفكيك

شيفرة الحروف المتراسة أمامك، ولم يمضِ عليكِ إلا السنة مذ بدأتِ
ترجمين الحروف إلى أصوات، وتقرأين "سالمٌ وعبير" بفرح وخيلاء،
كانت تلك الحروف التي تسيل على الشاشة تفرعك وتثيرك..

- شوفي مضاي، إنتي مو لازم تعرفين شلون يصير الشي، المهم
إنك تعرفين إنه فيه تفسير علمي حق إلي شفتيه، مابي منك إلا أنك
تعرفين هالشي، وإن مو بس ولد خالك يقدر يسوي هالأشياء، فيه وايد
غيره، في كل الدنيا، وإنه شي عادي و..

- بس ماما! أنا ما أقدر أحرّك الأشياء ب "مخي" ..

- عادي ماما! يمكن لو تدرّبتي وتعلمتي.. تقدرين، ويمكن تكون
عندك (موهبة) ثانية، يعني تطلعين رسّامة مثلاً، أو شاعرة أو.. أنا قصدي
- يا ماما - إن إلي شفتيه مو معجزة!

وأعرفُ بأن خالتك التي حولت إدرار الحليب وغازات البطن إلى
كرامات إلهية، لا ينقصها الدافع لكي تحول موهبة الصبي المدهشة إلى
معجزة تدعّم بها نظريتها عن كونه آخر الأولياء الصالحين المبتعثين
لإنقاذ العالم، لم يكن يهمني شيء في الدنيا إلا أن أحصنك ضد أختي،
أن أمنحك المعرفة، قوة المعرفة، وأطلقكِ منيعة أمامها، ورغبتها بأن
تراكِ تبتهلين باسمه..

ورحّت أريكِ روابط الصفحات الإلكترونية، أنصفحها معك،
أقرأها عليكِ، صفحةً صفحة.. كلما أطلقتِ سؤالاً نبشأه معاً، في العالم
الإلكتروني، قرأنا عن أولئك الذين يستشفون المستقبل، وأولئك الذين
يتخاطرون فيما بينهم، وآخرين يخرجون من أجسادهم ويسافرون في
ملكوت الله، وعن أشخاص يرون بأب عينهم ما لا يحدث أمامهم،
قرأنا في العالم وجهه الغرابي وعادية الغرابة، ورغم فتنة الأمر، كان
كل ما أريده هو أن أسلخ عنه صبغة الدهشة، وأحوله إلى أمرٍ عادي،
فقط لكي لا تشعرين يا ابنتي لأنك.. أقلّ.

شهلة

1

.. "السلام عليكم ورحمة الله / السلام عليكم ورحمة الله"

- تقبل الله يا خالتي..

وقفتُ على باب غرفتها، أنتظرُ - بلهفةٍ - أن تتمّ صلاتها لكي أبهجها بالقرار الذي اتخذته، التفتت إليّ، بوجهها البارد العميق، شيءٌ في عينيها كان يخيفني.

- منا ومنك يا بنتي.

ثم خلعت عنها جلال صلاتها وأخفته في بطنِ السجادة المطوية..

- خير يا أمك؟ فيك شيء؟

- لا يمه مافيه إلا الخير.

- ولدك فيه شيء؟

- لا يمه مافيه إلا العافية.. قاعد يلعب!

- الله يحفظه.

إحساسٌ داخلي غمرني بأنها تتوجس مما سأقوله، تجاهلتُ إحساسي الداخلي الذي لا يعول عليه وغامرتُ بإخبارها..

- يمه أنا عزمت على شيء.. وجاية أفرحك!

- فرحيني يا أمك، قوليني.

- يمه أنا قررت أشتغل!

ولسبب ما، شعرتُ بذلك الإحساس غير المريح يتضخم في داخلي، وبدون أن تنظر في عيني سألتني:

- ليه يا قلبي إنتي بعازة فلوس؟ فيه شي قاصرك؟

- لا يا خالتي خيرك سابق.

- أجل وش لزمته الشغل؟

- ملّيت من القعدة في البيت ومقابل هالتلفزيون، وبعدين يمه فهاد - الله يحفظه - كبر وصار رجال ومهوب بحاجتي مثل قبل، قلت أحسن لي أشوف لي شغلة في واحدة من هالوزارات.. أشغل نفسي وأتسلى، تدرين يا خالتي اليد إلي ما تشتغل يد نجسة!

- بس يا أمك إنتي تشتغلين! إنتي شغلتك "أم"!

عرفتُ لحظتها بأنها لا تريدُ لي أن أخطو شبراً خارج ملكوتها، ولم أفهم..

- ايه يا خالة! مثل خواتي.. هيلة ونورة "ما شاء الله" أمهات ويشغلون!

- لا يا بنيتي، خواتك غير، خواتك بعازة البيزات، إنتي مو بعازتها، وبعدين علي الله يرحمه ما كان يعجبه إنه الحرمة تشتغل، وهو ما قصّر عليك، يعني ألحين يا أمك إنتي تطيعينه حي، وتعصينه ميت؟!!

وشعرتُ بشيء يشدني إلى الوراء، رأيت إصبعي أمي الممدودين صوب السماء وهي تصرخ "لا تروحين لقبرك برجلك"..

- بعدين يا أمك إنتي وش قدرك على الشغل؟ هذا دوام مهوب لعبة، وإنتي.. يعني.. شايقة شكلك؟ وش تقول الناس عنك؟ جت الفيلة وراحت الفيلة؟

طفرتُ الدموعُ من عيني، ازدردتُ غصّتي، تحشرجت أنفاسي

وغلبني دوار، شعرت بآلاف الأنصال تزرع في جسدي، تورق في
أعضائي: لم يخطر لي قط بأنها تستطيع أن تسخر جراحي - هكذا
- ضدي!

- صح كلامك يا خالة..

قلتها والبكاء يغالبُ صوتي..

- صح كلامك، صح!

ولم يعد بوسعي أن أتوقف، وأنا أردد المرة تلو الأخرى "صح!
صح! صح!"

كيف وصلتُ إلى هنا؟ غلبني السؤالُ أخيراً، وأفصح عن حضوره، بعد أن تصارعنا (أنا وهو) لسنواتٍ طويلة، منذ اليوم الذي علمتُ فيه بوفاةِ علي، وحتى اللحظة، حيث دموعي تركض حارّة على وجعتي، تندلى من ذقني وتهوي إلى الأرض، وأنا واقفةٌ وظهري يتكئ على بابِ غرفتها، أمي التي لم تكن لي أماً قط.

عندما بلغتُ العشرين من أمري زفّت إليّ أسرتي - بكثيرٍ من الغبطة - نبأ تقدم علي بن فهاد لخطبتي، الرجل فاره الوسامة الذي يشتغل في تجارة الذهب، مضرب الأمثال في الأخلاقِ والورع، يذهب إلى المسجد مشياً ويمشي هوناً وينظر إلى الأرضِ على الدوام، غارقٌ في مثاليته، والتي هي واحدة من جملة فضائله التي لا تحصى، والأمر الأهم، هو أننا ننتمي إلى الفخذ ذاته، وأن أبويننا أبناء عمومة، وحتى وإن كانت لي قرابةٌ حضرية من جهة أمي التي عشقتُ أبي وعشقها، فإن الأمر الوحيد المنطقي الحدوث هو أن أتزوج من أحد أبناء عمومتي، مباشرةً بعد أن (رقصت) في عرس ابنة عمتي، وأمام عيني غيضة، لتعرف بأنني الكنة المثالية التي كانت تنتظر بزوغها في حياتها، بعد أن تأخر الابن في الزواج لسنواتٍ بدون سبب واضح، عندما خطبني علي بن فهاد كان يبلغ من الثانية والثلاثين من عمره، ولولا أن أمه أخبرته بأنه إذا لم يتزوج سريعاً ويأتها بدزينة من الأحفاد فلن ترضى عنه، لما تجاسر وتزوجني، أنا الغضة الصغيرة الملائمة لطاعة الزوج وأمه، والآن، أمام السؤال الذي غلبني: ما الذي جاء بي إلى هنا، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل: ما الذي كانت تريده مني؟ ما الذي رأته فيّ باستثناء الرقصة "البدائية" بطول صالة الأفرح، والشعر الأسود المسكوب والقذ النحيل الذي كان! غيضة ليست ساذجة أو سطحية،

وإن كانت قد رأنتني جميلة بما يكفي لكي أليق بابنها، ولكي أمنحها
نسلًا وسيمًا، فقد كانت تريدُ - أيضاً - فتاة تصغر ابنها بسنواتٍ كثيرة،
لا تتأفف أمام تدخلاتها، ولا تملك حق الاعتراض أو الإدلاء برأي،
وبمجرد ما أطلعتنا على رغبة ابنها بزوجة تكون ربة بيت وحسب، وأن
الوظيفة غير مسموح بها، وافقنا على الفور، وانشغلنا بأموارٍ أهم، ترتيب
الزفاف مثلاً! في غضون شهرين اثنين أصبحت زوجته الشرعية، وانتقلتُ
للحياة مع أسرته، كنتُ كما أرادت غيضة، خرساء بكماء وجميلة.

موضي

1

.. كان قد كَفَّ عن اللعب معنا / معي دون يتعمّد الأمر، كان نسيانهُ لنا / لي عفويّاً بشكلي لا يمكن دحضه أو التشكيك فيه، فكل ما في الأمر أنه لم يعد يرانا / يراني! عندما يمر بي، فأنا مجرد "لعيّة أخرى" في غرفته الزاخرة بسواي من الألعاب، وكنا عندما نناديه، فطومة وأنا: يا فهادي العب معنا! يا فهادي غنّ معنا، يا فهادي اركب معنا.. في أراجيح جدتنا العظيمة! كان يهز رأسه ويمضي في سبيله، ما الذي يشغله؟ كان الفضول يقرضني، وأنا ألاحقه بعينين مشرّعتين على الآخر، أتتبع تفاصيله وأسرق تحركاته، أمشي خلفه مثل ذئبٍ مقطوع.. أغريه بالألعاب والسكاكر والأغاني التي نحبها، أقرصُ في زاوية المكان وأنتظر أن يراني، ولا يراني! وليس ثمة شعورٍ أكثر وحشة، أكثر غربة، أكثر وحدة، من أن لا يراني، من أن أجدني مقصية عن عالمه، ليس لأنه وليّ كما تقولُ خالتي، ولا لأنه الولد ابن الولد كما تقول جدتي، ولا لأنه اليتيم الجدير بكل حب إضافي، كما تقول أمي، ولا لأنه السوبرمان، كما أقول أنا، بل لأنه.. صديقي! كنت أفقد صديقي!

في ذلك المساء، وقبيل أذان صلاة المغرب، كنتُ جليوساً حول التلفزيون في غرفة الجلوس، باستثناءه هو، وكنتُ قد أعددتُ خطة لاختراقِ الحاجز الذي نبت بيننا، قرفصتُ في طرفِ المجلس، ونثرتُ أمامي أنواعاً من الككاو والعلوك وحلوى الخطمي التي يحبها، وجلستُ أنتظر.. كنتُ أنسى العنكبوت تنصبُ فحاخها، بخلافِ أنه لم يكن فريستي بقدرٍ ما كنتُ أنا فريسته! وظهر في طرفِ الحجرة، مثل جرد يتبع رائحة

جبنه، صفق قلبي، رأيتَه يمسح المكانَ بعينيه، وكنتُ - داخل عينيهِ - مثل مساند السدو والأشياء التي لا أهمية لها، ثم التقطَ بعينيه غنائم السكاكر والككاو والعلوك المصفوفة بأناقةٍ على الأرضِ أمامي، تقدّم خطوتين، مدّ يده وانتزع من لوحتي السكرية ضلعين أو ثلاثة، ثم مضى في سبيله دون أن ينبس، دون أن يلتفت، وربما دون أن ينتبه.

شعرتُ بالدماء تتدفق حازةً إلى رأسي، صارت يداي ترتجفان لوحدهما، كنتُ - بعد أسبوع من التجاهل والتغاضي - قادرة على أن أغضبَ منه، فذهبتُ وراءه، لأضربه، أو لأعاقبه، أو لأحتضنه! وجدته يقفز الدرجاتِ صعوداً، أربع فأربع، وعرفتُ بأنه ذاهبٌ إلى السطح، جغرافيا للعب التي تخصنا، أنا وهو، المكان الذي فيه أشعر باختلافي، وأحظى فيه بامتيازاتي الخاصة، ما الذي يفعله هناك وحده؟ لماذا لم يعد يناديني؟ هل عادَ إلى تحريك القصاصاتِ، وصهر الشموع، وتدشين المدن من أعوادِ الكباريت؟ أي لعبةٍ تنتظره فوق؟ أي لعبةٍ هذه التي ابتعلته تماماً، وغيبته عني، أنا شريكة اللعب المحرّم؟!!

عندما وصلتُ إلى السطح كان يجلس بين خزانيّ المياه الكبيرين، في الفراغِ الهزيل، وكان كلّ ما أستطيع رؤيته هو قمة رأسه، كان ينظر إلى شيءٍ ما بين يديه، وكانت جحافل من الذباب تدور وتطن فوق رأسه.. ارتجف قلبي بخوفٍ غامض، شعرت بروحي تغوصُ ثقيلة في بئر من الأسى الذي لا يمكن تفسيره، كنتُ أحزن مقدماً عما سيحدث لي، أحدس مقدماً بما سيحدث لي.. حتى تمالكْتُ نفسي وجسدي الذي استسلمَ لغريزة الخوفِ، التفتُ حول خزان المياه، وكنتُ مع كل خطوة تأخذني إليه، أشم رائحةً تشبه رائحة السمك الفاسد، تملأُ منخري وتدوخني، ولما عرفُ بوجودي التفتَ، ولم يبدُ عليه أنه انزعج مني أو فوجئ بي، وكأنه كان ينتظر أن أصل إليه، وأكتشفَ لعبته الجديدة.. وجدتهُ يجلس مثنيّ الركبة، متوكئاً على كاحليه، وأمامه صندوقٌ خشبيّ

مذهبٌ عرفْتُ فيه صندوقُ أمي غيضةُ "المبيّت" الذي تحفظُ فيه سجاجيد صلاتها وعشرات المصاحف الخضراء، كان الصندوق مقللاً وكان وجه الفتى في تمامِ خشوعه أمام لحظة التجلي الآتية، وبصوتٍ رقيقٍ شبه هامسٍ قال لي: قعدي مضاي! فجلستُ على يمينه، والصندوق الخشبيّ المُدَّهبُ أمامنا، والذباب فوق رأسينا، والدموع ملء عيني.. وبأيدي خبيره، رفع الرتاجَ عن الصندوق، وفتح الغطاء..

.. نفذت رائحةُ الفطائس إلى عمق منخريّ ورأسي، وأطلقت في فضاءات السطوح صرخة المفاجأة.. لثوانٍ لم يكن بإمكانني أن أسمع أو أرى، كان هجوم الرائحة مشلاً، نظرتُ إليه، واضعة يدي على أنفي وفمي، لأرى بذعريّ كم هو قادرٌ على أن يقصي نفسه عن الرائحة، عن أنفه، عن المكان، وعن كل حواسه! بعينين براقيتين راح يتأمل الصندوق السريّ الذي - (وصرختُ هنا أيضاً) - كان قبراً جماعياً لعشرات من جثث الحيوانات والعصافير: قطط، كلاب، حمامم، كناري، قيرات، عقارب، خفافس، فردات نعلٍ مسروقة، مفرقات، سكين سويسرية، بكرة خيط أخضر سميك و..

رأيتُ العصافير بلا مناقير والحمامم متوففة الريش والعقارب منزوعة الأذيال والقيرات مقلوبة الأعين والقطط ممدودة الألسن، رأيتُ فن الإيذاء غير المبرر، والتعذيب لمجرد التعذيب، رأيت ابن خالي يلعب لعبة الموت والحياة متألهاً يقرر المصائر، ينتزع أرواحاً، يعذب أرواحاً، يفتق أعينا وينتزع مناقيراً ويتف ريشاً ويخلع أجنحة ورؤوساً و.. تهاويتُ.. خارت قواي وقدرتي على أن أفهم أو لا أفهم، سقطتُ على ظهري ورأيتُ السماء تظلمُ والذباب يحومُ بجنونٍ فوق رأسي كما لو واحدة من قتلاه، شعرتُ بدمعة حارة تطفُر من عيني، تسيلُ بطيئة، تعبر ذقني وتم سيلانها الحارق على رقبتني، بحثتُ عن صوتي ولم أجده، حنجرتي جافة ومؤلمة، أردتُ أن أناديه، واختنقت برغبتي

في الحظة التي شرع يشرح لي - بحماسة منقطعة النظير - طريقته في تعليق العصافير والحماثم من أقدامها بحبل الغسيل ليتركها تجف موتاً تحت الشمس، وراح يخرجُ لي من قاع الصندوق جثّاً لقطط وكلاب ممزقة الجلد، ألسنتها مدلاة في وجوها، أعينها مشرّعة بذعرٍ تحديق فينا باستجداءٍ لكي نفهم حقيقة المأساة، وفرش الجثث أمامي على الأرض، ليتأمل كنزه المقدس، بما لا يمكن وصفه من الحب واليقين، يخرجها واحدة واحدة، يتفحصها، ثم يعيدها إلى الصندوق، بوجهٍ مفعم بالبراءة، ثم أقحم يدهُ في بطنِ الصندوق عميقاً، عميقاً، ومدّها في وجهي وفتح أصابعه على مهلٍ ليريني جثة صوص الدوري، وقد وضع داخل منقاره لفافة مفرقاتٍ صغيرة، ثم فجرها داخل فمه، ليطير منقاره في الهواء، ونبش بيده داخل الصندوق وأخرج شيئاً صغيراً لم أتبينه، وقال بأنه منقار..

ضمّ جثة الصوص إلى صدره برفق، مثل أمٍ تحتضنُ رضيعها، وقال - بكلّ الحبّ الذي يعمر قلبه - بأن هذا الصوص هو المفضل لديه لأنه يشبهني!

مع صرختي التي تفجرت في الفضاء، دفعتُ الأرض تحت قدمي بعيداً عن الصندوق وجثة الصوص وابن خالي، أدتُ إليه ظهري وركضتُ أبتعد، أنزل الدرجاتِ أربع فأربع، أنادي أمهاتي بأسمائهن: نورة وهيلة وشهلة ورقية، وعلى رأسهن جدتي، ركضتُ صوب إحداهن ودفنتُ وجهي في بطنها وأجهشت أبكي الرعب البهي الذي يجعل جثة الصوص ترقد بهذه الوداعة بين كفي قاتلها.. بدأتُ الأمهات في تشمم رائحة الموت في ملاسي، تجاذبني الأسئلة والأيدي، لم أنبس، وابتهلُ في أعماق قلبي لكي أنسى هشاشة جثة الصوص عديم المنقار، والبراءة التي لا تغتفر في وجه فهاد.

كانت تلك المرة الأولى التي أكتشف فيها وجهه البريء من بين وجوهه الكثيرة، الوجه الذي يستمد براءته من قدرته على الإيذاء، ومن حقيقة أن لا شيء يخيفه، بكيُّ الجثث، وجثتي من بينهم، وبكيُّ الموهبة الشيطانية التي تفجرت فيه فجأة: موهبة القتل، والاستمتاع بالقتل، بمتهى حسن النية!

صعدت النسوة إلى السطح، مستدلاتٍ بالرائحة والذبابِ وغريزة الموت، ليرين بأعينهن المجردة، الولد ابن الولد آخر الأولياء واليتيم المسكين والسوبرمان بعينه، يحتضن الجثث ويمسح على وبرها ويهددها في نومها، تجمدت شهلة واقفة، كان قلبها أضعف من أن تتقدم خطوة أخرى تأخذها إلى معرفة أعمق بالمسخ الذي أنجبته، واكتفت بأن ترمق الصبي من بعيد وكأنها تخافُ من اكتشافه، وكانت مرة أخرى - بجثتها الهائلة - تترنح، وبدأت خالتي هيلة - مولولة مذعورة! - تسأل فهاد عما فعله بالحيوانات المسكينة، ولماذا قتلها، ولماذا لم يتخلص منها طالما أنها ميتة، وأنا.. علقت في فستان أمي

وسمعتها تبتهل "علي!"، بكت فطوم وهي تدفن وجهها في جسد رقية،
التي تغطي فمها وأنفها بيمنها، بعينين مرتجفتين محمّرتين..

- هيلة خرّعتي الولد!

سُمعت جدتي تلجّ المشهد بصوتها المعدني الرهيب، قبل أن
يكتمل حضورها في المكان لتري ما رأينا، وكانت ما تزال تصعد
الدرجات.. كانت جثة العصفور عديم المنقار ترقد بين كفيّ فهاد الذي
يتأمل خالتيه فاغر الفاه، وعيناه الكبيرتان ترمشان باستمرار، وصلت
جدتي إلى المكان، ونادت على الصبيّ لتأخذه داخل جلبابها، ثم أمرت
الجميع بمغادرة السطح.

رفضت جدّتي أن تستدرج إلى هاوية الرعب معنا، ورفضت حتى أن ترى - في الوجه الجميل الذي تخيفنا براءته - وجه علي، وقررت أن تتعامل مع الأمر بمتهى العادية، وربما بشيء من الحياد المفتعل، حتى جرّتنا كلنا - كشأنها - إلى حذو حذوها، وصارت تردّد طوال أيام بأن الحق على هيلة لأنها أرعبت الصبي المسكين بصراخها، وبأنها بالغت في تهويل الواقعة، ثم زادت القول بأن الأمر عاديّ وطبيعيّ بالنسبة لطفل، وبأن هذي العصافير والقطط والكلاب هي أصلاً مسخرة من أجل الإنسان، وأن رغبته باختراقها واكتشافها دليل على صحة عقله وفضولهِ وشوقه إلى اكتشاف الوجود، وبأنه إذا كنا نتعاطف إلى هذه الدرجة مع ذلك "الصوص عديم المنقار" فخيرٌ لنا أيضاً أن لا نأكل الدجاج واللّحم، وربما من الأفضل أن لا نأكل حتى الخضار والفاكهة، لعل الأشجار تتألم بدورها في ساعة القطف، ولمجرد أن معاناتها غير مرئية لنا فهذا لا يعني بأن اقتطاف ثمارها لا يؤذيها، وخيرٌ لنا إذاً أن لا نأكل، أن لا نعيش، لأن هذه العالم كله يتحرك بموجب القتل، ويتطور بموجب القتل، وأنه إن دل الأمر على شيء، فهو يدل على أن الصبي يحمل في شرايينه دماء الفرسان من أجداده، التواقون إلى صيد الأسود وتربية الصقور! ظلت جدتي تتحدث هكذا، طوال الوقت، حتى عندما لم يكن ثمة من يستمع إليها، كانت تردد الأمر لنفسها على الأرجح، تظمئنُ قلبها بأن سليل الابن الوحيد ليس شيطاناً كما بدا لنا.

في مساء اليوم التالي، بعد أن عاد فهاد من المدرسة، أمسكت بمعصمهِ، وصعدت معه - ترافقهما رقية - إلى السطح، وطلبت أن ينقل صندوق الجثث إلى الحديقة، وأن تدفن كل محتوياته، سألتها رقية:

- في البيت؟

- ايه نعم.

- بس يمه..

تطيرت رقية من فكرة وجود هذا الكم الكبير من الجثث تحت أرض المنزل، ولكنّ جدّتي ردت ببساطة بأنها تصنع سماداً ممتازاً، وأصرت على فهاد أن يراقب مجريات الأمر: حمل الجثث، تفرغ الصندوق، والدفن، كل شيء، وكأنها تريد من الصبيّ أن يتعرف وجه الموت عن قرب: عندما نموت، يا صغيري، تعرج الروح إلى السماء، ويذوب الجسد في التراب، وتشتب أعيننا بالأعالي، لأنها تشيع انسلال الروح إلى فوق، أصرت جدّتي على فهاد أن يساعد رقية في الدفن، وكانت ملامح رقية مائجة بالهلع والنفور من رائحة الجثث الحزينة التي تستجدي نهاية لائقة، والذباب الذي يحتجّ فوق الرؤوس على مصادرة وليمته.

تعاطى فهاد مع الأمر بكثير من رحابة الصدر، وكان ذلك الصندوق - بكل ما فيه من رعب - لم يكن كنزه الذي عكف على جمعه أياماً، كان قادراً على التخلي عن الأمر، تماماً كما ترك لعبة تحريك القصاصات، ومن قبلها "الغميضة" و"الأرجوحة".. واثقاً من قدرته على العثور على "لعبة جديدة" تبتلعه في أغوارها، وأنا - التي تراقب مراسم الدفن من النافذة الفوقية - أتلصص على متعته الأئمة وأتساءل.. إن كان الدفن مسلياً بهذا القدر فعلاً، أم تراها قدرته الخارقة على الاستمتاع بكلّ شيء وحسب؟ كان ذلك هو الملمح الأكثر قداسة، ودناسة، في حضور فهاد، كان العالم برمته.. لعبته الخاصة، لعبته هو، وكنا نحن، وأنا، وجثة الصوص، جزء من هذه اللعبة.

انتهى فهاد من دفن الجثث، وبدا سعيداً بإنجازه الذي تم بمباركة جدّتي، لأنه أخذ يقفز ويصفق فوق القبور بسعادة، ابتسمت جدّتي ملاطفة، وقبل أن تدخل إلى المنزل لقتته وصيتها الوحيدة بشأن ما حدث:

- يا وليدي، المرة الجاية، إذا قتلت.. ادفن!

فاطمة

1

يلعب فهادي كرة قد الشوارع حافياً طوال النهار، وأنا أتفرج على لعبه من نافذة غرفة أمي، أراه يقطع الشارع ركضا مرتدياً البنطلون الرياضي الأصفر بالخطين الأسودين على جانبيه، والبلوزة البيضاء المهترئة، كان يلعب بالدشداشة أحياناً، يطويها ويربطها على خاصرته ويقذف بنعليه في الهواء، ثم يرفع عينيه إلى نافذتي ويهتف لي "فظومة! حفظي مكان (نعالي) لا تضيع!".. لأنه يعرف بأنني أستطيع أن أراقب كل شيء من أعلى، وأن أحرس أغراضه الغالية، وإذا ما أبدع في اللعب وأحرز هدفاً، سوف يرفع عينيه إلى فوق ويراني أهتف وأصفق "وه وه! فهاد.. وه!" وإذا ما انتصر هو وفريقه، فسأرقص من أجله رقصة النصر، وأقفز على سرير أمي، وأتقلب على الأرض بصفتي المشجعة الأكثر ولاءً لفريق الكرة الأكثر روعة، ومع كل لحظة أمضيتها أمام النافذة، أتتبع قدميه الحافيتين تجريان حرتين فوق لهيب القار، تركلان وتركضان، بقدر ما تمنيت لو كنتُ هناك أيضاً، أركل الكرة حافية، أركض في الشارع وكأن الشارع ملك لي.

عادت أمي إلى الغرفة، حاملة شقيقي الوليد بين يديها، لتجدني - مثل كل يوم - واقفة عند النافذة، أطل على قدميه الحافيتين وأحلم بالركل والركض..

- فطيم شتسوين عندك؟

- أشوف فهادي..

- فديته!

جلست على كرسيها الذي تسميه "كرسي الرضاعة" وراحت تفك أزرار قميصها بيد، وتهز أخي الرضيع بيدها الأخرى، تهدهدُ جوعه وتأوهاتة..

- عسى بس فريق ولد خالك هو إلي فايز؟

- ايه يمه! أربعة صفر..

- وفهادي حط "جول"؟

- حط "جولين" عجيبين!

- فديت قلبه!

ثم ألقمت ثديها للصغير وحلت ساعة الصمت، وفي الشارع المقابل للنافذة انفضج الجمع عن نصير آخر للفريق الأصفر ذي الخطين الأسودين، وارتفعت عيناهُ إلى عيني سائلة، هتفتُ له "فهادي نعالك عند باب بيت بوحسن!" ولم يعد مضطراً للبحث والنبش من حوله، تأبط نعلهُ ودخل من الباب الأمامي.

- فطومة شفتيني شلون حطيت "الجول" الثاني؟!

- ايه شفتك! حدك عجيب!

قذف بالكرة في الهواء مرة أخرى، محاكياً ركلته التي حققت الهدف، والتقت الكرة بكاحله مرة ثانية، ثم ارتطمت بالجدار، وارتدت لتستقر بين ذراعيه ببساطة مذهشة..

- وه وه.. فهاد.. وه! وه وه.. فهاد.. وه! هذا يقول (آه) وهذا

يقول (آه).. هذا الشيطان فهاد لا تلعب (ويتاه)!

هتفتُ له، وأنا أصفق وأرقصُ وألوح وأقفز في مكاني، هتفتُ

حتى اختفى صوتي ودخل هو إلى البيت..

- دخل ولد خالك؟

- فيها قبائل!

- يمه عفية!!

- إلي فيها إن إنتي بنت، وهو ولد، وإذا جيتي هالسيرة قدامي
بعد مرة والله لا أخلي أبوك يشوف شغله معاك.. فهمتي؟!
أوماتُ بالإيجاب دون أن أفهم.

ذات مساء، كنا جلوساً حول التلفزيون، نتفرّجُ على عبدالحليم حافظ وهو يغني لفاتن حمامة في "موعد غرام"، جلسنا متلاصقتين، يسكننا الحلم ذاته: ما أروع أن أكبر لأصير فاتن حمامة! ما أجمل أن يكبر ليصير عبدالحليم! ما أجمل أن نكبر لنحب بعضنا كما يفعلون في التلفزيون! في ذلك المساء، وعبدالحليم حافظ يغني، وأمي وخالتي منخرطتان في حوارية جادة عن مدى ملاءمة قصة الشعر لوجه فاتن حمامة، وشهلة التي ذابت أمام الشاشة، كما لو أن عبدالحليم حافظ يحبها هي (رغم أنه حتى لو أراد ذلك فلن يستطيع!) كنا قادرتين أخيراً على أن ننحاز لنفس الأبطال، وأن نحلم بنفس الحكاية الرومانسية، وكان الوجود بالأسود والأبيض، كنا متشابهتين كثيراً حتى عجزتُ أن أتبين أين ينتهي حلمي، وأين يتبدى حلمها، وبعد ساعة الغناء والحب، انتبهت أنوفنا إلى تلك الرائحة الغربية، تنسلّ خيوطها على مهل عبر مناخر أنوفنا وتستقر في بواطن رؤوسنا، كانت تشبه رائحة البصل: نفاذة ومزعجة، شممتها مرة واحدة من قبل، وأنا في طابور انتظار الكاشير في البقالة، كانت تبعثُ من إبط الرجل الواقف أمامي، رأيتُ أمي تكشر وتضع منديلها الورقي فوق أنفها متذمرة، ثم دخل فهاد إلى الغرفة، وهتفت أمي: ماني مصدقة! ماني مصدقة!

ثم التفتت إلى خالتي نورة وسألتها:

- تشمين؟

- أشم؟ فيه أحد ظل بالفريج ما شم؟!

- يا بعد هلي وطوايفي يا فهاد! كبرت! كبرت!

عندها تركت كل أم من أمهاتنا ما بيدها، والفيلم وعبدالحليم وفاتن حمامة، وأخذن يزغردن ويضحكن بجنون أفرغني، كانت الرائحة

تنبعث من إبّطيّ فهاد! خلعت أمي عنه قميصه وراحت تشمم موضعيّ إبّطيّه وهي تغرق بالضحك، ثم ألقّت بالقميص على شهلة هاتفة "شمي عرق ولدك يختي!"، وبدأت شهلة في تنشق القميص، وسط ذهول ابنها، وانغمست في الأمر طويلاً حتى خيلَ إلينا أنها تتذكر شيئاً، ثم انتزعت خالتي نورة القميص من شهلة ودفنت أنفها في كمّه، ثم أطلقت ثلاث زغاريد متتالية وهي تركض بالقميص إلى المطبخ، حيث أمي غيضة تعد العشاء ورقية، وهتفت جذلة: عرق الولد!

تبعتها راكضة لأرى جدتي وقد تهلل وجهها بتباشير ابتسامية لا مثيل لها، كنتُ ومضاوي نراقب المشهد بدهشة وقد أصابتنا عدوى الفرح الذي عجزنا عن فهم أسبابه، هل يبتهج الإنسان برائحة عرقه؟ حتى فهاد، تسمر وسط الغرفة بابتسامية بلهاء وهو يلاحق ضحكات أمهاته بعينين مشدوهتين، ثم تقدمت منه رقية ورفعت ذراعه اليمنى في الهواء لتفحص إبّطيّه، مرددة عليه "شغل عدل يا ولد! صرت رجال" .. تقدمت أمي مني وغمست وجهي في قميص فهاد وامتلاً منخري برائحة كريهة.. وأخذت تكرر "شمي عرق رجلك!" عندما انتزعت القميص من وجهي رأيت مضاوي تتراجع إلى الخلف خطوات، تخاف أن يدفن وجهها في الرائحة الكريهة التي يحتفل بها الجميع، وفي تلك اللحظة هتفت رقية "شعرا! شعرا!" وركضت خالتي نورة لتشارك رقية سعادة عثورهما على شعرة وحيدة وشقراء وهزيلة في إبّط فهاد "ولد علي صار رجال" رددت أمي، ضمت خالتي هيلة فهاد إليها وهي تقبل رقبتها ورأسه، وغابت جدتي في غياهب فرحتها، وسكرت شهلة بالرائحة الشبيهة برائحة أمسٍ ميت، وركضت مضاوي، بكل وسعها، هاربة..

موضي

1

كنتُ أشرب الشاي مع جدّتي ورقية، وقد ملأتُ "الاستكانة" حتى منتصفها بالسّكر، ونصفها الآخر بالشاي الأحمر، ورحت أمضغ السكر بالشاي مستمتعة بتكسره بين أضراسي، (حشا نملة! طول الوقت "تقروش" هالشكر) عقت جدتي على عادتي السيئة في مضغ السّكر، وحذرتي رقية بأنني إذا ما واصلت مضغ السكر ومصمصّة السكاكر فسينتهي الأمر بي بلا أسنان، وسرعان ما انحرف الحديثُ إلى ذكر ما حدث قبل يومين، وراحت رقية تضاحك جدتي وهي تحاكي جنون نورة وهيلة أمام رائحة عرق فهاد، وجدّتي تستمتع إليها بوجهٍ رضيّ، عندها علقت بدوري، بأن الرائحة لم تعجبني، وبأنها تشبه رائحة الفطائس التي دفناها في الحديقة، وأنه من الغريب أن يتهيج المرء بانبعاث التئانة من جسده..

- لا عاد أسمعك تعودين هالكلام فاهمة مضاي؟

قالت جدتي، وهي تقرص زندي بإصبعيها، وأخفت رقية وجهها داخل تعابير مصمتة، انكمشت رقيتها داخل جسدها مثل سلحفاة عجوز، ثم نهضت بحجة أنها تريد غسل الأواني، وأنا أرمق جدّتي بتلك النظرة، النظرة إياها التي أتدرب عليها قبل النوم وأخبئها لهكذا مناسبات، ولكنها تجاهلتنني ببساطة وعادت إلى ارتشاف شايبها بوجهٍ منطقيّ..

كان ما قلته، على الأقل عند جدتي، ضرب من الزندقة، ليس فقط لأنني لم أبدي ابتهاجاً بأولى علائم تحوّل حفيدها إلى رجل،

بل لأنني كفرتُ برائحة جسده، والرائحة، كما تقول جدتي، هي ما يمنح الجسم حقيقته، وهي الفارق الحي الذي يفصل بين اللحم والبلاستيك، الرائحة هي دليل الحياة والاستجابة للحياة والتجاوب مع العالم، وجدتي، السعيدة أيما سعادة بحفيدها الذي يحتفي جسده بالحياة مع كل لحظة، ويتجاوب معها، لم تكن لتسمع لي بأن أحط من شأن ذلك، أن أسرق سعادتها، أن أسخر من عرق حفيدها، كان علي أن أحب رائحة فهاد، وأن أتشققها بملء رئتي، وأن أسمي عرقه مسكاً!

.. عندما عادت الرائحة إلى المكان تغامزَنَ وهن يرمقن شهلة مهثات، ولكنهن سرعان ما انتبهن إلى أن فهاد يلعب معي بحطب "الدامة"، ولم تكن له أي علاقة بالرائحة التي تفشت في جسد المكان، وكانت فطوم - العالقة ما بين الدهشة والحرج - هي الواقفة عند الباب، في انتظار أن يتم الاحتفال بها، كما هو مفترض، لولا أن..

- الله يخسك!

- وش هالريحة؟

- فطوم! كم يوم صار لك ما سبحتي؟!

رأيتُ فطوم تحمّرّ وتخضّرّ وتزرقّ وتشحب شفاتها، وكلما احمرت كلما تضرعت الرائحة في المكان أكثر، بكت فطوم صامتة، موجوعة، مطعونة في القلب تلممُ خبيتها وتداري عورة عارها، وهي تمرر عينيها على وجوه الأمهات الأربعة بكثيرٍ من الحيرة والألم، أسرعت خالتي هيلة تحمل ابنتها وتركض بها إلى شقتها.

قضت فطوم الساعات التالية في البكاء في بانيو الحمام، تحت دش الماء الحار، وأمها تدعك جسدها الهزيل بالليفة، وتفركُ إبطيها، وتعطر رقبته وصدورها بالبودرة البيضاء ومزيل العرق، وهي تردّد عليها بأن من المعيب أن يفرز جسدُ الفتاة رائحة كريهة، وبأن العرق للرجال وحدهم، وبأن جسد الفتاة ينبغي أن يكون عطراً على الدوام، لأنها أنثى!

انتظرت مرور الساعتين ثم طرقت باب غرفتها، وجدتها تلعب بالعرائس وقد سرحت شعرها في ضفيرتين نضرتين غليظتين، وارتدت فستاناً قطنياً ملوناً، وكانت رائحتها تشبه رائحة الليمون، ولكن وجهها كان متأكلاً من فرط الحياء، وخيل إليّ بأنني لو عصرتُ رأسها بين

يديّ لسال منه شلالٌ من البكاء، وبمجرد ما رأنتي، وعرفت بأنني لم آتي لأشمت بها، كان الشلال قد تفجر فعلاً، جلست بجوارها بصمت أنتظر أن تنهي بكاءها، ولما انتهى فعلاً أردفتُ قائلة:

- أمي حطت لي بودر.

- بيبي جونسون؟

- ايه.

- أنا بعد، أمي حطت لي بودر بيبي جونسون.

وتبادلنا الابتسام، كنا نحرص، رغم كل شيء، أن نفعل الأشياء نفسها وبنفس الطريقة.

- غسلت راسك؟

- ايه..

- أنا بعد ماما غسلت راسي بالشامبو..

- جونسون؟

- ايه، بيبي جونسون!

وصمتنا لبرهة، حرّت خلالها أيّ شيء أستطيع أن أقوله، حتى تجاسرت وأطلقت ملاحظة تافهة:

- ريحتك حلوة.

ولكنها، عوضاً عن أن تبتسم، بكت وهي تغطي عينيها بيديها، وأخذت تنشق وتشهق، وأنا أتأملها، وقد تسلت دمعة يتيمة من عينيّ، مسحتها بطرف كميّ، في محاولة لاستجماع شجاعتي لكي أتضامن مع موقفها، أمي غيضة قالت مرة بأن العرق دليل على حقيقة الجسد، أردتُ أن أعيد ترتيل كلمات جدتي، لولا أنني، بلغتي الطفلة، لم أستطع أن أجعلها تفهم..

- أُمِّي غِيْضَةٌ تَقُولُ العَرَقُ .. يَعْنِي ..

.. -

- يَعْنِي .. هُوَ يَعْنِي إِنْ أَحْنَأُ .. نَاسٌ ..

- نَاسٌ .

- مَوْ بِلَاسْتِيكَ، لَحْمٌ .. يَعْنِي لَحْمٌ!

أَخَذْتُ أَرْدَدَ: لَحْمٌ، لَحْمٌ .. بِيْلَاهَةِ، وَأَنَا أَقْرَصُ سَاعِدِي لِأَرْبِهَا
اللَّحْمَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، اللَّحْمَ الَّذِي يَتَعَرَّقُ، الْحَقِيقِيُّ، وَالَّذِي أَصْبَحَتْ
حَقِيقَتُهُ فِجْأَةً، مَصْدَرُ عَارِهِ ..

شهلة

كم وزنك يا خالة؟ كم كرسيّاً تكسرين في اليوم يا خالة؟ هل تستطيعين الجلوس في غرف انتظار الأطباء يا خالة؟ هل تبقين لساعتين متواليتين بدون أكل يا خالة؟ هل أستطيع أن أقفز فوق كرة الشحم في جسدك وألعب مع ابنك يا خالة؟ تلكزني الطفلتان بالأسئلة الإبرية، تثقبان البالون العملاق المعبأ بالهراء، واحدة عن يميني تقرص زندي وتشهق من تراكم الشحوم والتفافها حولي، والأخرى تمد يدها بتردد لتلمس الشدي الأسطوري الذي تصب فيه أنهار الجنة المزعومة، فيم أنا أختنق بي، في الكرسي الذي أجلس عليه منذ عشر سنوات، وأرى ولدي ينادي ابنتي خالتيه للعب في غرفته، ويغيب خلف الباب..

أتلصص - بشهوة آثمة - على سماعه الهاتف، لو أنها ترن! لو أن هذا اليتيم، يكف عن الوجود، جازفتُ مرة واتصلت، بحثتُ في الطرف الآخر عن صوت أمي، عن مغفرتها، ولما ردّ علي أخي أفلت السماعه في وجهه، في المرة الثانية سمعتُ صوت أمي، اختنقتُ باكية، سمعتها تسأل: من؟ شهلة؟ هفتتُ بها "ايه يمه!" وفي لحظة اختفى صوتها وظهر صوت أبي الغليظ يتوعدني لو أنني اتصلت، أفلتتُ السماعه من فوري ولعننتُ اليتيمَ والقطيعه..

- فطومة! مضايي! يله تعالوا!

ينادي متأففاً، تذهب واحدة إلى غرفته وتبقى الثانية الملعونة بالأسئلة .. ماما شهلة ليش خالي علي تزوجك؟! ابتسمتُ رغباً عني: كيف يستطيع عقلها ذو العشر سنوات أن يفهم كيف يمكن أن يقترن الرجل الأسطوري الوسيم، فتى القبيلة صائح المجوهرات وشهيد

الإحسان الإنساني، بي أنا؟

- روعي لعبي مع العيال مضايبي..

- وإنتي؟

- أنا؟ شفيني أنا؟

- تقعدين بروحك؟

وكان أحداً في هذا المكان الأصم انتبه لي فجأة، اغرورقت عيناى بالدموع وبصوت متحشرج أجبتهأ: روعي يمه روعي! كانت المرة الأولى التي ينظر فيها أحد إليّ على أنني إنسان، وليس كتلة شحم عملاقة. روعي يمه، رددتُ مراراً، فأنا، يا بنيّتي، وصفة ملائمة لزوجة! أراد خالك أشياء بسيطة أعطيتها له بإخلاص، أراد امرأة لا تسأله أين يذهب ومتى يعود، أراد امرأة تنظر إليه دائماً على أنه أرفع درجة، وهو معزز بالإمكانيات التي تجعله متفوقاً كإنسان، فكيف به كذكر؟ أراد امرأة مشغولة بالبيت، امرأة لا يثيرها العالم الخارجي، لا تحب الدراسة ولا يخطر لها أن تحظى بوظيفة، امرأة تريد غسل الصحون وقلبي البيض وتنظر إلى ذلك على أنه منتهى السعادة.. هل ترين كم أنا مليئة بالأسباب المقنعة لكي يرغب بي خالك؟ والأهم أنه أراد أن يتزوج امرأة مغفلة لا تشكّ بتحركاته لأنه يرغب بالجهد إن شئت، بالإرهاق إن شئت، فانتقاني بعناية، وكنْتُ ضربة موفقة فعلاً.. هاه! ضربة موفقة! وإن أردتِ أن تعرفي أيضاً، أنتِ ودبايير أسئلتك.. فأنا لا أحب حياتي هنا، لا أحب أحداً، حتى ابني المشاع المتشظي بين ثلاث أمهات وجدة متسلطة.. لم أحبه كما ينبغي لأم، لم أشارك في حياته كما ينبغي لأم، لم أقم له "حفلة التفوق" لأن جدتك فعلت ذلك، لم أشر له لعبة لأن جدتك اشترت له كل ألعاب المحل، لم آخذه إلى الطبيب لأنها ستقول.. شهلة يا عويتتي ارتاحي إنتي وش يقومك من مكانك يا قلبي قومتك صعبة، أنا آخذه الطبيب! لم أفعل معه شيئاً

خاصاً يخبرني بأنه ابني، باستثناء أنني أتيت به إلى هنا وأنا أتساءل كيف كانت ستصبح حياته لو لم آت، وأنا أراه يتحول في كل يوم بين أياديكن إلى نبي وولي وبطل ومجرم يعذب الكائنات البريئة، روعي يمه روعي، روعي لعبي، فأنا غبتُ عن الرغبة والألم، غبتُ عن كل شيء باستثناء إحساسي بالقبح، جدتك تخاف علي من الحب والحياة، جدتك خبأتني خلف حجاب كثيف وأنا تواطأتُ معها لأنني ما عدتُ أرغب بمشاركة حياتي مع أي رجل، لم تكن جدتك بحاجة لأخذ كل هذي الاحتياطات، فامرأة مثلي، لا تشعر إلا بالقبح والغباء لن ترغب برجل ولا حتى بظل رجل.. أريد أن أكل وحسب، أن أهدهد خيبي بالأكل، لأن الأكل لا يرفضني ولا يتجاهلني ولا يستغفني ولا يتخلى عني أبداً، ويوماً ما سأموت من فرط تكدس الشحم على قلبي، سأنفجر مثل كرة من الدهن.. أتساءل منذ اللحظة كيف سأحمل إلى قبري وكم سيكون حجمه ومن سيتولى غسلني وتطبيبي.. ولكنني لن أكثرث لما ستعانونه أبداً، سأكون وقتها قد انسلتُ خارج اللحم في خيط رفيع، رفيفييع.. وسأصعد خارجاً ولن ألتفت..

- ماما شهلة! ماما شهلة! شفيك تبكين؟!

- خليها مضاي هي دايماً "جذي"!

آه، كم أنت محق يا ولدي.

رقية

كان السأم قد تسرّب إلى المكان وعبأه، والأمهات الثلاث بدين - تلك اللحظة - كارهات لكونهن أمهات، حتى أنهن عجزن عن الجلوس، فتمددن على الأرائك، تناوب أيديهن عن صحن المكسرات ولا يُسمع في الخواء إلا طقطقة تكسر الفستق بين أسنانهن.. في ذلك المكان، تبدو الأمومة بالضبط بمثابة حجاب يقف بين الأم وبين الوجود، الحجاب الذي تسمّيه أبناءها، أو لنقل بأن الأمومة تبدو مثل حجاب يقف بين الأم وبين أبناءها! تتأب شهلة ثناؤباتها المتلاحقة، فهي تتنفس من خلال الثاؤب مؤخراً، كل مرة تفتح فمها، تخبرنا بأنها قادرة على فتحه أكثر من المرة السابقة، كل مرة تفتح فمها، تطفر من عينيها دموعاً أخرى، شهلة تبكي وتتنفس من خلال الثاؤب، هيلة تقلب قنوات التلفزيون، وكأنها تتأب من خلال أصابع يدها، نورة تتملى في وجه الجريدة مراراً دون أن تعثر على خبر تكثرث له حقاً، كان مرآى الأمهات كئيباً، وتسرب السأم إلى الصغار حتى فاض بهم الأمر، فانتقلوا إلى التناحر حول لا شيء، وصار الثلاثة يرمقون بعضهم البعض بكثير من العدا، باحثين عن أسباب للخصام، أي شيء من شأنه أن يفضي بهم إلى خارج معقل الاختناق والثاؤب، أي كوة سحرية تفتح في الحائط وتأخذهم إلى زمن آخر حيث كل أم سعيدة بحياتها، وبطفلها، كان ذلك في يوم الجمعة، وكان الثلاثة قد فرغوا من واجباتهم المدرسية وتأهبوا لنزهة عائلية انتظروها لشهور، حديقة أو ملاهي أو أي شيء، ولكن ناموس الجدة الذي ينص على أن الأسر الثلاثة ملزمة بالخروج معاً لكي لا يشعر الأبناء بالفرقة، والقانون الخفي الذي ينص على الأسر الثلاثة أن لا تتفق في رغباتها أبداً هو

ما انتهى بهم إلى هكذا حال، كما في كل عطلة، ومع تتابع التثاؤبات والصمت والقنوات الفارغة من مسلسلات الكارتون اقترحت فطومة أن يصعدوا إلى غرفتها ليلعبوا هناك.

شهلة

1

.. يا يمه كنا نلاعب العيال، والله ما قصدنا شي.. جهال ويلعبون بالمكياج.. ودهم يفرحون اليوم عطلة.. يمه فهاد بعده صغير شالمشكلة لو رقص ورقصنا معاه؟ رقصنا لها المبررات، طوابير من الأسباب، عشرات من الاعتذارات، ولم يكن ذلك كافياً، ولم يسبق لي أن رأيت غيضة غاضبة إلى هذه الدرجة، وجابهت ابنتها بداية:

- اهرجوا بعيد عن ولد علي.. فاهمة إنتي وياها؟

هزت البنتان رأسيهما، ثم انصرفت كل واحدة حاملة ابنتها بين يديها، وسُمع همسٌ وهسيس.. ثم بقيتٌ وحيدة، أنا وعينيها الحجريتين، والرَّعب الذي استوطنني، والبردُ في أطرافي، وفتحت فمي مجاهدة لكي أدلي بدلوي من الاعتذارات، لكي أدفع لها ديتي من الأسف..

- يمه..

- ولا كلمة! ولا كلمة!

- الله يخليك يمه لا تزعلين علي!

- "جب" ولا كلمة! ولا كلمة! مابي أسمع منك شي.. إنتي

بالذات!

وظفقت تردد: إنتي بالذات! بالذات إنتي! بالتناوب.. وكأنها عالقة

في الكلمتين، وفجرت في وجهي وعيدها..

- علمن يوصلك ويتعداك يا بنت! أنا يوم إنني زوجتك ولدي

أمتك على ذرّيته، ويوم إنني ضفيتك في بيتي بعد ما توفى أمتك على

تربية ولده، وقلت أحسن ما أحرم الولد من أمه، أضفهم عندي هم
الاثنين..

- بس أنا شاللي سويته يا خالة؟!!

- إنتي تسكتين! تنظمين! إلي صار اليوم وبعلمك ورضاك دليل
ضعف نفسك وقلة عقلك، ولا فيه أم بالدنيا تخلي ولدها يلبس تنورة
ويهز وسطه مثل الحرير؟!!

- اسمحي لي يا خالة والله ما جا على بالي..

- حطيني على بالك عدل أجل! ولد علي أبوه رجال، وغصبن
عليه يطلع رجال، والله إن جا يوم وشفته "يتخث" مع البنات لا أذبحه
وأغسل بدمه حوش بيتي، وأتبرى منك إنتي وياه يا بنت الكلب..
فاهمة؟!!

هزرتُ رأسي إيجاباً، أمسكت بابني من يده وهربتُ به..

موضي

في ذلك اليوم قُلت دميتي. نحرتهما جدتي بسكين المطبخ كما لو أنها تذبج دجاجة، وسقط وجهها - الباسم - على بلاط المطبخ وهو ينظرُ إليّ، عندما صحتُ وركلتُ الأرض قالت بأن الدمى تطرد الملائكة من البيت، وبأن لا فرق بينها وبين أصنام قريشاً ولكن الحقيقة هي أنها لم تكن تمنع وجود الدمى، ولا حتى أصنام قريش، لولا أنها رأت ابن خالي يلعب معي فخافت على رجولته! وعندما تدحرج رأس الدمية على الأرض، بكثير من المأساوية الضاحكة، ثبتت حد السكين بين عيني فهاد الذي أصابه الخرس، وتمتت بكلماتٍ غريبة "اسمعي زين يا ولد علي! لو شفتك أو سمعت إنك تلعب بالعرايس مع البنات لا أكرّك بهالسكّين مع خرفان العيد! .. ثم برطمت بأشياء أخرى غريبة، بأنها ستخصيه وتريحه من رجولته إذا هو لم يقدرها حق قدرها، وأنا اكتفيتُ بأن وجهت إليها نظراتي المرعبة (التي أتدرب عليها قبل النوم وأخبئها لهكذا مناسبات) ولكنها لم تنظر إليّ، ولا إلى دميتي الذبيحة، كان الشيء الوحيد الذي يههما هو العضو المختبئ بين ساقَي فهاد، والذي راحت توجه إليه سكينها بين فينة وأخرى.

في مساء ذلك اليوم بكيّت دميتي في حضنِ أمي، وأمي تمسحُ على رأسي بأصابع متشنجة وتلوم أبي: مو قلت لك نطلع من هالشقة أحسن؟ كان أبي ممدداً على الأريكة بدشداسته البيتية المخططة، و"القحفية" فوق رأسه والجريدة بين يديه وكيس من "الحَب" المملح على يمينه، بمعنى آخر، كان مرتاحاً جداً، ويشعر بأنه أوتي كامل نعيمه الدنيوي: جريدة وكيس "حَب" ودشداشة صيفية وتكليف مركزي، بعد ساعاتٍ (عمله) الطويلة في وزارة الأشغال، كان أبي يذكرنا - أمي وأنا -

بالتعب الذي يناله من العمل في الوزارة، والجلوس الأبدي على نفس المكتب لسبع ساعات ونصف، يتصفح الجرائد والمواقع الإلكترونية ويلعب "السوليتير" .. لم يكن أبي يفعل شيئاً لأن الحكومة ليست بحاجة إلى خدماته، ولكنها تهبه بطيب نفس راتباً شهرياً ومكتباً وتليفون أرضي واتصال انترنت مجاني، الأرجح أن أبي لم يخلق للعمل بأي حال، لأن مجرد وجوده في مكان واحد، مع اتصال انترنت مجاني، وهاتف أرضي خاص، وجريدة و"ساندويتش" الفلافل كفيلاً بإرهاقه، ولهذا السبب يعود إلى البيت نكد المزاج، ويطلب بمجرد دخوله من الباب أن نتركه وشأنه، مع جرائده وأكياس المكسرات ودشداشته القطنية، لكي يرتاح من راحته السابقة ويستعيد نشاطه!

نفخ أبي في وجه أمي: لا حول ولا قوة إلا بالله، تبيني أطلع من الشقة وأدفع من جيبي كل شهر 350 دينار، عشان عروسة بتتك؟

- مو عشان العروسة! عشان سعادة بتتك وراحتها!

- بتتك ما فيها إلا العافية.

قالها بكثير من اللا مبالاة، وعاد يتصفح الجريدة، وخيل إلي بأن أمي ستنفجر، وأنها اكتفت من البلادة التي يتعاطى فيها مع كل ما يخص أسرته، فارتفع صوتها أكثر: إنت ليش مو حاس بالمشكلة؟

- ألحين مو إنتي إلي قلتي ننتقل لعمارة أمك من الأول؟

- يعني أنا كنت أدري إن الوضع بيكون جذي يوم قلت لك؟!!

- خلاص اشتري لبتتك عروسة ثانية..

- بابا أنا مابي عروسة ثانية! أنا أبي "جيزان"! (صحّت وأنا

أبكي)

- جيزان؟ شنو جيزان؟!!

- جيزان عروستي بابا!

- هذا اسم عاد؟
- البنت تسمي عروستها بكيفها! (تبرمت أمي)
- خلاص اشترى لها عروسة ثانية وخليها تسميها جيزان..
- وأمى؟
- خلي العروسة في الشقة عشان أمك ما تكسرها.
- المشكلة مو في العروسة! المشكلة إنني كرهت هالعيشة خلاص! (انتفضت أمي)
- تأفف أبي:
- إنتي ما تقولين لي شمشكلتك؟
- مشكلتي؟ يعني ما تدري شنو مشكلتي؟ ماني قادرة أبوس بنتي! ماني قادرة أشتري لبنتي! ماني قادرة حتى أحمل! ماني قادرة!!
- وبدا البكاء يتواشج مع صوت أمي في تلك اللحظة..
- شنو علاقة الموضوع بالحمل؟ مو إنتي إلي تاخذين هالحبوب عشان ما تحملين وتقولين بنتي صغيرة؟
- يعني تبيني أحمل عشان أجني على عيالي بهالعيشة!
- عيشتنا أحسن عيشة..
- إنت ما تدري! عمرك ما دريت ولا حسيت وحتى كنت جزء من حياتنا! (أجهشت أمي)
- إنتي خليتي شي شين ما قلتيه عني بهالخمس دقايق!؟
- هز رأسه وأخذ يحوقل بينه وبين نفسه، ثم نهض من مكانه، وألقى بالجريدة من يديه، مواجهها الباب يعتمز الخروج، وقبل أن يغادر التفت على أمي وأصدر حكمه:
- مشاكلك مع أمك حليها مع أمك ولا تدخلينها بيننا، آخر مرة

أسمح لك تتكلمين معاي بهالطريقة، وإن كان على بتك اشترى لها
لعبة غيرها.. وإلا تدرين؟ أنا سامع فتوى تقول إن الباربي حرام،
خلاص خليها تتعلم شي أحسن من العرايس، خليها تدرس رياضيات،
كود تطلع مدرسة نفسك وتساعد رجلها بالمعاش!

نورة

.. ما الذي أريده منها، وأنا أتوسد كفيها الصغيرين، بالغي الهشاشة، لأبكي؟ كيف انتهى بي الأمر في سريرها، وجهها مقابل وجهي، وجهها وجهي مطروحاً منه آثار الزمن ولوثة الألم ولدغات الخيبة المحتشدة على وجنتي مثل جيوش جرارة من الشامات والنمش، رأيتها طوال الليل تمتص وجهي بعينها الكبيرتين، تبتلني إلى داخلها، إلى مكانٍ مظلم وآمن، إلى عالم طفولتها، وكانت تراني لأول مرة على حقيقتي، امرأة عاجزة ومخدولة، وهو أقل بكثير مما كانت تتوقعه مني، بصفتي تلك الأم الخارقة بموجب حجمها وسنها، القادرة على أن تفعل ما تريد، أن توجه حياتها إلى المكان الذي تريد، وأن تتخذ قراراتها بنفسها، كانت طفلي ترتطم بالواقع داخل وجهي، واقع الحياة القاصرة، والحقيقة الناقصة، والتحمل الاجتماعي والقوانين الجائرة و.. واقع الأنوثة في هذا المكان من العالم، وربما في العالم بأسره، واقع عجزني عن أن أنقذها (أو أنقذ نفسي) من حياة لا أريدها، كان كل شيء يتكشف، هناك، في أغوار وجهي وندباته، لتعرف الطفلة المستثارة بفكرة الوجود بأن الوجود غير مثير، وبأن الحياة مسرحية مكتوبة سلفاً، قررها الأجداد وباركناها بالطاعة، وبأن ليس ثمة متسع للركض والاكتشاف، فالمكان ضيق والزمن محدود، منذ المهد إلى اللحد، وأن المهارة تقاس بمدى قدرتك على أن تلائم القوالب، وتقلد الأموات، وتحتذي بالأقوال المأثورات وهكذا.. قرأت ابنتي في صفحة وجهي زمناً من الخذلان، ورأيتها تكبر، تخلع عنها طفولتها وهي تكتم صرخات ألمها، تنضج موجوعة، لأن العالم ليس مدينة ملاهي عملاقة كما تظن، لأن الحياة غير عادلة، وفي وجهي إياه، اكتشفت مآسي آخرين لم أكنهم، اكتشفت في

العالم وجوه الجوع، والحرب، والعدوان، والخوف، والوحدة، اكتشفت
الطفلة في وجهي وحدة المعاناة البشرية، مهما تلونت وتعددت أشكالها
وتمظهراتها، كنتُ البشر كلهم، وأنا أتوسد كفيها الصغيرين الهشين،
وأبكي احتشادي بالأشياء التي ما عدتُ أقدر على احتمالها، منذ الأخ
الذي لم يسمح لي بأن أبكيه، والطفلة التي لم يسمح لي أن أستأثر
بأمومتها، وحتى الرجل الذي كف عن أن يكون زوجاً، والذي بات
يجرجر ساقيه بمنتهى الحذر خارج فراشي وبيتي وطفلي وحياتي، كان
عليّ أن أسمح للبكاء بالحدوث، الانتفاضات القديمة التي تكدست في
جسدي بدأت تستيقظُ كما تستيقظُ الوحوش، تسح دمعاً سخياً، وأمام
انسحابه اللفظ من ساحة ألمي، ورفضه الصريح لمعالجة تعاسة زوجته
وابنته، وتهربه من أي نوع من المسؤولية، أمام كل هذا كان مسموحاً
لي أن أبكي بين ذراعيها، وأمام ذعرها، لتجد الصغيرة نفسها مضطرة
لأن تكبر عقدين من الزمن، "لتكونَ أمي، وأكون أنا طفلتها" ..

موضي

.. منذ ذلك اليوم صار موضوع تغيير السكن يطرح مكشوفاً أمامي على خلاف العادة، ثمة تواطؤ خفي يتولد بيني وبين أمي التي تعرف بأنني بت أعني ضرورة التكتّم على ما يدور في شقتنا، أعادت أمي طرح الموضوع على أبي مرة تلو الأخرى، تارة بالتوسّل، وتارة بالصياح، وتارة بالإغراء، رفض أبي الأمر بشكلٍ قاطع، وبطريقةٍ أو بأخرى غاب عن حياتنا، حتى لم يعد يرجع إلى البيت ليلاً، وصار - حسب تخمين أمي - يبيت ليليه في دواوين أصدقائه، والشاليهات.

لم يكن غياب أبي ليشكل ذات الفارق بالنسبة إلينا، وصارت أمي بمرور الأيام ترتاح لغيابه وتتوجس من حضوره، خاصة مع انكشاف الوجه البخيل من شخصه، كما كانت تسمّيه، ولكن الحقيقة كما أراها أنا أن الأمر لم يكن بخلاً أو هرباً من الإنفاق، لولا أن أبي قد كفّ منذ مدة عن الرغبة بأن يكون جزءاً منا، كانت حياتنا في الشقة توفر له كل أسباب الاختفاء وأعدار الغياب، كأب وكرّب أسرة وحتى كمعيّل.

كان أبي طوال عشر سنوات أبعد ما يكون عن معاناة أمي، حتى مع إلحاحها وشكواها عما تعانیه بسبب قربها الشديد من جدتي، فعندما كانت أمي تشكو من قوانين جدتي ومن اضطرارها لتشريط أمومتها لثلاثة أجزاء، ومن الرعب الذي تعانیه لو خصتني بأي امتياز تعتقد بأنه من حقّي، كان والدي يرّد ببساطة "يعني شالمشكلة لو بستي فطومة وفهاد؟ بوسيهم!" كانت المشكلة في نظره تنتهي بهذا الحل البسيط، وعندما كانت أمي تخبره بأنها عاجزة عن شراء ملابس لي لأن مالها لا يكفي لمضاعفة المبلغ ثلاث مرات، كان يطلب منها ببساطة أن تتخلى عن عاداتها المسرفة وتذهب إلى المحال الرخيصة، ويردد عليها بأن أسماء

المحال التي تبيع البيجانات بدينارين، ولبضعة أشهر، راودتنا الشكوك بأنه متزوج من أخرى، وبدا ذلك منطقياً لأنه كان شديد التحفظ إزاء النفقات في حين يفترض بأنه يعيش في بحبوحه نظراً لهذه المعيشة المجانية في كنف جدتي، خمنت أمي بأن لديه امرأة أخرى وشقة أخرى تمتص أمواله وبأنه يرفض الانتقال من هذه الشقة لأنه لا يستطيع دفع نفقات شقتين وامرأتين وأسرتين وربما طفلتين؟ لم تنزعج أمي من هكذا خاطر، ولم تكثر بما يكفي لكي تبحث في جيوبه أو في أي من أغراضه، ثم حدث أن جاء إلى الشقة يوماً لتناول الغداء فسألته مباشرة إن كان متزوجاً من أخرى، رفع عينيه إلى عينيها وردّ ببساطة "لا" .. ثم عاد إلى لقمة الأرز العالقة في يده وتجاهل دواعي السؤال، اكتفت أمي بأن صدقته لأنها تعرف بأنه من أولئك البشر العاجزين عن إقامة علاقات مع غيرهم، وبأن تدشين ارتباطات زوجية أخرى سيكون حماقة بالنسبة إلى رجل بمثل ذهنية أبي، كانت أمي قد قررت أن تخرج أبي من عالمها، وكان أبي سعيداً بقرارها، سعيداً بحرية الغريب الذي يعيش في نزل ويحتاج إلى ملاطفة المالكة أحياناً لكي تطهو له عشاء بالسمن الجيد، كان يسأل أمي عني في حضوره كما لو كنتُ أنا الغائبة.. شلون البنت؟ عسى شاطرة في المدرسة؟ وكانت أمي تنوب عني في الرد دائماً، وكان يضع يده على كتفي أحياناً، وأشعر وأنا أنظر في عينيه بأنه يبحث في داخل قلبه عن شيء ولا يجده.

كفت أمي عن المحاولة مع أبي، سواء لإصلاح العلاقة المفتعلة أو لإقناعه بالبدء في مكانٍ آخر، وفي اللحظة التي قررت فيها أن أبي قد خرج من عالمها، قررت أيضاً بأنها صارت رجل البيت، وصرت كثيراً ما أسمعها تلقن أبي ما ينبغي أن يكون وما لا ينبغي، أريد أن أصبغ الجدران بالأزرق، أريد أن أخصص هذه الزاوية لحوض أسماك بحرية، سأشتري لمضاوي قطة.. وكثيراً ما رأيته يهز رأسه إيجاباً، فهو لا يمانع طالما أنها

لا تطلب منه مالأ، صارت أمي قادرة على التأخر خارج المنزل، وعلى زيارة صديقاتها، وعلى الجلوس في المقاهي، واشتركت في نادٍ رياضيّ، وحازت على عضوية في إحدى جمعيات النفع العام الثقافية، وانخرطت في سلسلة من دورات التنمية والتطوير الذاتي والبرمجة اللغوية، الأمور التي لطالما رغبت بها وأجلتها أو ضححت بها من أجل علاقة زوجية مثالية، عادت أمي إلى حقيقتها التي تغاضت عنها بحجة أنها زوجة وأم، وكان الشيء الوحيد الذي لم تحصل عليه هو طلاقها من أبي، وهو ما رغبت به خفية، لولا أنها خشيت إن هي تطلقت أن تظل عالقة في "بيت العائلة" إلى الأبد، وليس ثمة ما يخيفها أكثر، من أن تبقى هنا، تحدد في صمت الجدران وتحسد النوافذ.

وطوال تلك الأيام، كنا قادرتين على أن نضح، سهرنا الليالي بطولها، نقرأ دواوين الشعر ونتفرج على الأفلام الأمريكية والهندية ونتجاذب أفكاراً عن الحب والحرية، وعن الله والمطر، رسمنا لوحة عملاقة لبيت الأحلام الذي سنحظى به يوماً ما، بيتٌ بحديقة باهية يطل على بحرٍ كرسالي، وتطله سماء بنفسجية، وكنتُ في طرف اللوحة أفق، حاملة دميتي، وقد كتبتُ فوق رأسها كلمة "جيزان" ..

أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ
(ثَلَاثُ سِنَوَاتٍ.. وَلَمْ نَسْكُرْ!)

رقية

﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾

1

هل متنّ وبقيتُ؟

.. أم متُّ وبقينَ؟

لم أشعر قط بأنني لا أنتمي إليهنّ إلا عندما متنّ وبقيتُ، أو متُّ وبقينَ، أياً كان ذلك الشيء الذي حدث، والذي ظلّ يحدث طوال ثلاث سنوات، فيمّ أنا أحاول أن أجد لنفسني كذبة أصدقها، أو ظلّاً أتبعه، أو وهماً أستमितُ في سبيله، ولكن العالم حينها كان في أكثر حالاته صدقاً.

لقد غبنَ مع ذهابه، غبنَ في ذهابه! قلنّ بأنهن لا يستطعنّ تجربة الحزن ذاته مرّتين، وببساطة مخيفة: غبنَ! وكأنّ الغياب كان خيارهنّ منذ البداية! وكأنهنّ ملكنّ أبداً تلك القدرة الأزلية على الكفّ عن الوجود، ولم يفعلنّ، بدافع الأمل وحده: الأمل المغشوش!

ولما غبنَ، وانقرضت من معالم المكان جملة الأصوات والروائح، وصرنّ يجلنّ ممرات البيتِ مثل ثلة أطياف شاحبة، مثل أموات تجرب موتها مرة إثر مرة، وأرواح تكرر عذابها لحظة إثر لحظة، دون أن يلحظنّ بعضهنّ، أو أنفسهنّ، أو أي شيء / شخص آخر، بما في ذلك أنا! عرفتُ وقتها بأنني لم أنتمي إليهنّ قط! وبالنسبة لهنّ.. بالنسبة لبيتِ الأشباح الشاحبة، والشالات المهلهلة، والأحزان المترهلة، والعباءات السوداء التي تطوفُ في المكان وحدها، كان العالم قد تعطلّ، وكان

الزمن قد تقوّض، وكانت الأبدية تفتّرش لحظتها الوحيدة الواحدة حتى أطراف العالم.

البيت المأهول بالأمهاتِ أضحى مهجوراً بهن، فارقتهن أرواحهن لتبقى أجسادهنّ المنومة تتخبّطُ في تفاصيل المكان، تمعنُ في سيرها بين الغرفِ والصالات والزّياش، تبحثُ عما يشيرُ إليها، أو يستنطق وجودها، أو يستشرف آتيها، الأعين الزائغة تلاحق نقوش السقف وصدوع الحوائطِ والزواحف التي بدأت تعمُرُ المكانَ وتسيحُ في حناياه، الأقدام الحافية تطأ الأرضيات الرخامية دون أن تحدث صوتاً، الأجسادُ الضبابية تنسابُ في تعاريج المكان دون أن تحرّك الهواء، أو تثير الروائح، أو تستفزّ الفراغ، أو تخلخل الزمن، أي شيءٍ من شأنه أن يقنعك بأن ما تراه ليس حلماً آخر، كان الخدر ينسابُ في جسد المكان وكنّ سكارى، وكأنّ العائلة كلها ملكت - فجأة - تلك الموهبة الإلهية التي يملكها فتاها الوحيد، حين يسلم روحه عن جسده ويهيمُ في أثير العالم، فواصلن التحليق في وجود مفارق، ريثما يعودُ الفتى / النجم إلى مداره، لتعاود الأمهات / الكواكب إلى الطواف حوله.. تمجيده، عشقه، ولثم أصابعه، قررنَ ببساطة أن يعطلن حواسهن لكي يكون لمضيّ الأيام وقعٌ أقل، فهل كان؟

كانت أصواتهن قد زحفت إلى محاجرهن واختبأت هناك، وكانت أعينهن قد زاغت وأسدلت عليها حزن جفونها، وكانت نهودهن نافرة كما لم تكن قط، وقد امتلأت مرة أخرى بوجع أبيض يدمع خلف القمصان، كانت الضروع تبكي الابن الحبيب ابن الابن الحبيب، الأب داخل الابن والابن داخل الأب، لعبة الحضور في الغياب والغياب في الحضور، الخروج من القبر والانبعاث من الموت، التجسد والتخلق والميتات العظيمة، لعبة فهاد ابن علي وعلي ابن فهاد والحلقة التي ينبغي أن تدور إلى الأبد.

قلتُ سأخذ الطعام إلى شهلة، ينبغي أن تأكل المسكينة شيئاً! هي المتورطة بكل هذا النسيان المتواطئ، لم تأكل منذ ذلك اليوم، شهلة التي ما فتئت تتفجع وما انفكت تتوجع، لم يمهلهما الزمن كسرة لحظات لتتخفف من كل هذا الألم الذي نسج حضوره حولها في طبقة غليظة من الشحم، أخذتُ صينية الطعام إلى فراشها.. وجدتها عارية، مديرة ظهرها للباب، تجلس منكفئة على بطنها مثل غوريلا عملاقة، ظهرها عظيمة ومتغضنة ومخططة وطيات الشحم الغليظة متراكمة على جانبيها، ولما دنوتُ منها، رأيتها تضغطُ حلمة نهدها بيديها و- يا إله السماء - كان الحليبُ يسحُ من ثديها بترف، بعد خمسة عشر عاماً، كانت شهلة قادرة على الإرضاع! نظرتُ إليّ كالمسرنة، لم تكن تراني، ولا الأثاث ولا ستائر الشيفون ولا صينية الطعام، كانت قطرات الحليب تتجمع في راحة يدها، تجمعها قطرة قطرة، تكثرها في حصالة قلبها لحين عودته، لأجل أن تبقي على الشيء الذي كان يربطها - وحدها - به، الشيء الوحيد الذي لم تشاركها أو تقاسمها به أم متطفلة أخرى، الشيء الوحيد الذي كان ملكها هي، والذي تتبين به أن الفتى كان ثمرة رحمها، وسط تراحم

الأمهات وتكاثر الأمهات وتقاسم الأمهات، كانت وحدها تملك هذا الامتياز.. فهل هو حزنُ الأم ما يضحّ اللبن القديم في الضروعِ الباكية، أم تراها احتفظت بالحليبِ طوال خمسة عشر سنة؟

نسي الجميع أمر شهلة وكأن الفجيعة لا تخصها، وكأن المسلوبَ ليس ثمرة رحمها، انصرفت كل أم إلى عزلتها لتحزنَ على الولد بالطريقة التي تناسبها، وبقيت شهلة وحيدة، عارية، عملاقة، شبه عمياء، تحلب ضرعها وتدمدم بكلام لا معنى له، وضعتُ صينية الطعام على السرير أمامها ورحت أنبش في خزانة ثيابها أبحثُ عن ثوبٍ أكسي به عريها الفادح (الله يهداك يا شهلة! ليش مو لاسة؟!) تمتمتُ متبرمة وأنا أحمل إليها ثوبا، عندما عدتُ إليها كانت قد التهمت معظم ما في الصحن، وكانت عظيمة فخذ الدجاجة ما تزال في يدها، وهي تهزها في الهواء وتضحك أشباحاً لا أراها "ليش كلفتي على نفسك يمه؟ بقمة واحدة كافي! خلاص إنتي خذي واحدة وأنا واحدة! شفيك يمه شايلة الولد طول الوقت؟ مو زين تعلمينه على الحضن بعدين يتعود عليك! والله يمه إنك مخربة ولدي علي! أقول منصور، ترى مديرك إلي غائك هذا حمار! ما يفهم، اعذرني يعني..."

.. يفضحها جنونها! تردد أسماءهم واحداً واحداً، كان عليّ أن أفعل شيئاً لأجلها، لو جاءت الأسرة بعد كل هذي السنوات واستعادت الابنة التي تضخمت من فرط الألم، هل ستمانع غيضة بأي شكل؟ أم تراها ستسرّ بالتخلص منها مثل كومة قذارة، بعد أن استحوذت على ابنها، ربه وأنشأته.. دمّرتة؟ بحثتُ عن هاتف أسرة شهلة بين أغراضها، خمّنتُ بأنها تتصل بهم أحياناً، تمتص أصواتهم عبر أسلاك الكهرباء وتبكي، تلوت الرقم بأصابعي، وناجيتهم.. أختاً أختاً، أختاً أختاً، صرخ أحدهم في وجهي، شتمني كبيرهم، بكت واحدة في أذني، صممت أمها في كمدٍ وانتقلت السماعة إلى أبٍ مسعورٍ يتقن قذف الألفاظ

النايبة، ركبتُ سيارةَ أجرةٍ وطرقتُ بابهم، قلتُ هي ابتكم، رددتُ عليهم كلامَ القدماءِ عن الظفرِ واللحمِ، قلتُ بأنها ستفجر من الامتلاء، ستجن من الوحدة، قلتُ بأن الأمراضِ تراكمت على جثتها، حتى أنني صورتها بجهازِي الخلوي وأريتهم كيف تبدو فأغمضوا باشمئزاز.. تردد صوتي في فراغِ الشوارعِ، والأرصفةِ الموحشة، طرقتُ البابَ أياماً، حتى خرج إلي أحدهم وألقى في وجهي أوراقاً نقدية، قال خذها لشهلة ولا ترجعي إلى البيت وإلا بلغنا الشرطة، قال هي التي اختارت أن تهجر بيتها وتهين عائلتها وتلحق العار بأبيها وتدمي قلب أمها، هي اتخذت قرار عقوقها وهي التي تتحمل الثمن، وحيدة وعملاقة وعمياء، توصلتُ أكثر، أخرج هاتفه الخلوي من جيبه واتصل بالشرطة متوعداً، لملتُ الأوراقَ النقدية من تحت قدمي وركضتُ مبتعدة..

مائة دينار، مرمية بين قدمي، كانت الثمن الذي جنته شهلة عن حياة كاملة من تهميش الذات، بعد ألوان الحماقات التي أتت بها من أجل أن يشب الصغير في المكان الذي يهبه العلوّ والرفعة، في عالم الأم الكونية هذا، بعد أن فعلت كل ما يمكنها فعله لكي تلقي به خارج حقيقته وخارج عاره، لتأخذه بعيداً عن القتل والإيذاء والإرهاب، لتحميه من حقيقة أن أباه قد هجره وإياها من أجل أن يسفك دماء آخرين، بأن وجوده في رحمها لم يكن سبباً مقنعاً لإحلال السلام وحقن الدماء في العالم، بأن علي ابن فهاد لم يحب فهاد ابن علي بما يكفي لكي يحافظ على حياته من أجله، الأشياء التي ظلت تظن داخل رأسها، تصرعها وتصارعها، والانسلاخ المريع عن الأم والأب والأخ والعشيرة والقبيلة .. بعد كل شيء، كل شيء، تناساها العالمُ قصداً.

كانت شهلة في أكثر حالاتها انفصالاً وعزلة، حتى حزنها كان مشاعاً وقابلاً للمشاركة مع أمين آخرين، وابتتين آخرين، وجدة تصدّرت كل شيء بجدارة، حتى الوجع! وليأخذني الشيطان إن كنتُ

كاذبة! لم يطرق أحدٌ بابها أو يسأل عنها طوال ذلك الوقت، القديسة البائسة التي أنجبت نبيّ العائلة، رجل البيت، ذكر الذكور وفحل الفحول الولد الوحيد ابن الولد الوحيد، الأنثى التي حققت المعادلة المستحيلة! وكأنها لم تكن موجودة أبداً، وكأنها كانت ذلك الحلم الشاحب الذي رأيناه - أو خلنا أننا رأيناه - في قيلولَةٍ قليلةِ الشآن، كانت تحضر بصفتها تلك الضرورة التي تضطر الأسرة إلى التسليم بأمرها والقبولِ بها لكي يصبح مجيء الصبيّ أمراً منطقيّاً ووارداً، في ظل النواميس الكونية الرائجة، كان دائماً أمراً صحيحاً بالنسبة لهم أن يكون ابناً لعلي، ولكنهم تساءلوا دائماً إن كان ينبغي أن يكون ابناً لشهلة، أم أن أي أخرى ستفي بالغرض؟ فالصبيّ لا يشبه أمه، لا يحس بأمه، ويملك روحاً مشاعة مستباحة بين آلاف الأحضان التي تتهاوى على رأسه في كل دقيقة، ويعرف تلك المرأة الضخمة التي تصفر عندما تتنفس، التي يحتاجها لكي تنظف له أنفه، وتعديل من وضع بنطلونه على خاصرته، لقد منحها هذا الامتياز على أيّ حال، ويبدو أنها اكتفت بذلك، ولكنها في ذلك اليوم، بينما هي تدمع من ضرعها وحيدة وصامتة، وأنا أهزها من كتفيها ولا تراني.. (ولياًخذني الشيطان إن كنت أفترى عليها)، عرفت بأنها لا تريده الآن، إنها تريده وهو في أكثر أطواره ضعفاً وحاجةً إليها، تريده ملفوفاً بمهاده ينام على صدرها ويتنشق رائحة حليبها، هذا ما تريده الأم التي لم يمنحها ابنها الوحيد أي إحساسٍ بالكرامة.

من يصدّق بأن بيتاً يعجّ بالنساء الفارغاتِ يمكنُ أن يكون صامتاً إلى هذا الحد؟ بدا وكأنهن نسينَ كيف يكون الكلام، وكيف يُعملنَ الألسن والشفاة والحناجر، كنتُ عندما أُجذب إحداهن بين ذراعي وأهزها.. تهز رأسها وتمضي، تذرني وحيدة مع أسئلتي: ماذا سنفعل بخصوص فواتير الكهرباء؟ ماذا سنفعل بخصوص المكيف الذي تعطل؟ نغد اللحم، نغد الخبز، نغدت الحياة! لم يأبه أحدٌ للأمر الصغيرة التي تجعل الحياة تمضي، وكأن الأمر لا يهم، أن يستمر العالم في حراكه، وأن تواصل الأرض دورانها الغريزي، وكان عليّ أن أرتجل حلولاً، وأبتكر طرقاً، وأخترع أسباباً لكي تستمر الأرض في دورانها.

طرقت الباب على زوج هيلة واتصلت بزواج نورة لأطلب منهما المال، قلتُ هذه أسرةٌ منكوبة، عالمُ الأمّ هذا.. المكتفي بذاته والمنكفي على ذاته، يحتاجُ إلى رجلٍ يأخذه خارج حقيقته، هذا وقتك أيها الرّجل، تعال ولملم من حولك فلول النسوة المأخوذات بالحزن العظيم، تعال وافرش على الأرض "بشتك" وراكم عليه كراكيب الشظايا، والقلوب التي تكسرت بين أياديها، تعال! غيضة العجوز صارت عجوزاً مرة أخرى، استسلمت لنزلة الحزن والصمت وغابت في سباتٍ اختياري، تتمدد على ظهرها طوال الوقت، لا تنام ولا تستيقظ، لا تحلم ولا تغمض، أطرق بابها ولا تردّ، أطفأت حواسها حتى ما عادت تشعرُ بشيء..

حفتها التي تأخذها من مكانٍ إلى مكان، قدرتها الأزلية على الإتيان بالحلول، وتلك القوة الجبارة التي كانت تشدنا جميعاً إليها، التي تديرُ بها كل حاجيات البيت بمتهى القدرة والبساطة، تعطلّ وجودها وأصبح كل شيءٍ متروكاً لحلولٍ آتية وتدخلاتٍ عشوائيةٍ من قبلي، أصبح هذا

البيت الكبير كله مسئولية الغريبة، اللقطة، الابنة السوداء: أنا!

طرقتُ بابها في ذلك اليوم ولم ترد، سمحتُ لنفسي بدخول مملكة حزنها فلم تلتفت، لم تقدفني بوسادةٍ أو تهش عليّ بعصاها الخشبية، لم تتبه لوجودي، همستُ عند رأسها بخفوت "يمه؟ يمه؟" ولم تكن لترد، ليس لأنها لا تسمع، بل لأنها - ببساطة شديدة - ما عادت تكثرث بالقضايا التي أحملها فوق كتفي، رأيت وجهها بارداً ومصمتاً، عيناها موحشتانِ غائرتانِ مثل مغارتينِ من حزن، تأملتها طويلاً وأنا أتساءل أي لغزٍ هي، ولماذا يصعب علي - بعد كل هذي السنوات - أن أفكك شيفرة هذا الوجه، وهل يعقل أنني أقف أمامها الآن ولا أعرفُ أي نوع من الأحزان تخترق كبدها؟ تتزاحمني الأسئلة، يا أمي هل تتدمن للحظةٍ عليه؟ عليكِ؟ لو استطعتُ - على سبيل المعجزة - أن أجركُ زمناً إلى الوراء، هل ستعيشين الحياة نفسها؟ هل ستصادرين مصائر الآخرين بالحُب؟ هل ستراكمين ذريتك في قبر واحد؟ هل ستسرقين شهلة من عائلتها؟ هل ستعلمين الصغير لعبة القتل؟ هل ستقطعين أعناق الدمى؟ خبريني يا أمي، أيتها الغامضة مثل طلسم، هل تعرفين الآن، وقد حدث الذي حدث، بأنك أخطأتِ أم تراك ترقدين الآن، لكي تستعيدي قواك لجولةٍ قادمة مع قدرك؟ تراك تتسائلين عما ستفعلينه بعالمك وعالم الآخرين الذين يخصونك، قبيلتك الصغيرة، تسمحين لنفسك باستراحة المحارب، وهدوء ما قبل العاصفة؟ أمام وجهها، صمتها وغموضها عرفتُ بأنني لا أعرفها أبداً، جرجرتُ قدمي للخارج وقد نسيت لأي شيءٍ طرقتُ بابها، سرقنتي الذكرى..

لَمَّا التفتن حولها في ذلك اليوم، يعثرهن البكاء.. لماذا صمتت صمتها العظيم ولملمت ما بقي من وجهها وتجاعيد عينيها وأوجاع مفاصلها واختارت أن تختبئ؟ على خلاف ما توقعنا، على عكس السوبرمان الذي يعيش في داخلها والذي ينقذ الموقف دائماً، كانت

العجوز تعترف بعجزها لتغيب في خلوتها، والبتان تنحورانِ موجوعتين
وتناديان "آه يا علي! آه يا فهاد!"، والأرملة تحدد في الفراغ كالبلهاء
وتبتسم لأطيافٍ لا تراها، والحفيدتين مثل قطتين مبتلتين اختبأتا خلف
الأبواب واحتضنت الواحدة منهما الأخرى، بعد تلك الليلة كانت
الأصوات قد نفذت من الحناجر، والدموع قد نضبت من المقل،
وكان الحزن قد غدا تلکم الأجساد الهلامية التي تطوفُ في تعاريج
المكانِ..

هيلة غاضبة، ولكنها لا تعرف لأي شيء توجه كل ذلك الغضب،
 ولأنها لا تستطيع أن تلوم أحداً على شيء، فهي تلومنا على كل شيء،
 ولما أدركت عدم جدوى قذف الملامات في الوجوه الحزينة، قررت
 أن تصمت وهي تعض شفتها السفلى بقسوة مخافة أن تتسرب من بين
 أسنانها فلول اللعنات وجحافل الشتائم، هيلة ناقمة على قوى أكبر منها،
 وحكم إلهية لم تسبر غورها، وأقدار لم تستطيع التصالح معها يوماً،
 ولأنها لم تستطع التفوه بأي من ذلك، كانت قد بدأت في ضرب ابتهاجها،
 في كل يوم تقريباً، لكل سبب تقريباً، حتى صارت الطفلة تختبئ كلما
 سمعت صوت أمها، تهرب إذا تناهى إليها صوت عطسة أو شتيمة أو
 لعنة، تركض خارج بيتها ولا تعود إلا عندما يستتب الصمت ويحلّ
 الفراغ ويقرّ العدم، أو لا تعود..

كانت ذراعها مليئتين بآثار القرص واللدغ، تتزاحم على جلدها
 طوابير من الكدمات الحزينة، كانت مهلهلة وجائعة ومنكوشة الشعر،
 تتجول في المطبخ طوال الوقت لتنبش في أدراج السكاكين والشوك
 والملاعق .. يبدو أن كل أدوات الطبخ تثيرها، كانت تحمل السكاكين
 في الهواء وتلوح بها، وبدأت تخبو شيئاً فشيئاً وتختفي مثل الجميع،
 وأخذت تتحول إلى شبح ضئيل هزيل بظلال سوداء حول العينين
 وشعرٍ منكوش، في ذلك الصباح ناديتها.. تعالي أمشط شعرك فطومة،
 تعالي يا حلوة، تعالي يا ممشة، تعالي عند أمك رقية! ولكنها نظرت
 إليّ بكثيرٍ من اللا فهم، وفتحت ثغرها الصغير بمتهى الآلية وقالت..
 (عطيني أكل!)

صارت فطومة تنام في أي مكان وفي كل مكان، أعثر عليها في
 بانيو الحمام، على عتبة الباب، وداخل دولابي، تنام أينما خطر لها أن

تنام، وتأكل حيشما قدر لها أن تأكل، وتخافُ أن ترجع إلى البيت، حيث
الأم التي جننها الألم، تجول دهاليز شقتها ببطنها المتدلية إثر شهو
الحمل الستة، تضربُ الوسائد بالعصي وتلعنُ الغبار.

طرقتُ بابها مرة، أردتُ أن أخبرها بأن فطومة نامت عندي وأنها
بأمان، وبدا أنها لم تتبه إلى ما قلته حتى، ولم يثر اسم ابنتها في
رأسها أي ذكرى، كانت قد نسيها تماماً، ولما توجهت لزوجها أسأله
- متوسلة - أن يتدخل لأجل ابنته وامرأته قال: اعذريها.. الحمل أثر
على مخها! حتى أنها ما فتئت تردد اسمي ولديها الذين صادرهما زوجها
السابق، تشتم أبناء الجيران وترمي قطط الشوارع بالحصى! فتح عبدالله
محفظته ودس في يدي عشرة دنانير، قال بأنها لأجل فطومة، وبأنه من
الأفضل للبنت أن تمكث معي، أخذتها ومضيتُ.. فطومة يا ممشة
يا حلوة، تعالي آخذك إلى البقالة لنشتري لك خبزاً وجبناً، تعطيني
يدها الحزينة العامرة بالكدمات وتعبر معي الشارع، تمشي دون أن تأبه
لتمظهرات الوجود، كيف يمكن لطفلة أن لا تفتن أمام طابور من النمال؟
أن لا تبكي أمام جثة العصفور الذي سقط من عشه؟ أن لا تهتف للغميمة
التي تشبه الأرنب؟ كيف يمكن أن تموت الطفولة بهذه البساطة؟ كانت
تمشي لأنني أمشي، وتقف لأنني أقف، أضحت فطومة ذلك الظلّ الطفل
الذي أراه في أحلامي طوال الوقت، ولم أكن لأفهم لماذا التصقت بي
على هذا النحو، كان بوسعها أن تبيت عند ابنة خالتها، كان بوسعها أيضاً
أن تبكي في حضن خالتها، ولكنها لم تفعل، كانت مرتاحة معي، في هذه
الغرفة الحقيرة في ظهر البيت، وأزيز وحدة التكييف الملحّ، والتلفزيون
الصغير الذي بالكاد نفهم تلامس الصور التي يعرضها، في غرفة المرأة
الغريبة التي لم تمت عندما ماتوا، أرادت الطفلة أن تكون..

يا لسخرية قدرك يا غيضة! أيتها الأم الهائلة، حتى نواميسك
الصارمة لم تغلح في جعل هذه الطفلة أقلّ يتماً!

كانت تطرق بابي أحياناً، وتبدو - كشأنها - عاجزة عن التنفس، رازحة تحت وطأة اختناقها المزمّن، فطومة عندك؟ ايه عندي، زينة؟ ايه زينة، وتمضي.. حتى نورة تفضّل أن تكون الصغيرة معي، هي التي بالكادٍ تقدر أن تحمل هذا الصدر الثقيل الغارق بالهموم، وخطاطيف الخيات المتواترة على كتفيها.. بين ابنٍ تحنّ إلى طقطقة عظامه داخل صدرها، وأمٍ طاغية تقرر كافة المصائر، وأخٍ يجوسُ داخل صدرها إثر بكاء لم يسمح لها بتعاطيه، وطفلةٍ تصارع لأجل أن تدفع بها خارج العالم الوحيد الذي تعرفه، وزوجٍ قرر أنه لا يريد أن يكون زوجاً أو أباً، يمرّ بيته.. بما يشبه زيارة الغريب للغريب، يؤدي التحايا الذابلة ويمضي، بين إحساسها القسريّ بالنبذ، بكونها غير كافية وأقل مما ينبغي، وبين أمّ لها الهزيل بعودة زوجها بما يكفل لها ولابتها سقفاً وظلاً خارج عنجھية الأم الرؤوم، وبين توقها لأخيها، ووجعها على ابنه، وأسفها على أمها وأختها التي جنتها الألم، وأرملة أخيها التي أعماها المرض، كانت المرأة قد تمزقت تماماً! وإذا كان يمكن القول بأنها كانت أكثرهنّ وجوداً أو أقلهنّ موتاً من بعده، إلا أنها لم تكن أحسن حالاً من أيّ منهن، كانت تشظى وتتطاير في انفصاماتٍ متلاحقة، وانتهى بها الأمر إلى إدمان مضادات الاكتئابِ والحبوب المنومة.

لطالما خطر لي بأن نورة هي أكثرنا وضوحاً ومعرفةً بنفسها، الابنة الأكثر ثقافة والأوسع علماً والأبلغ طموحاً، التي اعتادت أن تحوّل كل حزنٍ إلى إنجاز، وكل خيبةٍ إلى فعل، وكل مصابٍ إلى درس، التي تجاوزت تجاهل الزوج وغيابه بالتحصيل والدراسة، وترجمت وحدتها ووجعها إلى سلسلة نجاحاتٍ كانت تعترّ بها اعتزازاً أبدياً رغم أنها لم تكن بذات قيمة لأم أو لأخت أو لزوجٍ أو.. لأيّ ممن حولها، هي

التي كانت تستبسل أبداً لتطلق روح ابنتها خارج قضبانِ الجَدّة، كانت تلزمها بأن تقرأ وتكتب وترسم، تجتهد لكي توجد لطفلتها ذلك المنفذ الخاص بخلوص الرّوح، كانت دائماً قادرة على ابتكارِ الحلول، عندما يتعلق الأمرُ بها وبابنتها، ولكن الأمر لم يعد كذلك منذ ذهب الولد، فهي - رغم استقلاليتها الظاهرية ووضوح تفكيرها المزعوم - تشتاق إليه بجنونٍ، تحتضن ابنتها لساعاتٍ وتبكيه.. تريدهُ، رغم كل ما كانت تردده بأن الأمومة المفتعلة ضربٌ من الاستحالة، بأنها لا يمكن أن تكون أمّاً لطفلٍ لم تنجبه، بأن الأمر الطبيعي هو أن تظل عمته المحبة لا أمه المكذوبة وغيرها، إلا أنها كانت تحنّ إلى مرآه، إلى شمه وتحسس جلده وتنشق قميصه، بدا وكأنها قد تلقت الضربة القاضية في ذلك اليوم، هي التي لم تنكسر لذهاب الرجل، ولا لغطسة الأم، ولا لفقد الأخ، انكسرت لغيابِ الابن الذي لم تؤمن به كإبن!

كانت نورة في أكثر حالاتها ضعفاً، وفقدت في وسط المعمة قدرتها على الإتيان بالمنافذ، على تحويل الحزن إلى وصفة نجاح، وتحويل الحبس إلى مشروع حرية، وتحويل المكانِ الموحش إلى كتاب قصصيّ ملون للأطفال، كل الدورات التي أخذتها في شؤون التربية والثقة بالنفس وتحقيق الذات والبرمجة العصبية وعلم الطاقة .. كل تلك الأشياء التي رددتها عليّ، كل الكتب التي راكمتها داخل أدراجي لكي أقرأها معها، كلها لم تنفعها اليوم، وبقدرٍ ما كانت هيلة غاضبة، كانت نورة ممزقة، تركّض خلف شظاياها المتطايرة وتنادي! حتى بات صعباً عليها أن تتكلم بدون أن تتأثّر أو تتعثّر أو تنسى ما تريدُ قوله، بات صعباً عليها أن تستجمع ذاتها وتعرفَ ماذا تفعل أو ماذا تريد، وفجأة وبدون أيّ داعٍ، كانت تقبض على رأسها بيديها وتجهش في البكاء، ثم تنسى في اللحظة الأخرى لأيّ شيءٍ بكت، ثم تذكر بأن عليها - مثلاً - أن تزور هيلة، وتنهض لكي تفعل ذلك، ثم ما تلبث

أن تتذكر بأنها لم تعدّ غداء ابنتها، وتنسى هيلة، وتنسى ابنتها، وتنسى
الغداء، كانت في بقعتها الصغيرة تلك تتكسر أمام أعيننا حتى لم يبق
من المرأة المسكينة إلا بضعة كسور..

مضى شهرانٍ دون أن أراها، تساءلتُ إن كانت تموتُ مثلهنّ، أم أنها تقرفص في زاويةٍ وحدثها وتذعر لغياب الأب وإدمان الأم وتلاشي الأقرابِ وذهابُ الصديق الوحيد؟ ماذا حلّ بتلك الصغيرة بعد الحادثة؟ تركتُ فطومة نائمة على سريري وعزمتُ على أن أزور الأخرى، أن أعرف إن كانت أمها المتشظية تحسن العناية بها حقاً، تطعمها حقاً، تذكرها حقاً أم لا.. دفعتُ الباب برفق، رأيتُ نورة تنامُ جالسةً نصفها السفلي على الأرض، ونصفها العلوي يتكئ على الأريكة، فمها مشرّعٌ على الآخر وأنفاسها ثقيلة، ويدها تمسك بعلبة أقراصٍ بيضاء، ناديتُ الصغيرة ولم أسمع رداً، بصعوبةٍ حملتُ الأم على التمدد على الأريكة، غطيتها بدثارٍ سريرها وانتزعت علبة الدواء من يدها، لم أكن أعرف ماذا تعني تلك الأدوية، ولماذا تجعل المرأة تنام هكذا، ولماذا صارت نورة تنام طوال الوقت، مضيتُ إلى غرفةٍ موزي، بهدوءٍ فتحتُ الباب.. رأيتها عاكفة على مكتبها الأبيض الصغير، منكفئة على نفسها، تصنع بجذعها الهزيل قوساً والقلم بيدها، تكتبُ في دفترها الأخضر الصغير سطوراً ما.. (مضاوي؟ شلونج يمه؟ شلونج حبيتي؟)

لم ترد، لم ترفع رأسها حتى، وكأنها لم تسمعي أو تلاحظ دخولي، كانت الغرفة تعومُ في الفوضى، وقصاصاتٌ كثيرةٌ من الأوراق ممزقة ومرمية على الأرض، وكان ورق الجدران قد تشوه بلطخاتٍ حبرٍ وقصاصد ممزعة كتبتها بخط يدها على جدار غرفتها، وكانت ثمة روزنامة عملاقة خطتها بالحبر الأسود على أحد الجدران بتبديءٍ بيومٍ ذهابه، اليوم الذي انقلب فيه عالمنا رأساً على عقب.. كانت الصغيرة تحصي الأيام في انتظار عودة صديقها، كانت تكتب وترسم وتغيب، وكان حزنها يتمرأ جلياً في كل ما حولها، حتى الدمية.. قصّت شعرها وصبغت

وجهاً بطلاءٍ أحمرٍ يشبه الدم، مزقت ثيابها ولطختها ببقع من الحبر، كانت تكتب اسمه على حواف الصفحات وكنت أتساءل إن كنت أقف أمام عاشقة، أم تراها فتاة تفتقد ابن خالها وصديق طفولتها وحسب؟ لم يكن ذلك واضحاً، كانت عشرات الكتب منتشرة في حنايا المكان، وعشرات اللوحات المرسومة بأقلام الفحم لأفواه مكبوتة وأيدي مقيدة، كان واضحاً بالنسبة لي على الأقل بأن الطفلة تحولت إلى فنانة، فنانة مجنونة ربما، أو على وشك، وكانت في لحظة دخولي متورطة بإحدى لحظات التجلي تلك التي تأخذ المرء إلى عالمٍ آخر، وحتى عندما وضعت يدي على رأسها أصرت أن تتم كتابة ما تريده قبل أن تلتفت إليّ، وأمَامَ إلحاحي وأسئلتي ردت بنبرة متبرمة:

- أمي نايمة.

- شفيها أمك؟ مريضة؟

- لا..

- شنو هالدوا إلي تاخذه؟

- مادري.

ثم وضعت القلم من يدها والتفتت أخيراً.. لتتنظر إلي، لأرى في عينيها مئات السنوات التي تنسكب في روحها مع كل لحظة وتجعلها أكثر كهولة من أي شخص أعرفه، ما الذي حدث لهذه الطفلة؟

- إنتي شلونك مضايوي؟

- طيبة.

- تغديتي؟

- إيه..

- شنو أكلتي؟

- توست.

- أمك سوت لك؟

- لا أنا.

- إنزين وأمك تغدت؟

- مادري..

- ما تبين شي؟

- لا.

كان واضحاً لي أنها تريدني أن أنصرف، أن أتركها وفوضاها

بسلام..

- تعالي زوريني إذا بغيتي، ترى فطومة عندي.

لم تكلف نفسها عناء الرد، كانت قد غابت مرة أخرى داخل القلم
والورقة، أغلقت من دوني الباب، تركتها وطريقتها الغريبة في الموت،
وأنا أشعر عند مغادرتي بأني كنت في حضرة روحٍ سحيقة، بلا قاع.

في الثاني من أغسطس لعام 1990، تعثرتُ - أنا رقية من أبٍ وأمٍ مجهولين - بالعائلة الوحيدة التي حظيتُ بها طوال حياتي. كنتُ أقطع الشارع ركضاً ووابلاً من الرصاص يخترق وجه السماء والأرض، كان الوقت دخاناً وذعراً، وأنا، الهاربة من عالم مجنون، بأعوامي التي لا تتجاوز التسعة، أو العشرة، أو أيّاً كان.. أركض في الشوارع، ومن حولي قطعان من الغزلان والخراف والماعز الهاربة من حظائر أسيادها..

كنتُ أركضُ، وحيدة وذعري، حتى رأيتُ سيارة جيمس حمراء تقف في الشارع أمامي، وانفتح باب، ورأيتُ برقع غيضة يطل من اللامكان ويناديني "تعالى يا بنية! تعالى لا تموتين!" .. ركضت إليها، بكل قوتي، ارتميت عليها وبقيتُ أزعجها بيكائي حتى بلغنا حدود السعودية، والعائلة تحاول عبثاً أن تعرف شيئاً عني، اسمي، مولدي، من أنا ومن أين أتيت.. وطوال الطريق إلى المملكة، وأمام اختناقات الطرقات وصعوبة العبور، كانت غيضة تقبض على يدي بيديها، تظني مجنونة وقادرة على إيذاء عائلتها، ولم يمنعها خوفها مني من مساعدتي بأيّ حال، بكيّ، ويدي مقيدتان إلى يديها، حتى نمّت على صدرها.. ثم أفقت من غفوتي تلك، وأنا على تمام الاستعداد لأن أحب المرأة التي تمسك بيدي لتحمي عائلتها مني، وتحضني لتحميني من رصاص الغزاة، وأحب الرجل الكهل الذي يقود الجيمس بلا كلل لينقذ عائلته، وهيلة المطلقة حديثاً وولديها المزعجين، والابن الوسيم، وصغراهم التي تحدق في النافذة بصمتٍ وهي تمتص الدمار بعينها، كنت أحبهم كلهم، وكنتُ قد بدأت أنادي غيضة يا أمي، وأنادي زوجها يا أبي، كنتُ قد جعلتهم عائلتي.

وصلت الأسرة إلى "الخبر" ونزلت في أحد الفنادق المتواضعة،

وتسمرت طوال أسابيع أمام شاشة التلفزيون، كان الدمار كثير، والدم رخيص، وكان الخوف يهيمن على كل شيء، ولم يبد أن أحدا منهم يكثرث لوجودي، فقد ذهبت الأرض! سرق الوطن! لماذا عساهم يقلقوا لوجود لقيطة بينهم؟ مضت شهور قبل أن ينتبه الجميع إلي، وكنت قد رحمت أخدمهم جميعاً كما هو خليق بحبي ووفائي، أرتب الأسرة وأغسل الأواني وأنشر الغسيل، اعتادوا على وجودي، ويطيب لي أن أفكر بأنهم أحبوا وجودي، حاولت غيضة أن تعرف اسمي، أخبرتها بما يمكنني إخبارها به، سمّيني رقية مثل "الأبلة"! هكذا كان اسمي في المكان الذي أتيتُ منه، حيث الأطفال لا يعرفون حقيقتهم، ولا ينتسبون إلى أحد، تساءلت مراراً كيف انتهى بي الأمر إلى الركض في الشوارع مع "البهائم" على حد قولها، ولم أكن أتذكر شيئاً بهذا الخصوص، حاول زوجها أن يتصل بالسلطات وتساءل عما يمكنهم فعله بي، تساءلوا إن كان ثمة أحد سيظهر ويطالب باستعادتي كما لو أنني.. ذات قيمة، لم يتصل أحد، وقرروا أن أعود إلى الجهة التي تعنى باللقطاء بعد أن تعود الكويت إلى أهلها، ورحلت أبتهل.. يا رب لا تنه هذه الحرب، يا رب لا تنه هذه الحرب!

بعد سبعة أشهر تحررت الكويت من العدوان، ابتهج الجميع وتحطم قلبي.. نظرتُ إلى غيضة بتوسّل وأنا أبكي وأنفي يسيل، ابتسمت مطمئنة.. قالت لي بأنها لن تتركني أبداً، وكانت تلك هي اللحظة التي خلق فيها وطنٌ في قلبي، تجرأتُ وضممتها وأنا أسمّم ثوبها، ربتت على كتفي بسرعة لكي لا أضيع الوقت بالعناق، ثم طلبت مني أن أعد لهم شيئاً يؤكل!

لم يكتفوا بالوقوف عند عتبة البيت، بل دخلوا بأحذيتهم الملوثة إلى عقر الحوضن، ووسخوا السجاد بالطين، وفعلوا كل ما احتاجوا إلى فعله لكي تذعر النساء بحضورهم، النجوم على الأكتاف والأسلحة على الخواصر والغبار على الأحذية، دخلوا مملكة الأمومة المشيدة وانتزعوا الصبي من سلاسل أذرعنا، الأخلاق وآداب الضيافة لم تكن تعني لنا أو لهم شيئاً، وضعوا السلاسل في يديه، والعبرات في عينيه، والصمت في شفثيه، والخوف في قلبه.. ألقى الصبي نظرة مختنقة بالدموع على وجه جدته ثم مضى معهم، كان يعرف - كما هي - بأنها مسألة وقت حتى يأتون لأجله، لم يقاوم، لم يبك، لم تسمح له بأن يكون طفلاً، ولم يكن بوسعها أن يصير رجلاً، وظل يرمقها من ركن خوفه وكأنه يفتش في عينها عن وعودها التي لا تنكثها أبداً.

أدخلوه في السيارة / القفص وهي تصفر وتلقي بأضوائها الحمراء والزرقاء حيثما تذهب، السيارة المصممة خصيصاً لافتعال الفضائح، كان هناك، خلف الشبك، مقيد اليدين، يحدّق إلى جمع النسوة وهن يندبنه وينشجن، لم يبك.. ولكن وجهه كان مترعاً ببكاء الأطفال الذين يساقون بعنجهية خارج أحضان أمهاتهم! ولم أتأثر في حياتي لمشهد بقدر ما تأثرت لشفته التي تقوست، وذقته التي ارتجفت، والبكاء الداخلي الذي كان يسيل على جدران صدره دون أن يسعه إعلانه.

الأمهات الثلاثة وقفن في زاوية الفجيعة، كلّ تعض طرف كمها يديها لكي تكبح انتفاضات بكائها، الجدة وحدها، رسخت في صمتها مثل نصب، بوجهها الذي اهترأ ليعترف أخيراً بأنه ليس نداءً لك أيها الزمن! أسرعُ آخذ البنتين إلى غرفة لا تطل على المشهد، كانتا تبكيان وتكيلان عليّ بالأسئلة، تتفلتان من بين يديّ لكي يسعهما رؤيته والتلويح

له ومناداته، حتى انتهى بي الأمر إلى تركهما تتصارحان مع النكبة على النحو الذي لم يستطع أحد منا أن يفعل، كانتا تبكيان وتلوحان من إحدى النوافذ... يا فهاد، أين تذهب، متى تعود.. لا شيء في الواقع يهم باستثناء هذين السؤالين، لماذا يركب فهاد في سيارة الشرطة؟ لماذا قيدوا أيدي الصبيّ بالسلاسل، لماذا يساق من رقبته كالكبش إلى المقعد الخلفي خلف قضبان السيارة، لماذا توجد في السيارة قضبان بأيّ حال، من هؤلاء الأشرار الذين يسرقون الولد ابن الولد من عالم الأم.. كانت الأسئلة بذاتها مفزعة وهي تتفجر في وجهي، تجرح خديّ وقلبي وما بقي من سنيني، ابقيا هنا، ابكيا هنا، غيضة العجوز لا تستطيع تحمل ألم بهذه الصراحة، اختفيا إن شئتما ودعا الكبار يواجهون ألمهم بما يليق بهم من تعقيد.

عندما عدتُ إلى الأسفل كانت السيارة قد ذهبت، وكان وجهه يملأ علينا المكان، الشمس غابت والمشهد ملطخ بنزيف الشفق الحزين، تدخل غيضة السكري إلى بيتها لتمدد على الأريكة وتمارس شيخوختها المؤجلة على نحو ما تستطيع، وجهها غائر في عمق وجعه الداخلي وهي تتقدم بصعوبة صوب الأريكة الطويلة في الصالون، تلاحقها بكاءات ابنتيها وتوسلاتهما: وش السواة يمه؟ وش الدبرة يمه؟ يمه خلصيه منهم، يمه رجعيه لأمه، يمه قلبي ينزف يمه.. والله ينزف يمه! جثت نورة على ركبتيها تقبل يديّ أمها وتتوسل، فيم هيلة تضرب بيديها كل ما تطوله وتجذف ضد القدر، وشهلة السارحة بابتسامتها البلهاء تيرطم برطانة بلا معنى.. كانت تلك المرة الأولى التي تعلن فيها جنونها بصراحة.

هذه المرة.. لم تطلق غيضة أية وعود، لم تملك خطة بديلة، أو حقائق مزورة، ولم تكثر كثيراً لأعين الجيران التي تتابع المشهد من خلف الستائر، كان وجه الولد، شفته التي تقوست، كتفه التي ارتجفت..

هي كل ما يهم، وكان جسدها قد استسلم لصنوف الألام التي ظل
ينكرها لسنوات، كانت متعبة أكثر مما ينبغي لكي تتعاطى مع الموقف،
ثم غطت عينيها بساعدها وقالت وهي تتنفس ببالح الصعوبة..

- هيلة يا يمه.. اتصلي ف عبدالله زوجك خليه يطمناح الولد،
وقولي له يشوف لنا محامي زين، بس لا يكون من العايلة، ستروا على
ولدكن..

ثم انقلبت على جنبها الأيمن وأولتنا ظهرها، وهي تتساءل على
الأرجح، ما الذي فعلته لكي تصل بنا إلى هنا؟!

كان الصبي يرتدي الفساتين ويراقص البنات ويلعب بالعرائس ويملاً وجهه بالأصباغ وشعره بالشرائط الملونة، ويعلنُ على العالم - صراحة - بأنه يريد أن يكون بنتاً لا ولداً، ويسأل لماذا لم يستشره أحد فيما يريد أن يكونه؟

جنّ جنون غيضة وهي ترى الصبي يسجد مطولاً ويرفع يديه صوب القبلة.. يا رب حولني إلى بنت، يا رب حولني إلى بنت! تقول شهلة بأنه يتحقق من جسده كل صباح، يقف أمام المرأة عارياً ويتنظر حدوث المعجزة، كانت العجوز ستفقد صوابها، وأخذت - لأول مرة منذ مولده - في ضربه بعصاها، والتلفظ بالمشين من السباب والشتائم، غاضبة وعاجزة أمام هاجس التأنيث الذي استولى عليه، كل القصور التي دشتها في أحلامها على أكتاف هذا الصبي، الولد ابن الولد، كل شيء سيذهبُ الآن، هدرأ! كيف يمكنها أن تقبل بنهاية كهذه تتوج تاريخ كدحها الطويل؟

ذات يوم لوّحت غيضة بسكين المطبخ في وجه شهلة وهي تتوعد: أذبحه بسكيني هذه قبل أن أرى ابن علي يخصي نفسه بيديه! أي خبالٍ أن يقايض رجل ذكورته بأنوثة شائهة! أقسم بالله سأذبحه! أذبحه وأغسل عاره! وشهلة تتوسل إلى غيضة، امسحها بوجهي يا خالة تراه بزر.. ما يفهم! خليه أنا أفهمه! أقسم برب العزة إن ما عقل ورجع رجال لأدفنه حيّ في حوشي! لأنه موب كفو يشيل اسم علي! موب كفو يكون رجال! لم يسبق أن غضبت غيضة بهذا القدر في حياتها كلها، كانت ملامح وجهها تموجُ وتتداخل، وعينها تحمرّ متوعدة، وجسدها يصرعُ في قلب غضبته الهائلة، وأنفاسها المهتاجة تتلاحقُ محدثة شخيراً معطوباً.. وفيم أنا أتأمل المشهد من زاويتي الصامته في مؤخرة المطبخ، كان الشيء

الوحيد الذي يجول برأسي أن غيضة ستموتُ خلال لحظاتٍ، وتدفن بوجهٍ عابس وقلب غضبان.. احتضنت كتفيها.. كافي يمه، ارتاحي يمه! ولكنها دفعتني عنها بقوة وغادرت المطبخ، ذهبت لتمدد على جنبها، والسكين في يدها، تلعن وتحوقل.

عندما بلغ الغضب من غيضة كل مبلغ، تواطأت الأمهات الثلاثة بصمت ودونما اتفاق مسبق على مساعدة الصبي على الاختباء من جدته، وأوصيته بالاختفاء لبعض الوقت، تكتمن على أخباره تماماً أمام العجوز زاعمات بأن الصبي قر إلى الشارع منذ أيام ولم يرجع، ووجدت غيضة في أكاذيبهن بعض السلوى، "أحسن! خلوه يهيج! كود الشارع يربيه ويرده رجال!".. وتوعدت بأنها لا تريد رؤيته أبداً، وبأنها غاضبة عليه حتى يوم القيامة إلا أن يثوب إلى رشده ويرتدي - مرة أخرى - جسده الذكر، كان الصبي يبيت معي خلال تلك الأيام، إذ كانت غرفتي مناسبة لابتعاده الوهمي، كان يمضي أعظم وقته في قضم السكاكر والتفرج على الكارتون، وكنت أتأمله، في صمته وعزلته.. ويبدو لي بريئاً أكثر مما ينبغي، الأرجح أن كل ما يريده هو أن يشارك موزي وفظومة عالمهما الوردّي، لأنه يشعر بالوحدة وحسب! ولم تكن رغبته بالتحول إلى بنت إلا تعبيراً عن رغبته بالاندماج في عالمه النسائي، تخفيفاً لغربته.

ولكن غيضة لا تفكر بهذه الطريقة، وإن خطر الأمر بهذه الصورة في رأسها فهي لن تقبل به على أي حال، وطوال تلك الأيام التي مكث فيها في غرفتي، لم يقارب دولابي ولم يتفحص أغراضي وأسراري النسوية إلا في وجود البنتين، فقط ليزيل عن نفسه شبهة الاختلاف، ورجم تحفظي على زيارات الطفلتين له، ولعبهم الطويل بالعرائس وتمددهم على سرير واحد لمتابعة التلفزيون، إلا أن البنتين لم ترصخا لي ولم تكثرنا بما أقوله، ولا بما يمكن أن يحدث لو اكتشفت جدتهم

معقل اللعب الجديد في بيتها.. غريبٌ أنه عندما يتواجد الثلاثة في مكانٍ واحد فإنّ الخوف لا يكون لهم شيئاً ذا معنى.

لم أكن بذاتِ حيلة، لم أكن في الواقع إلا رقية السوداء، التي تعيش أيامها بين قدور المطبخ وتنظف البيت وتردد الحكايا الغربية التي لا يصدقها أحد، من أنا لأخبر طفلاً بأنه لا يستطيع اللعب في غرفتي؟ استمرت المناورات طوال أسبوعين، ولا أعرف كيف.. ولكن غيضة كانت واقفة على عتبة بابي في ذلك اليوم، وجهها يغلي، والسكين في يدها! سرعان ما تشبث الصغير الذي صبغ شفثيه بأحمر الشفاه بذيل ثوبي واختبأ خلفي وأنا أحاول عبثاً أن أبرر أمامها عصياني وعقوبي، في ذلك اليوم عرفتني غيضة على مقامي الحقيقيّ بينهم: يا كلبة! يا واطية! يا نجسة! يا بنت الحرام! كان لازم أتركك تهجين وتهرجين في الشوارع مع البهايم يا لقيطة!

الصبيّ بدأ في الهرب، والبنات تحلقن حول الجدة يحلفن عليها برأس المرحوم أن لا تؤذي الصبيّ، و.. أشياء أخرى حدثت، كنتُ خلالها غير موجودة، كنتُ قد عدتُ إلى حقيقتي، في الثاني من أغسطس سنة الـ 90 عندما كنتُ اللقيطة التي تركض في الشوارع بين قطع من الحيواناتِ وسط وابل الرصاص، كنتُ أنا.

لا أحد منا يعرفُ ما حدث في ذلك اليوم، كل ما شهدناه هو غيضة التي تشد الصبي من أذنه إلى غرفتها وهي تردد "أ يا ملعون الصلاب! إن ما ربيتك وسويتك رجال والله لا أقطع صدري إلي أبوك رضع منه!".

أطبق الصمت على المنزل بمجرد ما أقفل الباب، واستمر الصمت لثمان ساعات.. تساءلنا أثناءها: هل قتلته؟ ما الذي فعله به/له/معه؟ تندبه؟ تجلده؟ تشرح أعضائه؟ تخصيه؟! ما الذي يمكن أن يكون قد حدث هناك طوال ثماني ساعات؟

عندما صرّت مفاصل الباب أخيراً، وفتّح.. كان وجه غيضة قد استعاد صفاءه، وأمست ملامحه أكثر استرخاءً، وعلى ثغرها امتدت ابتسامةٌ رضية، ونادتني: يا رقية! وينك يمه؟ وهكذا - ببساطة - صرّت ابنتها مرة أخرى، لأنها تأخذني في كنفها عندما تريد، وتبصقني خارج عالمها عندما تريد، وأنا.. أمثل بين يديها مرتبكة، ملهوفة: سمي يمه! - الولد جوعان، سوي له لقمة ياكلها..

بعد ذلك اليوم الطويل، تحول فهاد بن علي إلى عبد لجدته، فصار لا يجلس إلا بين يديها، ولا ينظر إلا إليها، يناديها "يا أمي" بعد أن كفت كل أخرى عن أن تكون أمه، وصرنا في نظره زمرة الخالات الصيحات الموغلات في العماء الممعنات في الجهل، اللائي فرطن بذكورته مقابل أصباغ وردية ملعونة! صرنا - فجأة - بلا قيمة، وكأننا ما أحببناه قط.. شهلة كانت أسرعنا في التلاشي، حتى البتتين غابتا في مجاهل تاريخه السحيق، ولم يعد ينتبه لحضورهما أو لغيابهما أو لكلامهما معه، كان ينظر إلى جدته منتظراً أن تطلب فيلبي، وأن تأمر فيطيع، وأن تشير فيسعى، كانت ثقته بكل شيء قد تقوضت إلا بغیضة المتربعة بكل خيلاء على عرش أمومتها.

حلق الصبي رأسه، هجر ألعابه وتنازل عن طفولته، قرر أن يعجل من صيرورته إلى رجل، فصار يرتدي الدشاديش ويضع على رأسه شماغاً أبيض، ويتفرج على برامج شعراء النبط التي لا يفهم منها شيئاً، لولا أنها تساعده على أن "يتعلم كلام الرجال" على حد تعبيره، سمعناه يقول مرة بأنه.. لو كانت له ذقن لما حلقها، وكأنه كان يستبسل لكي يصبح أكثر شبهاً بأبيه، باهتمامه المفتعل بتجارة الذهب، والطريقة التي تتحسس فيها أصابعه خرز المسابيح.. صارت عنده مجموعة من المقتنيات التي لم يأبه لها من قبل، أشياء لا نعرف من أين أتت رغم أننا حدسنا بذلك منذ البداية، كانت بصمات علي تملأ جلده!

كذبت غیضة لما ادعت بأنها تبرعت بمقتنيات علي للجان الخيرية، كانت أغراضه مطوية ومخبأة بعناية في دولابها المقفل على الدوام، تخبي مفتاحه في مكان لا يعرفه سواها، ثيابه، مسابحه، كاتالوغات بضاعته، مصحفه، دهن العود، مشط، نعل نجدية، حتى ماكينته حلاقتة.. لم تغفل

غیضة شیئاً، وخذلت عالماً كاملاً لولدها داخل دولاب / تابوت.. تحسباً
لیوم كهذا.

تخوفنا من معرفة شهلة بالأمر، خشينا أن انبعاثة المقتنيات من قبر
المتوفى سيثير حنينها، ويستنهض أوجاعها الغافلة، خفنا من اللامبالاة التي
أبدتها غیضة صوب كتبها الوحيدة، ولكننا سرعان ما أدركنا بأننا قد بالغنا
في تقدير الموقف، فبعد كل هذي السنّي المتطاولة في الاهتراء والتلاشي
والتضخم والترهل.. تراها ستكثرث للأمر حقاً؟ رأيتها، بعينيّ هاتين،
تتحسس أحد المسابيح بأصابعها، ترمقه بعينٍ باردة، ووجهٍ مصمت، ومشاعر
مشلولة، تعيده إلى مكانه وتمضي لشأنها، لمشروع موتها الخاص.

أثت غیضة عالم الصبيّ بمخلفات أبيه، فقد بدأت تدرك أخيراً
مدى ضرورة أن تملأ الفراغ الفاحش في قلبه بالشخص الوحيد القادر
على ملئه، الأب الذي لم يحظ به للحظة. هي التي طالما رددت بأن
الأم تساوي ثلاثة آباء، وبأن ثلاث أمهات هن أفضل ما يمكن أن يحظى
به أي طفل في العالم، انتهت إلى الاعتوار الذي يعتري عالمها، فأصبح
علي، المیت منذ سنوات، سيد المنزل مرة أخرى، ولكن من خلال أمه!
وبعد أن كالت الجدة على الحفيد بمفردات الإرث الغالي، أصبح الولد
عبداً لأحلام جدته، لا يداخله إلا خاطر واحد، أن يحقق لها ما تريده
منه، أن يشب كوالده!

عندما أتمت موزي عامها السادس، رغبت نورة بأن تقيم لها حفلة عيد ميلاد، فأعدت لها - بشجاعة بالغة - قالب كعك، واشترت لها دميةً جديدة، ثم دعت جميع من في البيت إلى الحفلة، بعد أن أشعلت الشموع، وألبست الطفلة ثوباً أبيض بتنورة متفتحة، وزينت شعرها بتاج من الدانتيل الوردية، وملأت قلبها بالأمل.

عندما وصلتنا الدعوات، مغلفة بورق وردي جميل، تحمل أسماءنا، تخبر عن مكان وميعاد الحفل.. جئت هيلة من الغضب، وصعدت درجات السلم إلى شقة أختها، اقتحمت المكان، أفسدت الزينة وألقت بقالب الكعك في سلة القمامة، وسط صراخ نورة وبكاءات موزي.. قالت بأن ما فعلته نورة ليس فقط هو الإخلال بالقسم الذي أقسمته الأمهات أمام الجدة بأن يساوين بين الأطفال في الأمومة، بل هو أيضاً اقترافٌ صريحٌ للحرام وتعاليم الشريعة، صاحت نورة بدورها بأن الاحتفال بيوم الميلاد هو احتفالٌ بالحياة، وأنها تريد لابنتها - ولجميع الأطفال - أن يتعلموا الاستمتاع بكونهم أحياء.

في تلك الأثناء - طبعاً - كانت موزي تبكي وهي تحتضن سلة القمامة وتردد "ماما هيلة ليش! ليش!"، والأخرى المختبئة خلف "دراعة" أمها، تتلصص على قرينتها بشيء من الحزن، وشيء من التشفي.. في ذلك الوقت كادت الأختان أن تتشابكا بالأيدي والأظافر، قالت هيلة لأختها بأنها رغم ثقافتها الواسعة وتعليمها الأكاديمي إلا أنها مربية سيئة للطفلة، عاصية للتعاليم الدينية، تلقن ابنتها فنون الشطن خارج خارطة السراط المستقيم.

بحسب رأي هيلة، ليس ثمة ما يعطي الإنسان سبباً لكي يحتفل بكونه حي، أولاً لأن الله لم يمنحه هذه الحياة لكي يحتفل بها، بل

على العكس، لكي ينصب فيها من خلال اختبار طاعة أو عصيانه، ولأن كوننا أحياء هو دليل قاطع على قلة عقولنا، لأننا رضينا بحمل الرسالة التي أشفقت منها السماء والأرض وأبين أن يحملها، وحملها الإنسان.. "إنه كان ظلوماً جهولاً".. وإذا كان الله في عيائه لم يمتدح الإنسان على حمل رسالته، فلماذا يمنح الإنسان نفسه كل هذا الخيلاء الذي لا حق له فيه، ويحتفل بوجوده، ويوم ميلاده!

قالت نورة بأن هيلة ليست مضطرة للمشاركة في أي احتفال تعتبره محرماً، وبأن بوسعها أن تغادر إن شاءت، هي وابنتها، وأن تمضي كل أيامها في نذب اللحظة التي دبت فيها الحياة في أوصالها، وعندما وصل الحديث إلى تلك النقطة حسمت غيضة الأمر بأنها لا تريد أعياد ميلاد في بيتها، وبأن على نورة أن لا تعزز في طفلتها هذه الفردانية المفسدة، فطلبت نورة أن يقام يوم ميلاد للأطفال الثلاثة كلهم لكي تتجنب شبهة عدم المساواة، ردت عليها هيلة بأنها غير مستعدة لهدر مالها وجهدها على احتفالات محرّمة، ثم كررت على مسامعها أسماء للفقهاء الذين أفتوا بحرمة عيد الميلاد، وبأن الأمر برمته هو تقليد أعمى لليهود والنصارى..

أجهضت حفلة الميلاد سريعاً، وانتهى الأمر بنورة وموضي تجتران دموعاً مرة، وطوال تسع سنوات، لم يحتفل أيُّ من أفراد قبيلة غيضة بيوم ميلاده.

استمر العمل بقانون (منع أعياد الميلاد) حتى حان عيد الميلاد الخامس عشر لفهاد بن علي، اليوم الذي احتفلت به غيضة بحياة حفيدها بكل صراحة، بدون أن تواجه بالمعارضة أو الامتعاظ أو فتاوى التحريم، وقررت أن يكون احتفالها بحفيدها بمنحه الهدية الأكثر ملاءمة وتعزيراً لحلمها بأن تراه رجلاً.

وهكذا، بمناسبة عيد ميلاده الخامس عشر، أهدت غيضة لحفيدها الأثير.. سلاح أبيه.

لم يكن سلاحاً بمعنى الكلمة، ولكنه كان قادراً على الإيذاء، كانت "أم صجمة" استخدمها علي في رحلاته للقنص مع بعض رفاقه وأبناء عمومته، فانتقلت البندقية - بمباركة الجدة - إلى حيازة الابن لكي يتدرب بها على الرماية، ويذود بها عن خشونته، وينشغل بها عن إغراءات اللعب بالعرائس ووضع المساحيق، قالت غيضة بأنها هواية ممتازة للأولاد، ووعدت الصبي بأنه إذا أصبح قناصاً بارعاً وصاد لها من الحمام ما يكفي لوجبة عشاء عائلية، فستشترى له "فرساً" لكي يمتطيها، وستدشن لفرسه في الحديقة إسطبلاً صغيراً، ليكبر متمثلاً بأجداده، أمراء القبيلة، ويصبح فارساً حقيقياً في زمن سيارات الفراري وألعاب الفيديو.

شعرنا بالزمن يعود إلى الوراء عقوداً، فبعد السوني والبلي ستيشن وكل ألعاب الفيديو وسيارات الريموت كتنترول، تهديه جدته بندقية وتمنيه بفرس! حاولت الأمهات - ببالغ الهلع - أن يبدين احتجاجهن، فمن المخيف أن يترك سلاح كهذا - مهما بدا بريئاً ومصمماً للعصافير - في يد صبي في الخامسة عشر من عمره، ولكنّ الجدة صمت أذنيها عن مخاوفهن، وقرعت شهلة - الأكثر ملاءمة لهكذا مواقف - لضعفها وجبنها، وقالت بأنها لا تستطيع أن تتخيل ما هو أفضل للصبي من هدية كهذه، وأنه واجب ديني على كل أم وأب، أن يعلموا أولادهما "السباحة والرماية وركوب الخيل"، ولم يكن بوسع أيّ منا أن تقارع حجة كهذه.

انطلق الصبي في رحلات الصيد الافتراضية، وغاب أياماً في عالم البنادق وأحلام الفروسية، ولكنه لم يأتنا بشيء مما وعد به، لا عصافير، لا حمام ولا حتى قبرات، مجرد سلاح يحمله على كتفه وينطلق، وقد

احتشد حوله عشرات الصبية والفتيان ممن سال لعابهم لبريق ذلك الشيء، وطارت ألبابهم على لونه وملمسه وقسوته وفداحة إمكانياته، فتن فتية "الفريج" بفهاد، الصبي الذي يحمل سلاحاً حقيقياً وبمباركة جدته العظيمة، معظمهم لم يجسروا على إخبار آبائهم وأمهاتهم بالأمر حتى لا يحرّموا من التمتع بصحبته، أولئك الذين سربوا الخبر إلى الكبار مطالبين أهليهم بشراء أسلحة حقيقية لهم بحجة أن فهاد بن علي يملك سلاحاً، هم الأقل حظاً، الذين عانوا الأمرين بمنعهم من الخروج من المنزل ومصاحبة فهاد بن علي بتاتاً.

بفضل ذلك السلاح، أصبح فهاد بن علي زعيماً روحياً لكل صبيان الفريج والفرجان المجاورة، وهو ما سرّت له غيضة، واعتبرته الحصاد الأهم الذي اقتنصه السلاح بدون معركة تذكر، أن يصبح فهاد "سيداً" لأترابه، وينسى كل ما يخص البنتين، الاختين، والحبيبتين وزوجتي المستقبل..

الغريب في الأمر، هو أن الصبي صار - بمجرد حيازته لهدية ميلاده تلك - يكثر من استخدام "الفصحى" في كلامه اليومي، مع نفسه، مع أصدقائه، وحتى معنا إذا أمن سخريتنا منه، كان هاتف المنزل يرنّ طوال الوقت لنسمع على الضفة الأخرى أصوات صبيان يتكلمون لغة فصيحة تشبه تلك التي يهذر بها أبطال أفلام الكارتون، هل فهاد موجود أيتها السيدة! هل فهاد موجود أيتها الأخت الكريمة! ليس هنا؟ وأين أستطيع أن أجده؟! كانوا يلعبون لعبة طالت لأيام بلباليها، يمثلون، يعيشون أذواراً برعوا في تدشين معالمها بخيالاتهم، يحيون قصص الأبطال، الأموات، المحاربين الشجعان الذين تكدسوا - من كل صفحات التاريخ - داخل حينا، وفي أجساد أولادنا، منذ الظاهر بيرس مروراً بخالد ابن الوليد وانتهاءً بتمورلنك، الأرجح أن كل واحد منهم نقب طويلاً في بطون الكتب لكي يأتي بتلك الشخصية التي من

شأنها أن تثير إعجاب وغيره أقرانه.

عندما عرفت العجوز عن اللعبة التي تجتاح المنازل، وترف لها قلوب الفتية، وتغمر الأحياء والمنطقة المحيطة برمتها، بسبب بندقية صيد صدئة، اقترحت على فهاد أن يلعب دور والده، البطل الهمام الذي يسافر إلى قندهار لیساعد منكوبي الحرب ويستشهد في الأرض الغريبة بمتهى البسالة، ولما احتج الصبي بأن بطولة والده ليست ذائعة الصيت إلى هذا الحد ولا يمكن قراءتها في الكتب، قرعته بشدة وقالت بأن واجبه يحتم عليه أن يكون أكثر اعتزازاً بوالده مما هو عليه، وأن يبذل قصارى جهده لكي ينشر قصته العظيمة على نحو أكمل، وأن الكتب ستبته له في النهاية..

كانت الأخبار تردنا، مبتورة ومحورة، عن آخر ما أثارته تلك (الأم صكمة) في المنطقة، وعرفنا بأن تلك اللعبة باتت تسيطر على العالم.

مضاوي وفتومة وجدتا نفسيهما ملقائين على هامش الأحداث، وكأنهما ما عادتا بطلتين في الحكاية، وكأن كل الضوء الذي كرس لهما يوماً، من قبلنا جميعاً، كان بفضل الصبي وحده، الصبي الذي لفظهما خارج حياته منشغلاً بمفردات عالمه الجديد، السلاح والفرس الافتراضي والأصحاب الذين تدفقوا من جميع البيوت القريبة لتمجيد السلاح الحديدي، والفتى الخرافي، ابن الشهيد وسليل فرسان القبيلة!

لا تعرف فطومة كيف تعيش حياتها بدون أن تكون جزءاً من حياة فهاد، لا تعرف لحضورها معنى أو هوية، وكانت تتصرف كما لو أنها قد تيمت فعلاً! كانت بمجرد ما تسمع صوته، وهو يدخل البيت، تركض لتكلمه، حتى لو لم يكن عندها شيء تقول، وكان بالكاد ينظر إليها وإذا ما فعل، فهو - محلقاً داخل لعبته العظيمة - يرّد عليها: ابتعدي عني يا فتاة!

ذات مساء، دخل إلى البيت ومعه اثنين مع أصدقائه الجدد، ولما لمحها واقفةً في الزاوية ترمقه بتردد، نادى عليها: أيتها الجارية! هل لنا ببعض الماء؟! في ذلك اليوم كانت فطومة سعيدة لأنه سمح لها بأن تكون جزءاً من قصته / لعبته، وعندما خبّرت مضايي عما جرى معها، على الأرجح مدفوعة بهاجس إثارة غيرتها، وبختها الأخرى بكثيرٍ من الغضب لأنها سمحت له بأن يتناول عليها بهذا القدر.

كانت موضي تغلي غضباً من فهاد، ومن جدتها التي ما عادت تبالي بها إطلاقاً، ولم تعد تمنع أن تشتري لها أمها الهدايا، وأن تلعب بالباربي المحرمة وما إلى ذلك، لم تعد قضاياها كحفيدة مهمة للجدة التي اعتادت أن تصدر جميع القرارات، وكأنها كفت فجأة عن أن تكون حفيدة لغليظة.. القسم الأمومي والمساواة في الحب فيما يشبه الأنظمة الاشتراكية المنقرضة، كلها تداعت، شأنها شأن كل الأنظمة التي نخرها الفساد، واقتاتت على الدكتاتورية، لم يبق شيء من الحياة التي اعتادوها، ولم يعد للحفيدتين وجود بالنسبة للجدة، بعد أن حلق فهاد بجناح ذكورتته، خارج فلك البنتين، لم يعد هناك ما يهم، ولا حتى.. البنتين نفسيهما! ويقدر ما يحق لموضي وفطومة أن تشعرا بالسعادة، لهذه الحرية الجديدة التي لم يحسب لها حساب، ولانهيار النظام الأمومي الفاشي

باسمِ الحب، ولقدرتهما أخيراً على أن تختلفا عن بعضهما البعض بدون حروبٍ تذكر، بقدرٍ ما خلف الانهيار إحساساً عارماً بالمرارة، لفرط ما أصبح واضحاً بأن الجدة، جدتهما العظيمة، لم تحبهما قط.

هل هذا يعني أنها يوم طلبت من الأمهات الثلاثة أن يساوين في الرعاية والحب بين الأطفال الثلاثة.. كانت تعني فهاد وحده؟ لو لم يكن هناك فهاد بن علي، هل كنا لنعيش حياة أكثر طبيعية؟ هل كانت ستحظى بمدرسة أفضل يوم أرادت أمها أن تدرس في مدرسة خاصة؟ هل كانت ستحصل على فساتين أجمل؟ أساور فضية ربما؟ أو على أقل تقدير، هل كنت ستحظى بلذة أن تجلس في حضن أمها - طفلة - دون أن تثيرا الشبهات كما لو كانتا تقترfan منكرأ؟

هكذا، ورغم ارتياح نورة لانتهاؤ الأمر، وللحرية الجزئية التي تمتعت بها مع ابنتها، وخلصها من تدخلات أختها، وتأؤبات أرملة أخيها، وغطرسة أمها، كانت موزي تتجرع مرارة الهجران، وعلقم التخلي، وقررت منذا أن تتخلى بدورها عن جدتها، وعن فهاد بن علي أيضاً، بقدر ما تخليا عنها، وإن لم يكن بوسعها أن تهجرهما مكانياً، فإنها تعتزم أن تتخلى عنهما داخل قلبها، وكان ذلك بمباركة الأم التي دججت كل حججها لكي تعزز في ابنتها إحساسها بالاستقلالية والاكتمال، بعيداً عن غيضة وفهاد ولعبته التي ابتلعت العالم.

كانت موزي تلمع من العناد والشيطنة، وبدأت أحلامها بالتحليق خارجاً، فكفت عن الاهتمام بمنافسة فطومة على مجدٍ أو حب، لا يغريها أن تلبس الثوب الأجل، ولا أن تحوز على العريس الأفضل، وهامت في عالم من الكتب المغبرة، ترسمُ اللوحات وتكتب مذكراتها الخاصة، تحلق في فضاء لا يخص غيرها، ولا تريد فيه أحداً غيرها، وكما أصبح لفهاد ذلك العالم المحدد الذي ليست هي جزءاً منه، أصبح لموزي عالمها الخاص، الذي دشنت معالمه بقوة الحلم وحدها، كانت هي

الأخرى تسبح في لعبتها الخاصة، لعبة الممكن!

حاولت الطفلة مرة أن تأخذ فطومة في رحلة داخل عالمها وتربها ما تملكه، أفكارها وأحلامها وأشياء أخرى تشدها خارج الهواء والهراء الخائق للبيت الكبير، أرتها كتباً ولوحات، أسرت لها بأحلام ترجو أن تحققها يوماً، وربما همست لها بهواجس مراهقة داهمتها مؤخراً و.. كانت في الحقيقة كمن يتحدث إلى نفسه، لم تستطع أي منهما أن تتحسس حضور الأخرى مرة ثانية، كانتا مختلفتين أكثر من اللازم، غريبتين أكثر من اللازم، ومنفصلتين أكثر من أي وقت مضى.

لم يعد فهاد مركز لعالم موزي، وبقدرٍ ما بدت في تلك الأيام، بعنادها وصلابة روحها، كثيرة الشبه بجدتها، بقدرٍ ما فزعت العجوز من قدرة البنت على أن تشعر بالاكتمال والتحرر والفاعلية والأهم.. بالسعادة! دون أن تدور في فلك الصبي، الولد ابن الولد، تمت غيضة مرة، بأن البنت ستصبح زوجة ناشز، لأنها لم تتدرب على الخضوع كما ينبغي، ولأنها تضع نفسها في المقام الأول على عكس ما ينبغي للمرأة فعلة!

في صباح يوم الخميس ذاك قرّر فهاد أن يقتل رجلاً.

كانت الساعة لما تتجاوز العاشرة صباحاً، والهواء طلق والنسيم رائق والبلاد تبدو أكثر خفة وقابلية للهضم، كان أحد تلك الأيام التي يشعر فيها المرء بأنه مستعد للحب أو للموت أو للانتماء لأي شيء، لشخص أو فكرة أو وطن أو خرافة على أقل تقدير، أحد تلك الأيام التي تبدو فيها أحلامنا، خيالاتنا، في أكثر حالاتها صفاءً ووضوحاً، في وقتٍ غاب فيه كلُّ منا داخل حلم، لم يتبته أحد إلى أن أجمل أحلام الصبي متمحورةً ببساطة حول القتل: سقوط الجسد، صعود الروح، اختبار الوجود والعدم.

حمل بندقيته على كتفه، واتصل ببعض رفاقه الذين خرجوا مغيبين، مسرّنين، هائمين في بهاء الفكرة وثنايا العبارة، سيكون لدينا - اليوم - قتيلاً، سنجرب الموت (بكل جبروته وغموضه) على آخرين، وسيكون هذا من أجمل الأيام على الإطلاق! لم يخطر ببال أي من الأولاد بأن فهاد بن علي يعني ما يقول، ظنوا بأن الأمر سيقصر على أن يوجه سلاحه إلى رجلٍ ما، ويتظاهر بإطلاق النار، وكانت تلك اللذة ستكفيهم بكل تأكيد.

مشي الصبي مسافة متي قدم، وهم يدمدم بكلام الأفلام ويوغل في لعبته، سأريك! سأقتلك! النصر لنا والموت للعدو! يقف الصبي فجأة أمام الرجل الغريب الذي قرر - بلا سبب واضح - أنه عدوّه، ليوجه بندقيته إلى عامل البناء الذي كان يقف في رأس البيت، يثبت الأخشاب تأهباً لعملية ترميم جذرية، شعر الصبي بعداءٍ غير مبرر تجاه البناء الصعيدي الذي لم يمنحه حتى لمحة من عينيه، وأراد أن ينتقم من العدو الذي لم يكثرث له، ولا لحضوره المسرحي، ولا حتى لسلاحه / سلاح أبيه وكل ما يعنيه ذلك من ألق.. ستموتُ الآن! ..

مات الرجل في اللحظة التي قرر فيها الصبي ذلك، انطلق دويّ الطلقة في الهواء واستقرت الإصابة في ساقه.. رآه الأولاد وهو يلوح بيديه ويصرخ ويسقط منكبا على وجهه ليرتطم بالقارِ ويغسل دمه وجه الشارع.

وفيما المشهد يتمرأى أمام أعين الفتیان، أكثر وحشية من أكثر خيالاتهم جموحاً، متجاوزاً كل ما حلموا به وكل ما أرادوه في وقتٍ ما، حملوا أزواج نعلهم وعضوا على أطراف ثيابهم وانطلقوا هارين، واحداً فقط قبض على فهاد من عنق "دشداشته" وهزه بعنفٍ وهو يصرخ داخل وجهه "ذبحته! ذبحته!" رفع فهاد سلاحه في الهواء وهوى به على رأس الصبي الذي سقط - هو الآخر - في وسط الشارع، وسط بحيرة من الدم.

لا يمكن سرد ما حدث في ذلك النهار بطريقة أكثر حيادية، أو أقل براءة. لا يمكن صب ما حدث في أسباب تستوعبها الجريمة، أو يفهمها القانون، لم يكن بالإمكان جعل الأمر معقولاً أو مجنوناً، كان الموقف بسيطاً وحسب، أراد الصبي أن يلعب بالموت، أن يجرب القتل لمرة واحدة في حياته، وقد فعل.

عاد الفتى إلى البيت بجسد محموم وأوصال مرتجفة، اندس تحت لحاف جدته وراح ينادي على أمهاته أن دثروني، تحققت النبوءة إذاً يوم شب الابن على أبيه، قاتلاً وبجدارة، لقد علمته جدته يوماً بأن عليه إذا قتل، أن يدفن ضحاياه، وجثة الرجل ما زالت مسجاة على جبين الشارع تسخّ منها الدماء بسخاء، لم يعرف أين أخطأ بالضبط، هل أخطأ بالقتل، أم أخطأ بالهرب، أم أخطأ بالاثنين معاً؟ عندما ساق الخبر لجدته، وأخبرها بأنه قتل إنساناً لا يعرفه لمجرد أنه أراد أن يجرب به حقيقة الموت، جفت الدماء في وجهها وتخشبّت ملامحها، لم يكن بوسعها أن تهتدي لما ينبغي فعله، أو قوله، أفلتت الأمور بسرعة من بين يديها، وسرعان ما جاءوا لأخذه، الذين لم يكتفوا بالوقوف عند عتبة البيت، أخذوه.. رغم أن شفته تقوست، ورغم أن عينه جحظت، ورغم أن ذقنه ارتجفت طوال تلك الخطوات إلى السيارة، لم تمنعهم تلك الأمور من أخذه.. أخذوه إلى قبضتك أيها القانون، أيها الجسد العظيم العامر بالثغرات والمسامات والثقوب.. كيف أصبحت عصياً هكذا؟ بحثنا عن ثوبك المزعومة ولم تكن واسعة كفاية لكي ننفذ منها، لنستعيد وليدنا من قبضتك، ونستله من زنزانتك، ونعيده إلى حضن أمه، عجز المحامون ولو كذبوا، قلنا بأن الطلقة استهدفت عصفوراً وأصابت ساق البناء خطأ، قلنا بأنه أخذ السلاح بدون علم أي منا، قلنا بأن فتانا بريء صغير محب للسلام، لا يؤذي ولا يضر، لولا أن تضافرت أقوال الشهود، الأصدقاء السابقين والأعداء الجدد، وأهليهم، لكي تفند زيف ادعاءنا، قالوا بأنه أراد أن يقتل رجلاً، وبمنتهى البساطة قتل رجلاً، جاء أحدهم برأس ملفوفة وجرح بالغ، قال بأن فتانا قد ضربه بسلاحه، استعصت علينا ثغراتك أيها القانون، وشهدناه يجر إلى زنزانته، ويحكم عليه بالحبس

مع النفاذ لخمس سنوات، على أمل أن يعاد تأهيله مرة أخرى من قبل الدولة لكي لا يشب قاتلاً على أبيه، جلسنا على كراسي قاعة المحكمة الخشبية الزلقة، وقد غطينا وجوهنا بالبوشيات السميقة السوداء، أخفينا فضيحتنا ودموعنا، ولم يعد بوسعنا أن نفعل شيئاً، عدنا إلى البيت يلفنا صمت غرائبي، وبمجرد ما دلفنا البيت رأيتهن.. كل واحدة تتخلى عن حقيقتها، وتضحى روحاً تهيمُ في فضاءات الزمن، أجسادهن تصبح أكثر خفة وخفوتاً، رأيتهن يفارقن العالم، يمارسن موتاً طفيفاً، لحين عودة الولد بن الولد، إلى أحضانهن الجائعة، ونهودهن النافرة، رأيتهن يجبن جسد المكان بلا صوت ولا رائحة ولا مغزى، يمعن في الغياب، يستجلبن السحالي والأفاعي والأعشاب الضارة والغبار، يسترن الدمار في جنبات المكان، رأيتهن..

هل متنَ وبقيتُ؟

.. أم متُّ وبقينَ؟

أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ

(عَوْدٌ ذَمِيْرٌ لِمَجَارِحِ الضَّأ)

موضي

1

- موضي!

.. -

- قومي موضي!

.. -

- قومي!

عندما فتحت عيني، وجدتها تقبض على كتفي بيديها وتهزني،
وكانت المرة الأولى التي أرى فيها أمي بهذا الحضور، منذ ثلاث
سنوات.

- موضي!

- شفيك يمه؟

- فهاد بيسرحونه.. فهاد بيرجع!

بصوت متحشرج هتفت: والله؟!!!

- ايه موضي! ايه يمه! فهاد بيرجع!

- بس يمه.. هو مو باقي له سنتين؟

- بيرجع يا موضي! شفيك ما تسمعين؟ فهاد بيرجع!!

شعرت بشفتي تتقوسبان منجذبتين إلى الأرض، تدفقت في
جسدي حرارة غريبة، ضمتني أمي إلى صدرها، وأجهشت في البكاء.
فهمتُ لاحقاً بأن العفو الأميري قد طالك بمناسبة حلول رمضان،

وأنتك ستسرح مع آخرين تمتعوا - بحسب تعبير السلطات - بحسن السير والسلوك. وتساءلت كيف بوسعي أن أتلقى، أو أمنطق، أو أفسر، أو أشعرن.. شيئاً كهذا، عودتك! لا أدري إن كان عليّ أن أكون بهذا الفرح.. مثلهن، جدتك العظيمة، أمهاتك الثلاث، فطوم ورقية وأنا، كان أمراً مدهشاً أن ترى الحياة تدب في أطراف المكان وتنتشر في عظامه، الأجساد تتخلى عن شبحتها وتنفض ما تراكم على أكتافها من حزن وغبار ونمال، حتى السحالي شرعت في مغادرة المكان، أليس مدهشاً؟ عرفنا بأن المعجزات ما زالت قابلة للتحقق، الأصوات عادت، والألوان، والحياة، وجدتك.. وقفت وفتتها العظيمة على الكرسي وبدأت في إملاء الأوامر، هذه تكنس، وتلك تجلي، والأخرى تغسل، فقد عاد العالم إلى الدوران، وكنتُ.. فيم أنا مشغولة بغسل الأواني المغبرة، وكل الأشياء التي جعلها حزننا عليك بلا قيمة.. أتساءل وأبتهل: هل من الجيد أن يعود العالم كما كان؟ وأنا التي بتّ أعي.. قليلاً قليلاً.. طبيعته الشاذة؟

هل كنت أريد أن أعود إليّ قبل ثلاث سنوات، فأكون ذلك العرض الجانبي في حياتك؟ هل أريد حقيقتي القديمة؟ حقيقة أن كل ما يتحرك هنا، هو صدى لما يحدث هناك، حقيقة أنك المحور الأبدي الذي تدور حوله حياتي، وحيوات جميع من أعرف؟

كان السؤال - على الأرجح - هو خطيبي.

في تلك الليلة، بعد أن أنهينا غسل الصحون وجلي الأرضيات، سعدنا - أمي وأنا - إلى شقتنا، وكنتُ أرى في جسدها بداية انتفاضات تفصح عن حضورها، كانت أمي - بفصاميتها المعتادة - منقسمة بين فرحها اللانهائي بعودتك، وخوفها العظيم من عودتك.

أقفلت باب الشقة وأمالت رأسها عليه للحظة.. تستجمع أنفاسها، ولعلها - مثلي - تحاول أن تفهم سبب خوفها من الآتي، فليس من شيمِ الأم أبداً.. أن ترهب عودة ابنها، أن ترهب ابنها! ينبغي أن تعثر على مسوغات شديدة الإقناع لمشاعرها تلك..

- مضاي؟

وكنتُ أتوجس مما تريدُ قوله.

- مضاي كتبتي شي جديد؟

- لا.

واعترضت وجهها تقطبية تأثر: ليش يمه؟ ليش ما كتبتي..؟

ليس بإمكانني إفهامها، بأن الكتابة باتت أكثر استعصاءً عليّ مؤخراً، وأنتي كلما توغلتُ في عالم الكلمة أكثر، كلما بتّ أكثر إدراكاً لمدى جدية الأمر، كنتُ قد بدأت أدرك بأن الكتابة لا تعني أن تعيد كتابة مجموعة قصصك المفضلة بشكل محوّر، ثم تحوز على صنوف التصفيق والتهليل المبالغ فيهما من أم محبة!

كانت أمي مولعة بنصوصي، بما فيها أخطائي الإملائية وسرقاتي الأدبية، وكانت تعرف بأن معظم ما أكتبه مستعار من كتب زودتني هي بها، ولكنها مع ذلك لم تكثر، أرادت لي أن أكتب، رأت فيّ ما لم أراه فيّ، وآمنت بي بما لا يدع مجالاً لتخاذلي، كان علي - في تلك

الأيام على الأقل - أن أجاريها، أن أكتب لها، أنسخ أي شيء من أي كتاب وأعطيه لها.. شوفي يا ماما كتبت قصة! وكان وجهها يشرق، وكأن كل شيء تفعله هو من أجل هذه اللحظة، لحظة أضع نصاً بين يديها، حيث وجهها يشرق.

المفارقة أنني بت أقرأ أكثر، ليس بفضل إلحاحها ولا آمالها العريضة المعلقة على كتفي، بل من أجل ذلك الجوع الفادح الذي صار ينخرنني من الداخل، الجوع الأبدي الذي يتعذر إطفأؤه إلى قصيدة أخرى، وحكاية أخرى، وفكرة أخرى، جوع إلى النافذة اليتيمة صوب العالم المتعذر، العالم الذي لا يشبه هذه الحياة، في هذا البيت.. حيث كل شيء يبدو غريباً وجديراً بحكاية، حيث تعرف - جيداً - كم هو مفرح أن تكون بطلا في رواية.

ما حدث هو أنني تفت إلى نصي الخالص، إلى عالم روائي أخلقه أنا، أقطر فيه دمي، ألوئه بأفكاري، أنشر في هوائه برادة عظامي، كنت أنتظر أن يهطل عليّ ذلك النص الذي أكون سيدة لحظته، ولم يعد بوسعي أن أمنحها ما تريد، إشراقة الوجه، وموجة التصفيق، وجملة الآمال العريضة المثبتة على كتفي بالمسامير والخطاطيف.. لو أنها تفهم فقط، بأن هذا الخرس الكتابي، هو أول ملمح من ملامح حقيقتي ككاتبة، لما قتلتني إلحاحاً وأشعرتني بلا جدواي!

بدأ جذعها يهتز وهي تذرع الغرفة بمشيها، وتردد: لازم تكتبين.. لازم تكتبين! يبدو أن أمي قد جنت، ولم أفهم لماذا كان الأمر بهذه الأهمية، لم أكن بذات السذاجة لكي أفسر الأمر على أنه محض إيمان بموهبة واعدة، كانت الكتابة - على حد تعبيرها - هي النافذة الوحيدة التي سأحظى بها لسنوات طويلة، وتساءلت، لماذا لا تكتب هي إذا؟ لماذا لا تفتش هي عن تلك النافذة.. بين بضعة أسطر، ما الذي يجعلها تلقي بالعبء كاملاً عليّ وأنا لما أبلغ الثامنة عشر من عمري؟

- جلست على حافة الطاولة الدائرية في وسط الصلاة..
- مضايي.. ما أدري.. ما أدري شلون أشرح لك.. بس..
- شفيك يمه؟
- فهاد بيرجع.. بالسلامة.. و..
- وفي محاولة لاختزال المشوار الوعر، سألت: يمه إنتي مو فرحانة إنه فهاد راجع؟
- بلى.. فرحانة.. فرحانة حيل والله..
- ومسحت دمعيتين عالقيتين في طرفي عينيها، وهمست "اشتقت له كثير".. وأطرقت هنيهة، ثم أردفت:
- بس إنتي.. أخاف عليك إنتي..
- ليش؟
- زفرت طويلاً، ثم أردفت..
- مضايي.. لما راح فهاد.. صار لك عالم.. اهتمامات وهوايات..
- مابي فهاد ياخذ منك هالشي!
- .. -
- مايبك ترجعين مرة ثانية ما عندك سالفة إلا فهاد قال.. وفهاد فعل..

كانت أمي تحدثس بضعفي، تعرف بأني معرضة للانجذاب إلى ذات المدار، وتعرف كم أنا بارعة في أن أدور في فللك، وأنا المدربة على ذلك منذ ولادتي، المهيشة لك منذ ولادتي، أنا التي ولدت من أجلك أصلاً! أليست هذه هي التعاليم التي لقتها لي جدتي؟ والآن، تريد لي أمي أن أوجد لبي كياناً مستقلاً في هذا العالم الأعور، وفي صمتي ذاك، عرفت أمي بأني أتفهم مخاوفها، وأتواطأ معها، وبدا للحظة أنها سرّت بالتعبير الذي اكتسبته وجهي، ووجدت الميدان ممهداً لكي

تكون أكثر دقة، نهضت واقفة، ثم مالت بجذعها لكي تقابلني بوجهها،
عيناها في عيني، كل شيء في وجهها يتكلم:

- أقولك بصراحة؟

- ايه؟

- أنا ما ودي تتزوجين فهاد!

وكانت تلك المرة الأولى، التي تطرح فيها فكرة زواجي منه بهذا
الشكل العلني، المكشوف، المخيف، هي التي طالما رددت بأن الزواج
بعيد ولا ينبغي لطفلةٍ مثلي أن تفكر فيه، ربما كان السبب أنني، في
الثامنة عشر من عمري، وفي هذا الجزء من العالم.. لم أعد طفلة!
وجدت أمي أنها مضطرة لكي تناقش معي أمر زواجي، كان خوفها
أبلغ مما ظننت.

- يمه..

ولم يكن أمراً مريحاً بالنسبة لي، أن أناقش فكرة كهذه معها،
وأنا المدربة على الصمت أمام خاطر الزواج، كيف يسعني الآن أن
أنتكر لتلك النواميس التي من شأنها أن تجعل (أو لا تجعل) مني فتاة
فاضلة؟ وضعت سبابتها على شفيتها مشيرة عليّ بأن أصمت، لتخبرني
بأنها تفهم جيداً كم هي الكلمات متعذرة، وكم هو الأمر مخيف وجدي
أكثر مما تحتمله أعوامي الثامنة عشر، ولكنها مع ذلك واصلت:

- أنا أحب فهاد! لازم تتأكدين من هالشي.. بس يستحيل أقبل

إن سعادته تكون على حساب سعادة بتي..

وقبضت على كتفي.. بيديها..

- إنتي بتي.. فهمتي؟ إنتي بتي مضاي! إنتي بتي بس!

رددتها مرات عديدة، ربما لأنها تعرف كم هو صعب عليّ أن
أصدق أنني وحدي ابنتها، وأنها تمنحني كل هذا الكم من الخصوصية

بعد كل تلك السنوات من الأمومة المكثمة، بدأت ملامح وجهها تتخذ شكلاً أكثر جدية وحادّة، وبصوتٍ يشبه الفحيح قالت:

- إذا تزوجتي فهاد ولد علي عمرك ما راح تطلعين من هالبيت!
وراح تظلين طول عمرك تحت جناح جدتك تامر وتنهي عليك، إذا
تزوجتي فهاد عليك ما راح تكونين سيدة قرار نفسك ولا راح تحققين شي
في حياتك.. إذا تزوجتي فهاد راح يصير فيك إلي صار ف شهلة!
هل هذا ما حدث لشهلة إذا؟ أنها تزوجت خالي علي؟

ثمة امرأة مغربية تقف على باب البيت تطلب جدتي، أرسلتني جدتي لأدخلها إلى البيت، ولكي أكون مهذبة حملتُ عنها أغراضها، كيس أبيض فيه الكثير من ليف التفريك وعلب سوداء غامضة، تنبعثُ منها رائحة غريبة.

جلست المرأة إلى جانب جدتي، وبدأت - من فورهما - تتفاوضان على السعر: لا يا مليكة عشر دنانير واجد.. الماي ماينا والمكان مكانا.. تراه سعرك ما يسوى وأكثر من خمس دنانير منيب دافعة، وإذا ما عجبك تيسري وأنا أجيب غيرك بساعة زمان!

فشرعت المرأة في فتح العلب السوداء لتعرض على جدتي ما بحوزتها من "الخلطات" المصممة خصيصاً لتلائم طقوس "الحمام المغربي" وعلى مستوى "ملكي" أيضاً، وراحت جدتي تسخر - تقريباً - من كل ما عرضته المرأة عليها: وش ذي؟ طحينة وحليب وليمون.. عندي في بيتي طحينة وحليب وليمون.. تشترينها من البقالة بربع دينار وتبيعينها علي بعشر دنانير؟ وش ذي! يعني يكون خلطة ملكية! عسل وخالطة معه سكر.. عندي في بيتي عسل دوغني أصلي، وسكر بني وسكر أبيض وسكر ناعم وسكر نبات بعد! يله امشي أهوه.. هي خمس دنانير ما فيه غيرها! وفري خلطاتك هذي حق زباين غيرنا، أنا عندي خلطاتي ومابي منك إلا الصابون المغربي و"تفريك" البنات!

اضطرت مليكة - بعد مشوارٍ وعر من المهانة والإحباط - أن توافق على سعر جدتي على مضض، وما بدا في البداية مثل مشادة جادة حول مقادير "طبخة" ما.. كان في حقيقته مفاوضات حول ما ينبغي أن يتضمنه "الحمام المغربي" الذي سيشملني وفطوم بمناسبة.. بمناسبة أي شيء؟! بحثُ بين الأعين عن أمي، رأيتها تتأملني من ركنها الفصامي

وهي تغالب مشاعرها بالفزع بشعورٍ كاذب بالأريحية، تحاولُ أن تضاحك جدتي: يمه.. وش له تحميمين البتتين.. وراهن عرس؟ حدست جدتي بالأفكار التي تصول في رأس أُمي الفزعة إزاء كل هذه الطقوس التي تلتهم ابتها، لأيّ شيء؟ والفتى يخرج من السجن قريباً؟ وعوضاً عن أن تفصح عن أفكارها، أفكارها الحقيقية، الباردة، العارية والمخيفة، تقدمت خطوتين مني وقامت برفع كمّي لتكشف عن زندي، ثم لوت ساعدي مشيرةً إلى كوعي: شوفي كوع بتك شلون أسود!!

يا جسدي المنفي المقصي المطرود المحتجب إلى ما وراء الما وراء، يا جسدي العصي الغامض المستحيل المبهم البهيم المتعدد الكثير الذي لَمَّا يُكتشف بعد معناه ومغزاه ودلالاته ومفرداته! هل يمكن أن يكون كوع الفتاة بهذه الأهمية لكي تخصص لتفريكه خمسة دنانير؟! تساءلتُ وأنا أنظر في عينيها وهي تنظر في عيني، وأنا أتوحد بها وتتوحد بي، أذوب معها في كلانية واحدة، وأنا أنظر في وجهها وأقرأ أسئلتي، متى أصبح العري مستباحاً هكذا؟ كيف ألفنا الاختباء والاختفاء والغياب لكي نجد أننا في نهاية الطريق، في معية المرأة الغريبة، وسط الضباب، مستسلمتين، بما يكفي من اللا فهم، ليديها والماء والصابون والعسل والحليب والليمون، الأشياء التي عرفناها طوال حياتينا لماذا أصبح لها معنى جديداً هنا، ومغزى جديداً تماماً، وحكمة تفتح متأخرة أمام عيني! أنا التي دربتُ طوال حياتي على أن أنكرك يا جسدي، على أن أنفيك فيما وراء إدراكي! لكي تصبح شيئاً يتجاوز حكمة الظهور وخرافة التجلي، يتجاوز مغزى الانبعث في اللحم والرحيل في التجربة، يتجاوز حقيقة الميلاد وبدئية الموت، متى صار كاحلي (جوهرياً) هكذا؟! وأظافري! مالها وأظافري؟! لماذا ترمقني المرأة شزرأ، لمجرد أنني أخبئ الحبر الأزرق تحت أظافري؟ ويدها التي باتت تجوس في جسدي، تروح وتجيء، تفعل ما دربت على فعله تماماً.. يدها تلك، لماذا صار لها كل هذه الصلاحيات، وتحت أي مبرر، أي مسوغ، باتت المرأة الغريبة تتمتع بحقوق على "جسدي" لم أنعم بها يوماً! تناولنا واحدة فأخرى: ساقها فساقِي، كاحلها فكاحلي، إبهامها فإبهامي.. وأنا التي لم أنظر إليها يوماً، وهي أختي الوحيدة في هذه الدنيا، على هذا القدر من القرب، وهذا الكم من العري، وهذا الحجم من الافتضاح، رأيتها تشبث بعيني وغصة

بحجم سؤال عالقة في حلقومها.. تبحثُ فيّ عن رد! أنا التي كنت دائماً النصف الذي يحظى بالأجوبة، ويتباهى بالفهم، ويبدد الغموض، تحاشيت عينيها، أسمر نظراتي إلى السيراميك الأبيض، والبخار الذي ملأ المكان: عيني ورثتي، أسمر عيني إلى الفراغ الذي تحمله الحقيقة في بطنها، وأتساءل عن خرافة الجسد، وأوهام الاختلاف! يدها فيدي، جبينها فجيبني، أنفها فأنفي! وأنا التي ظنت، بكل سذاجة العالم، بأن لا شبيه لك يا جسدي، وأنا التي سحرتها أحلام التغيرات، والتميز، وكل هذا الدجل، أصبحتُ هي! في خضمّ العري، ووسط الضباب، ليس ثمة ما يجعلني أختلف عنها.. يدها يدي، ساقها ساقي، بطنها بطني.. في غرفة السيراميك والبخار والصابون الأسود الذي يملأ أنفي، كانت المرأة تتعامل مع جسدينا بأقصى ما يمكن من العدل والمساواة! تراودني تلك الفكرة المفجعة إلى حد بعيد، الحزينة إلى حد بعيد.. أني، وبكل بساطة، كان يمكن أن أكون هي، أن أولد هي، أني على بعد شعرة من أن يكون لي جسدها ويكون لها جسدي، وأنا وسط الضباب والبخار مثل روحين هائمتين فوق جسدين يتعرضان لسنوف الإرهاب التجميلي، تحلّ الواحدة - بالخطأ - في جسد الأخرى ثم ما تلبث أن تنسلخ ثانية، وتساءلتُ مراراً.. وأنا أسكنها، وأنا أحل في جسدها وأحرّك ساعدها / ساعدي كما لو كنتُ أكتشفه، لماذا لا أشعر بأنني أخرى.. وأنا هنا، وأنا هي، لماذا أبدو وكأنني أنا في جميع الأحوال؟ لماذا؟!

نورة

استمرت طقوسك التجميلية أسبوعاً، وأنا أراك، يا طفلي التي صار لها جسد امرأة، تختزلين إلى جسدك، وتعاينين على أساسه، أرى جدتك تتفحص فخذيك وتطعمك المزيد من اللحم، عظامك ناتئة، هزالك حزين.. وهي تبحث فيك، له، عن مزيد من الاستدارة.. لماذا؟ وأنتِ لما تتجاوزي الثامنة عشر؟ يخيفني السؤال، وأنا أراك مخطوفة من يدِ إلى يد، تتناوبك النساء، واحدة تملس شعرك، واحدة تهذب حاجبيك، وتلك التي استطاعت - بقدرة قادر - أن تقنع جدتك بأنها تستطيع بالمساج والكريمات أن تجعل وركك أكثر امتلاءً، وخصرك أكثر نحولاً! تجيئك كل يوم، تمدك على السرير وتبدأ في (تكوير) وركيك بالمساج والكريمات.. وجدتك العصية على الاختراق، كيف تستسلم لكذبة بهذه السخافة؟!

أرى ابنة أختي تنسابُ مثلك، مستسلمة لطقوس التجميل والدجل الجسدي، وأعرف بأنه قدركما أنتما الاثنتين، أن تشارك الواحدة الأخرى مصيرها، ولكنني في الوقت ذاته كنتُ ألمحُ في طرف عين جدتك شيئاً يخصك وحدك! كنتُ أجملُ، وكان هذا قدرك وحدك، كان لعنتك وذنبك وامتيازك الذي لم تحوزيه عن رغبة أو سعي، كنتِ تكافئين / تعاقبين عليه، في مساء كل يوم، عندما تنصرف النساء، وتمكثان لساعة العشاء.. ملتصقتين مثل قطتين، كان ضوءك واضحاً، وكانت بساطتها جلية، وكان الأمر يخيفني.

كنت أرمقك من نافذة عجزتي وأهمس بصلواتٍ تخصك، لكي يخلصك الله من براثن النساء، وعبثاً يا بنيتي حاولتُ أن أخترق رأسك، أن أفهم تلك المعاني الجديدة الـ باتت تتكشف في عينك، تتفتح مثل

نباتات سامة! تراكِ كانت تروقكِ تلك الطقوس؟ تراكِ فتننِ بسطوة
الجسد ومدى حساسيته؟ تراكِ أخذتِ بمدى الأهمية التي يوليها العالم
لكوعكِ وكاحلكِ و..! تراكِ تتوقين لاكتشاف جغرافيتك أخيراً؟!

لم تمر بي لحظة إلا وهكذا خواطر تدور في خلدي، حتى عندما
تأمركِ جدتك فجأة أن تأكلي تفاحة حمراء من شأنها أن تهب بشرتك
شيئا من نضارة وخديك بعضا من تورّد، كان كل شيء تفعليه لها
وتفعله بك يصبح له مغازي مخيفة في رأسي.. وحاولتُ، يشهد الله
أنني حاولتُ، أن أكون صوتك الحيّ الذي يختلي بك ليلاً، يخبرك عن
كل إمكاناتك واحتمالاتك، عن لا نهائية أحلامك، يخبرك بأن بوسعك
أن تكوني أكثر من جسد طازج في سرير زوج، أن تكوني أكثر من
أمك! فهل كنتِ لتسمعي؟ وهل حسبتِ للحظة بأنني لم أنتبه لكِ وأنت
تحولين عينيكي عني لكي لا ألحظ فيهما هذا البريق الجديد، وصنوف
الافتتان التي تعتريكِ؟ رددتُ عليكِ: إذا تزوجتِ فهاد ستصبحين لا
شيء سوى زوجته، فهل يكفيك ذلك؟ هل تريدينه؟ وأنتِ بهذا السن..
بهذا الجهل.. بهذه السذاجة؟ هل تريدينه؟ وكنتِ تردين دائماً.. آه يا
ماما أنا تعبت.. ب أروح أنام! وكنتُ أموتُ كمدأ.. يا صغيرتي.. كنت
أموتُ كثيراً.

موضي

لم أنم تلك الليلة، من شدة الإعياء ومن شدة الإثارة، وقفتُ أمام المرأة وخلمت بنظروني وأنا أتساءل هل أصبح وركي أكثر تكوراً حقاً؟ شرعتُ أتفحصني شبراً شبراً، كلما عثرتُ على شامة أو ندبة طفولة أو ذكرى حطت بالخطأ على أديمك يا جسدي.. أشعر بأنني أجنحُ خارج خارطة المفترض، لأكون الأنثى البضة رقيقة الجلد ممتلئة الجسد وكل الأشياء التي عملنا معاً لتحقيقها في، جدتي والنساء الغربيات ورقية وخالتي هيلة وأنا وفطوم، تدهن يدي بالكريم وأدهن يدها بالكريم في صمتٍ متواطئ، لم أكن أدري بأن هناك أشياء كثيرة أفلها لك وبك يا جسدي! علي أن أعوض خلال أسبوع ثمانية عشر عاماً من الإهمال، وأنا أصبح في كل يوم أكثر إدراكاً لمغزى الأمر ولا أمانع، رغم صوت أمي الذي ينخر رأسي أن لا أنخرط في الأمر، أن أحضر كجسد وأسافر كروح، أن أعلق قلبي بأي شيء إلا هو.. ورغم كل شيء، كل شيء، كانت شياطيني يقظة تماماً وكنتُ راغبة!

جلستُ على طرفِ السرير بعد ساعة من الوقوف أمام المرأة، الساعة تجاوزت الثالثة فجراً بدقيقتين، خطرت شهلة ببالي عنوة ورغم محاولاتي لتجنب ذكراها، تساءلتُ كيف هي، لم نرها منذ بلغنا الخبر، وكأن الفرحة لا تخصها، كيف حدث لها كل هذا، ألم تكن الكأس المقدسة التي حدث كل شيء من خلالها؟ لماذا تبدو اليوم، على الأقل في ميزان جدتي.. بلا قيمة؟ هزرت رأسي، أمله أن تتساقط أفكار من رأسي، أقنعت نفسي بأن شيئاً كهذا لن يحدث لي أبداً، لا بد وأنها أخطأت في أمر ما، وأنها تدفع ثمنه اليوم كل هذا الصمت والغياب وأرطال من الشحم..

مساءً الأمس كنت ممددة على بطني والمرأة الغريبة تعمل عملها، تكنس اللحم من هناك وتكدسه هنا، تملأني هنا وتفرغني هناك، فطوم أيضاً ممددة على بطنها، فيم رقية تفرك ظهرها بالفراولة والكيوي والسكر البني، جدتي توبخها كل يوم لأن ظهرها زاخر بالبثور الحمراء، دخلت جدتي إلى الغرفة التي تحولت في الأيام الأخيرة إلى صالون تجميل، وانخرطت مع المرأة في نقاشٍ طويل.. حاولت المرأة - عبثاً - أن تقنع جدتي بأن جلسات المساج تلك قد أفضت إلى بعض النتائج المرجوة، وتخبرها كم إنشأ ازددت هنا ونقصت هناك، كل شيء مدون على الورق، وجدتي لا تصدق الورق، لا تصدق إلا عينها، بدأت تتحسس تقعر خصري وتمتمت للمرأة هامسة بشيء ما، فاطمة جسدها يحمل مقومات لأنوثة أكثر ثراءً، تهمسُ لها المرأة، يستبد الضيق بوجه جدتي، تخبرها: لا، لا.. خليك ف مضاي..

تقولُ أمي بأن اهتمام جدتي منصب عليّ هذه المرة، ولأول مرة في حياتي: جدتك تقدر الوجه الجميل، عندما خطبت شهلة لخالك كان كل ما تراه جدتك هو حلاوة وجهها، جدتك تخلط وجهك بوجه ابن خالك كل يوم وتخطط لما ينبغي أن تكون عليه وجوه أطفالكما! جدتك كبرت وتريد أن ترى أولاد فهاد أكثر مما تريد أي شيء في حياتها، الأمر لا يخصك ولا يعينك بأي شيء، وهي لا تريد منك أكثر من وجهك، وما تملكينه عدا هذا الوجه تملكه فاطمة شبراً شبراً، جدتك لا تحبك بشكل خاص فلا تفرنك هذه المعاملة الخاصة.

كلام أمي موجه، وهي تقوله خصيصاً لكي تصدر بهجتني بخصوصية حلمت بها طوال عمري، وفي رأسي، كنتُ واقفة إلى جانب فطوم، نرتدي ما يشبه مريول الروضة الأزرق في مكان يشبه فاترينا محل رخيص، وفهاد.. فهاد سيختار؟ هل هذا ما سيحدث؟ هل

ستحدثه جدتي بأنه بات رجلاً الآن (أليس السجن أيضاً للرجال؟) وبأن عليه أن يختار امرأة؟ امرأتين؟ هل سيفعل؟ هل ستكون جدتي واضحة ومباشرة معه، أم تراها تنفق كل تلك الأموال في تجهيزنا لكي يحدس بالأمر بنفسه؟ لكي يرانا نحن الاثنتين وقد نضجنا وامتلات تفاصيلنا بالأنوثة؟ ما الذي سيحدث لنا، بعد كل هذا؟ وأرواحنا التي تورطت في رغبات جديدة؟ ما الذي سيحدث إذا اختار واحدة؟ ماذا سيحدث للأخري؟ ولماذا سيختارني أنا؟ ما الذي يجعلني بذات الاختلاف؟

الثالثة والنصف..

أغادر غرفتي، فالشقة، أنزل الدرج إلى خارج المبنى، أبحث عن نافذة فطوم، أنقر الزجاج، متأكدة أنا بأنها - مثلي - لا تنام.

- مضايي؟

تفتحُ فطومة الباب، وجهها يعرف الكثير عن زيارة من هذا النوع، تحدسُ بما سأقول، تفتح النافذة على مصراعها:

- تعالي.

- لا، فتحي لي باب الشقة.. أخاف أوسخ ملابسني!

وليس من عادتي، خاصة بالنسبة لزيارات في مثل هذه الساعة، أن أكثرث لملابسي، لعلي أردتها أن تعرف كم أنا جادة فيما يتعلق بهذا الجنون الشكلائي الفجائي؟ هل كانت ملابسني تهمني إلى هذه الدرجة أم أنني أردتها أن تحسب لي ألف حساب؟

دقيقة وكانت واقفة عند الباب، تهمس لي بأن أدخل، دلفنا على أطراف أصابعنا إلى غرفتها، أسرع تندس تحت لحافها وتمددت على ظهرها وهي ترمقني بنظرة ثابتة، كانت تعرف - مسبقاً - كل شيء عن زيارتي، أوليتها ظهري، واتجهت صوب مراتها، أفتح علب الكريمات والمكياج والمفردات التي أصبح لوجودها معنى مؤخراً، أحس بعينيها

تفحصان جسدي، إنها لا تحاول استعجالي كي أتكلم، كنا متفاهمتين
على أتم وجه، نقول الأشياء كلها في تواطؤ الصمت والليل والأحلام
الوشيقة، التفث، وجهها البريء، الممعن في السذاجة، طفولتها الـ ما
زالت، وفكرت - رغماً عني آه يا فطومة كم أحبك، أيتها الشقيقة
الغريمة!

- شوفي فطوم!

رفعت عينيها إلى عيني في ترقب فظيع، ازدردت ريقى و..
واصلت:

- أوعدك، إن إذا اختارك فهاد، إذا طلع يحبك إنتي.. إنني ما راح
أشاركك أو أنافسك أو.. أخرب عليك.. أو أحاول أخذه منك.. أو..
- أنا بعد.

- وعد؟

- وعد.

آه، ها قد حصلتُ منها على ما أريد، أن لا ينتهي جنوننا الجديد
إلى حربٍ شوارع بيني وبين الأخت الوحيدة التي حظيت بها طوال
حياتي، كنا قد قررنا أن نلعب بنزاهة، إكراماً لتلك السنوات، قررنا أن
لا نجعل الأمر أقبح مما هو عليه.

رقية

1

أي بني! افتح باب البيت على أتم ما يمكن من الرفق، وأرق ما يمكن من الفرح، وأبهج ما يمكن من الألم، افتح باب البيت وشد مصراعيه على جانبيك، وادخل حزننا - يا صغيري - باتساع صدرك! وفيم أنت تيمم شطر الوله، وتأهب لاحتضانِ عالمك.. عالم النساء السابحاتِ سبحا.. السابقاتِ سبقا.. المدبراتِ أمراً، توضاً يا صغيري بوجهِ جدتك، بالزمن إذ يتغلغل في السحيق من محياها، بالأخايد التي تشق حضورها عميقاً صوب الوجهِ الموجوع، المفجوع بحضورك، الفرح بما يتجاوز الفرح، الشمل بما يتجاوز اللغة، ادرس المشهد كما ينبغي، من يدري.. قد تكون هذه أول وآخر مرة، تشهد فيها جدتك خروجك من السجن! وفيم أنت تمد ساعدك على جنبيك، تخاصر بكل واحدة أمأ، فيم أنت تهمس، إذ تريح رأسك بين صدرين ناهدين.. اشتقت لك يمه! لتذوب الأمين بكاءً في حضورٍ واحد، بين عينك، وبين ساعدك.. جسدين لأم واحدة، تسأل.. وين أمي شهلة؟ طلتك بتبسم، جبينك يشتعل ضوءاً، جدتك ترتجف وهي ترى وجهه في وجهك، صوته في صوتك، قلبه في قلبك، يجيئك الجواب من أكثر من فم: أمك شهلة في غرفتها.. أمك شهلة، ما عادت تستطيع نزول الدرج، اصعد لها أنت! تسلقك الأعين، اللثامات التي تحط على جبينك باتت تحط على كتفيك، أصبحت لك قامة رجل، امتد جذعك عالياً، ونبت ذقنك، و.. آه يا ولدي لو تعرف كم هو قاسٍ ورائع، أن يعود عليّ حياً من خلالك! أن تجيئنا اليوم بالرجل الذي اختل عالمنا بمضيه، كانت قلوبنا

تضحّج بك، تهتف لتفاصيلك، فيم أنت تجلس - مثلك مثل أبيك - بين قدمي جدتك، تدلك أصابعها، تبتسم بعينيك.. شلونك يمه؟ وترى عيناها تسحان الماء الأليم، أمك غيضة يا فهاد! أمك غيضة تبكي.. تخيل! لأن مضيك لا يكون إلا فاجعة، ومجيئك لا يكون - أيضاً - إلا نكبة من فرح، وجدتك التي باتت تتعثر بالكلمات، تبحث عن حرفٍ سقط هنا، عن حزنٍ عثر هنا.. يا ولدي كيف كان سجنك! كيف كان حزنك؟ ماذا فعلوا لك وفعلوا بك.. وكيف يسعك بعد كل هذا الوقت أن تعود بهيا هكذا، وسيماً هكذا، كيف يسعك أن تتحول - فجأة - إلى الرجل الذي أردت لك، دون أن أشهد أنا ذلك؟ كيف يسعك يا علي أن تموت، أن تقنعني بموتك ثم.. تعود إلينا أجمل! وهذا الفتى الوسيم، الذي حط خفيفاً بين يديّ، وعلى كتفيّ، وفي قلبي.. أليس ابني الذي ربيت، أليس طفلي الذي أنجبت؟ لو شققت صدره بالسكين ألن يسح من عروقه حليبي أنا؟ أليست هذه اللحظة هي كل شيء، كل ما أردته في حياتي، وكل ما عملت عليه طوال سنيّني؟ وكنّت تراها، فيم عيناها تغوران في مجاهيل الذكرى، كل شيء في وجهها يرتجف، تمد ذراعيها صوبك.. بوهن، بكل إعياء العالم، تحاصر وجهك بكفيها، تزم شفيتها لتشهد - بأم عينك - وجه جدتك وهو يستسلم للزمن، أمام سطوة انبعاثك وتفجر رجولتك، أمام وجهه الذي أزهر - أخيراً - داخل وجهك، جدتك التي استعادت عنفوانها عنوة، منذ موت أبيك، التي ترفض بكل شبرٍ من جسدها أن تكون تلك العجوز.. تذبل الآن أمام ناظرِك، يتقوّس ظهرها ويرتخي خذاها ويرهل جبينها وتهن عظامها، في لحظات معدودات أسلمت غيضة جسدها للزمن.. يمه شفيك؟ تعبانة؟ رأيتها تشيخ، أمام شبابك ووجه أبيك، ورحت تصفّ لها الوسائد، ارتاحي يمه! ارتاحي.. بسم الله عليك.. بسم الله عليك الرحمن الرحيم.. يدك تمعن في تدليك كتفيها، تغمضُ جدتك، تفتح ثغرها بصعوبة.. رح يا يمه سلم على أمك تراها ناظرتك منذ مبطي! أمك سهلة، لماذا تذكرتها غيضة

الآن؟ تنهض واقفاً، تخاصر أميك الأخيرين وتمشي وسط ابتهالاتي..
تمشي.. وأنا أشهد انبعث أبيك وقيامته تحل في جسدك، تمرّ بي..
تبتسم لأمك السوداء في ظهر الخارطة، تخبيء دموعها في شالها الأسود
وتمسح أنفها بكمّيتها.. يمه رقية شلونك؟ وألثمٌ وجهك، تشد على يدي
وتمضي.. تمضي وأميك الأخيرين تمشيان على الهواء، ترقصان وتبكيان
وتضحكان.. ولم أرى في حياتي شيئاً أجمل، ولا تعبيراً أبلغ عن الفرح،
من أقدام حافية تطير..

تصعد الدرج أربع فأربع، تحلق ونحلق وراءك، يمه! صوتك ينادي
سهلة، محفوفاً بالزغاريد، أبشري يا أم فهادي ولدك وصل! تدفع الباب،
تراها.. وقد تضخم حجمها ثلاث مرات آخر، جالسة على رأس سريرها
تحاصرها الوسائد، لا تستطيع النوم أو الوقوف أو المشي أو الحراك،
لا تستطيع إلا أن تتضخم أكثر، تشلك المفاجأة.. تراها وتراك.. تفجع
أنت بدمامتها وتؤخذ هي بجمالك.. تمد لك ساعدها الضخم، جلدها
المترهل يتأرجح ويترجح أسفل زندها، ملامح وجهها غارت عميقاً في
الذاكرة، المرأة التي تتضخم في الوجع وما انفكت تتوجع منذ ميلادك..
تمد لك يداً، إن جاز أن نسميها يداً! ترى عليها آثار عضاتها الآثمة،
ينبعث صوتها من قاع ألمها: علي!

- يمه أنا فهاد!

- علي!!

- يمه..

تتجاسر، تخطو خطوتين أخيرين.. تطبع على رأسها قبلة..

- علي!

- لا يمه أنا فهاد..

- علي إنت رجعت!!

- لا يمه..
- خالتي باعت المحلّ..
- يمه؟
- ولدك خذوه..
- يمه!
- وإنت توك تجي؟
- ..
- لا هلا ولا مرحبا!
- !!!

2

تبعناك إلى غرفتك، رأيناك تقبض على رأسك بيدك وتسد
كوعيك إلى الحائط، تولينا ظهرك، لعلك كنت تبكي؟ شفيها أمي
شهلة؟! سؤالك الحائر يرفرف ذبيحاً فوق رؤوسنا..

- أمك تعبانة..

- شفيها أمي؟!!

- أمك ارتفع عندها الضغط والسكر.. وصارت فآخر الأيام ما

تشوف زين!

- إلا تشوف زين! هي شافتني زين! تقولي إنت علي.

- تخربط! تخرف!

- شنو يعني تخربط وتخرف؟ هي مجنونة؟

- هي تعبانة!

- أمي تحسبني أبوي.. وتقولي.. تقولي..

تشهق بصعوبة تطلق نشيجاً:

- تقولي لا هلا ولا مرحبا!!

- لا يمه هي ما تقصد!

- إلا تقصد!

- لا يمه..

- هي تقولي.. لا هلا ولا مرحبا.. ليش؟ أمي شهلة ما تحب

أبوي؟! هاه؟!!

- إلا تموت فيه!

- لا تضحكون علي!

- أمك تعبانة..

- هي تقول..

- هي انجنت يوم خذوك.. محتاجة وقت حتى ترجع زينة..

تلتفت نحونا، تغرز عينيك في عيوننا.. تمسحنا بناظريك..

- من متى وهي بهالحالة؟

أي حال.. تقصد؟ حال المرأة التي تحمل في جسدها سبع بقرات

سمان؟ أم حال المرأة التي جننها الخذلان وأطارت صوابها الوحدة؟

أم تراه حال المرأة التي باتت "تجدف" ضد كل ما أردناك تؤمن به،

ضدك وضد أيك وضد إرثك وكل ما أنت عليه اليوم؟ تبادلنا نظرات

متواطئة: لا ينبغي لغيضة أن تعرف بما حدث!

رفعت رأسك، وكأنك ما عدت راغباً بجواب، ثم سألت أخيراً،

عن الشيء الوحيد الذي يهكم..

- يمه..

- سم يمه؟

- وين فاطمة وموضي؟

فاطمة

.. قالت أمي غيضة بأن علينا أن نبقي في غرفنا لكي يلتقي أمهاتِه أولاً، لماذا قالت ذلك؟ هل تظنين بأننا لو كنا معهن في لحظة اللقاء كنا نسرق منهن لقاءه؟ أنا تساءلتُ عن ذلك، وأنتِ.. ماذا كنتِ تفعلين؟ عندما نادتنِي أمي، وقالت بأن ابن خالي يريد أن يسلم عليّ أتيتهُ راكضة، هكذا أنا، ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أتصنع الكبرياء والغموض، أنا أبسط من ذلك، ولكن أنتِ يا موزي، أنتِ داهية، تواريتِ عندما بلغ شوقه إليك تمامه، عندما لفظ اسمك جهراً، تعمدتِ ذلك، تعمدتِ! قد أكون فتاة بسيطة يا موزي، ولكنني لستُ غبية أبداً، عندما قالت أمك بأنك لا تستطيعين رؤيته الآن لأنك مريضة.. آآآه يا موزي كم أنتِ كاذبة! وشعرتُ أنا، وأنا في خضم لهفتي ووضوحي، بأن سقفا قد تهالك فوق رأسي، هل تدريكين ما فعلته بي؟ أولاً، جعلتني أبدو تلك البسيطة المفتقرة للغموض وما إلى ذلك من أمور عرفتُ متأخرة كم يقدرها الرجل، وثانياً احتفظتِ بلحظة لقائكِ به لكِ وحدك، بعيداً عني، وعن أمهاتنا الثلاث ورقية و.. آه يا موزي كم أنتِ بارعة! وأنا التي احمرّت خجلاً وتأثراً بإفراط: شلونك فهاد! يا لسخف المشهد! كنتُ قد مشطت شعري وغطرت ملابسني وفعلت كل شيء بصورة صحيحة، ابتسم لي بلطف، آه يا موزي لو أنك رأيتِ ابتسامته.. كانت جميلة ولطيفة وكانت تخبرني بالضبط ماذا أنا، وماذا أنتِ! كنتُ الأخت العزيزة التي لعب معها في صغره، وأنتِ، كنتِ ابنة الخالة، البعيدة العصية التي تسرح في عالم مفارق، التي ينبغي على المرء أن يخترق في سبيلها مناطق نائية، مناطق لا يلتقطها عقلي يا موزي، ماذا أفعل! هل أدعي بأن في جداري نافذة؟ وأدعي بأن لسي عالماً آخر، وأدعي بأن كل ما

يحدث في هذا البيت لا يخصني ولا يعنيني ولا تدور حوله حياتي؟
لم أكن مثلك! كنتُ ألبس مثلك وأكل مثلك وأقلدك في كل ما تفعلين
حتى بدأت جنوحك صوب.. صوب ذاتك ربما؟ لا أدري، تخلّيتِ
ببساطة، وأنا الممعنة في الوضوح، التي تنشر دواخلها على السطوح،
التي يقول وجهها كل شيء.. أنا التي.. آآه يا موزي يا لكيدك! أنا
التي جئتُ ركضاً لاكتشف بأن الرجل لا يريد امرأة تركض، بقدر ما
يريد امرأة تغيب، تجمدتُ يا موزي، تجمدتُ تماماً.. عرفتُ لحظتها
بأنني خسرتُ أمامك، بأنه سيدخل إلى غرفته وهو يفكر بك، بك أنتِ،
أنتِ الوحيدة التي بقيت.. مشروع لقاء مؤجل.

- فهاد يمه إنت تعبان.

- رح غرفتك نام لك ساعتين.

- أنا أصحيك حزة الغدا.

تراحمت أصوات الأمهات، نظرَ إليّ مرة أخرى.. ولمستُ خيبتته،
كريهة وباردة، ابتسمَ ابتسامة أخيرة ثم دخل غرفته وأقفل من دوني
الباب.

هو

لم يكن لينام.

مضت سبعة أيام بدون أن يراها، وظلت بدورها تفتعل الحجج واحدة بعد أخرى، سبع حجج لسبع أيام من التناهي، تتمتع وتمعن في الغياب حتى ما عاد يفكر إلا بها، كيف هي؟ هل كبرت؟ ولماذا لا تريد أن تراه؟

الليلة لديه إحساس مختلف، ثمة ما يجره من تلايبيه يدفعه للقفز من سريره، يشعر على نحو حتمي وغير مفهوم بأنه سيراها بعد قليل، يسمع صوتها من داخل رأسه، كان متأكداً من أنه صوتها، كان أوضح وأنقى من أن يكون حلماً، ألقى عنه اللحاف والوسائد، قفز يرتدي بنطلونه وركض يصعد الدرج، هذا الشعور القوي الذي يجرفه إلى أعلى، إلى فوق، هذا الشيء الملحاح في داخله الذي يشده من قلبه وأذنيه وجميع جوارحه.. لم يعهد جوارحه وقد اتفقت في رغباتها هكذا قط، يقفز الدرجات، يطير.. يطير.. يطير.. يفتح باب السطح، يندفع للخارج، يملأ صدره بالهواء الحيّ .. يراها، كما حدس تماماً، كما رآها بعين يقينه، ها هي وقد أسدلت شعرها، وأسندت ذقنها على كفيها، ترتدي بلوزة بيضاء وبنطلون أبيض، وتطلّ - تقريباً - على نافذة غرفته.

التفتت صوبه وابتسمت على حياء، هل يفرح أم يغضب؟ يسألها معاتباً:

- طبتي أخيراً؟

- ايه.

أشارت له بيدها كي يقترب، كي يريح ساعديه على سور السطح

ويتأمل معها - تقريباً - نافذة غرفته، تعترف.. لم أكن لأقبل بأن نلتقي، بعد كل هذا الغياب، معهن! يحتج: لم تتصلي! ترد بعناد: لم أكن لأقبل بأن أراك، بعد كل هذا الغياب، بناء على رغبتني وحدي! يرد محتجاً.. أنا طلبتك كل يوم، اتصلت بك كل يوم، رغبت بك كل يوم! بات كل شيء واضحاً ومتطرفاً مثل هذا الليل، اقترب خطوتين، أسند ساعديه على السور، امتلاً بعطرها، سرب إليها نظرات سريعة، شعرها أطول، وجهها أحلى، وثمة أمر آخر..

تفتح ثغرها ثم تطبقه، تفتحه وتطبقه.. وكأنها تبحث عن كلمة ما، وعلى مهل:

- الحمد لله ع السلامة.

- اشتقت لك.

لا يبدو عليه أنه يواجه أي صعوبة في أن يقول شيئاً كهذا.. يسألها صراحةً..

- ما اشتقتي لي؟

- يعني!

- كذابة..

وابتسم حتى بان نواجذه..

- اعترفي مثل ما اعترفت لك..

- ومثل ما اعترفت لها؟

- منو؟

- فطومة.

يضحك: بعد كل هذي السنوات ما زال يطيب له أن يرى أنهما تتقاتلان حول حيازته، تماماً كما الأيام الخوالي، ومنذ سني الروضة، وحتى قبل ذلك..

- وساد صمت، تلكأت لتسأل:
- كيف كانت أيامك؟
- سؤالك غبي مضايي.
- وابتسم بأسى، ثم أردف معاتباً:
- ما زرتيني..
- أمي غيضة ما رضت أنا وفظومة نزورك...
- ليش؟
- ما أدري.. تقول المكان مو للبنات.
- في آخر الأيام، ما قام أحد يزورني أصلاً، ولا حتى أمي غيضة.
- في آخر الأيام ما عاد أحد يحس بأحد..
- ..
- البيت مات!
- وساد صمتُ حزين، تجرأت ثانية، كررت السؤال:
- ما قلت لي.. كيف كانت أيامك؟ شسويت هناك؟
- سؤالك غبي! غبي!
- شدّ خصلة من شعرها كما كان يفعل طفلاً، لولا أنه ما عاد طفلاً، وهي.. أمست امرأة، يمتلى صدره برائحتها، الأنوثة التي باتت تبرز على السطح باستحياء وكل هذا الليل، لو أنك - أيها الزمن - تتجمد، ألن يكون ذلك رائعاً؟!

حوارية جسدين

أدرين؟ قالت عيناه: هذا الموقف أكبر من قدرتي على الاحتواء، وأنا - مؤخراً - مهووس بالاحتواء! ما الاحتواء؟ الاحتواء هو تلطيف ساذج لمعنى السيطرة، بعد أن تفني ثلاث سنوات من عمرك في زنزانة ما، حتى لو كان سجنًا طيباً يعلمونك فيه القرآن والنجارة ومسح الممرات، فأنت تخرج من ذلك السجن الطيب، السجن السخيف فعلاً، وكل همك هو أن تصحح خطأ العالم.. عالمك، فما بالك لو كنتِ أنتِ الخطأ الوحيد في المشهد؟ تحاول ترتيب الأمور، تنفخ الغبار من هنا وتسكب الماء هنا.. (يعني!) أشياء من هذا النوع، تدربت على فعلها لثلاث سنوات! والآن أخرجُ لأحط ثانية في الأرض التي أقصبتُ عنها وأقصيت عني، وأرى النساء اللواتي أوثث بهن حياتي يملأن عالمي وأراكِ.. جميلة بشكل مريب، أين ضفاتركِ؟ وماذا حل ببطنك المدورة، كيف تقعر خصركِ هكذا وأصبحت تشبهين نساء الحلم؟ اللعنة! - هتفت عيناه - اللعنة يا موزي على كل شيء جميل لا أستطيع السيطرة عليه، اللعنة على هذه الاهتزازات البذيئة التي تنبت في أطراف جسدي، تشدني إليك.. نحوكِ، صوبكِ و.. اللعنة على الانجذاب غير البريء، خبيث أنا، مخيفٌ وضعيف - صوبكِ - كما ينبغي لرجل، لو تأخذيني إليك، لو..

أدرين؟ قالت وجنتاها: لو أنك تتعد خطوة إلى الخلف لتعيد ترتيب المشهد على مهلٍ؟ متخلفة أنا عنك.. قليلاً، أحاولُ أن أمنطق يدك التي تلتف حولي، وأنفك الذي يبحث في شعري عن عصفورٍ ذبيح، صوتٌ في رأسي يصرخ بي لأركض، لأذر ساعدك ممدودتان

في الفضاء وأركض حتى يتلغني الهواء، خارج السطح والبيت والطفولة وكل شيء يشدني اليوم إليك، وصوت.. صوت رذيلٍ ورخيماً وذو سطوة يهمسُ لي لأرضخ، أليس هذا ما أردته طوال حياتك؟ يسألني الصوت الرذيل، وفيم أنا أنقسم فيك ولك وبك.. أتشظى وأملأ هذا الليل و.. أرسل عيني صوب نجمة يتيمة تلمع وحدها مثل شامة بيضاء تنبت في جلد الليل، كانت عينك تقول شوقاً وتوقاً وأشياء أخرى..

أتدرين؟ قالت يداها: أتحسس أجساداً غريبة داخل رأسك، طوال ثلاث سنوات بقيتُ أتساءل عما يحل بك، فيم أنا أمسحُ الغبار، أكنس نشارة الخشب، أقطعق مسامير مخلوعة، أرى كائنات جديدة تسكنك، تبعث ذبذباتها اللعينة في الفضاء وتخبرني بأنك لستِ أنتِ تماماً، رغم أنك - وبكل جوارحك - أنتِ! لن يفهمك أحد كما أنا.. تريدان أن تعرفي ماذا يعني أن تمضي ثلاث سنوات في "الأحداث"؟ يمكنك أن تستلقي على ظهرك، تغمضي عينيك نصف إغماضة و.. تفتحي عينيك لترى جسدك في الأسفل ممدداً، يمكنك وقتها أن تطيري إلى مجاهيل كثيرة، إلى غرفة فتاة نصبت أرجوحاتها بين الصمت والكتب، إلى رأس فتاة شدت رحالها صوب مدنٍ لا توجد إلا في رأسها، إلى دمي محشوة بالقطن وقصاصات قصائد.. أو تصديقين؟ كنتُ أزور عالمك - في رأسي - كل يوم، كلما انصرف عني الناس تمددت على ظهري وطرتُ إليك، أتجسس على روحك وهي ترفرف - جميلة ومرتبكة - هنا وهناك، ما حاجتك بالعالم وأنا هنا.. ألا أملؤك كفاية؟!

أتدري؟ قال صدرها المشرع للمدى: كما لو أنك تتسرب من ثقب ماء، تسيل على مهل وتعبئ كل شيء، هذه اللحظة تمتلئ بك، وذلك الثقب الصغير! لماذا احتقرته إلى هذا الحد؟ كيف كان بوسعي أن أتجاهل أمره، لماذا لم أرقعه بجلدي، بربلة أذني، بأرنبه أنفي، بكعب حذائي؟ سمحتُ لك بالنفاذ عن عمد وكأنني أختبر قدرتك

على السيلان، أختبر حجم رغبتك في أن تنفذ إلي من الثقب الصغير
مدججا بكل ما يلزم، التاريخ المشترك واللغة المشتركة ووحدة المصير،
وأنا ما فتئت أمتلى بهذا الهواء الجديد ذي النكهة الغريبة، أشهق الأسئلة
وأنفخها في الهواء، أراها تطيسيسيسيسير.. انفخها معي يا ابن خالي،
لننفع الأسئلة معاً!

أتدرين؟ قالت بطنه: عندما تجوعين يكون أمامك خياران، أن
تجهزي على جوعك أو أن يجهز عليك هو.. وأنا، مدفوع بكل غرائز
البقاء، التهمتُ جوعي كله، وطوال ثلاث سنوات كنتُ أقاتُ عليه،
بمعنى آخر كنتُ أعتاده.. ولكن الآن، الحياة تشع فاهها، وكل احتمالاتها
أمامي مثل وليمة، هل أئب؟ هل أغرز نواجذي في كبد العالم وأخذ
اللحظة - كاملة - إلى قلبي؟ يقولون بأن أولئك الذين تصوروا طويلاً
إذا جربوا الشبع سيموتون، وأنا أريد أن أكل بقدر ما أريد أن أعيش،
أريد أن يمتد الزمن، أقصد: يتجمد الزمن، وأتذوقك على مهل، أخبرتك
تحت لساني، تذكرين كيف كنتِ تخبئين مكعبات السكر في جيبك لكي
تدسيها خلسة في فمي، بدون أن ينتبه أحد؟ آه يا قطعة السكر!

أتدري؟ قالت ريلة ساقها: في كل لحظة تمرّ تبدو فكرة الهروب
أكثر منطقية، التفاتة فاستدارة فوثبة فخلاص.. طوال عمري أردتُ
أن أتمرد على جاذبية مدارك، أن أنطلق - وحيدة - في فضاء مفارق،
طوال حياتي صليت لأجل التيه، بقدر ما وجدتُ أمامي صنوف الأجوبة
لأسئلة لم أسألها ولم تخطر ببالي! بقدر ما شككت بك أمنتُ بك،
بقدر ما كرهت سطوتك انحزتُ لك، بقدر ما تجاهلتُ وجودك داخل
رأسي أحببتك، هذه اللحظة حيثُ أنا لا أهربُ منك، وكل شيء فيّ
يصرخ بي للهروب.. هذه اللحظة هي اختياري المحض، اخترتُ أن
أعيد ترتيب العالم معك.

موضي

1

الساعة الثانية إلا بضعة دقائق بعد منتصف الليل، ساعة الوعد ومنذ عشرة أيام وعشرة لقاءات، أخلع بيجامتي وأبحث عن فستاني الأسود قصير الأكمام، أو الأبيض الذي يتفخ كالبالون، كلما عثرت يدي به بنظرون أو بلوزة رميتها على الأرض، ها هو، فستاني الأبيض! أنتزعه من أحشاء الدولاب وأنسل إلى داخله، أمشط شعري على عجل، كيف غفوت؟ هل يعقل أن أغفو؟ سأذهب هكذا، بوجه الطفلة هذا؟ يردد علي طوال الوقت أن لا أتأخر، كيف يعقل أن يطلب أحد ذلك من حبيبته؟ إذا تأخرت في الحضور.. ألا يجعلني ذلك أجمل؟ لا يهم! أستطيع أن أتسلق حائطاً وأصل إلى السقف متأخرة ومبكرة بما يكفي ليرضى كلينا، أليست هذه هي معادلة السعادة؟ أسمع معدتي تقرر، لم أكل شيئاً منذ مساء أمس، نقص وزني عشرة أرطال في الأيام العشرة الأخيرة، بنظروناتي تنزلق عن جسدي، لا أنام ولا أكل.. أحبه وحسب، أنتظره عند النوافذ، أنتهد وأفعل كل ما تفعله سعاد حسني وفاتن حمامة وسميرة توفيق، عاشقة نموذجية أنا، أضع الوسائد تحت اللحاف وأتمنى لها أحلاماً سعيدة، أطفئ النور وأتسلل على أطراف أصابعي..

- موضي؟

رأيت عيناها تلمعان في الظلام.. يضاوان عميقتان مثل مغارتين موغلتين في الكآبة، أفرغ بوجودها: بسم الله! يمه؟! تمتد يدها صوب قابس الضوء، تنير الغرفة، تراني متأهبة وراغبة

وذاهبة، تفتعل الهدوء والروية والحكمة، تحاول أن لا تفزعني أكثر مما هي تفزعني، واضح أنها تأهبت لهذا اللقاء جيداً، تحفظ كلماتها عن ظهر قلب، تتقن دورها الأمومي المفترض، وتعرف بالضبط ما هي على وشك أن تقول:

- موضي ممكن نتكلم شوي؟

- آآه.. آآه..

فهاد ينتظرنني فوق، لا يحب أن أتأخر.

- ما أقدر يمه.. مرة ثانية، أنا بروح!

- قعدي، ليش مستعجلة؟!

و بنبرة ساخرة..

- الليل طويل!

أجلسُ على مضض، عيناى تجوسان في الغرفة، الضياع يغمرني، كل ما يحدث يخبرني بأنني في مأزق، وكل ما أفلت عليه هو أن لا أتأخرُ على لقائه، أحتضنُ ساقى بيدي وأشبح بوجهي بعيداً، أحرق إلى النافذة وأنا أشعر بالذ وأقسى صنوف الحرمان، كم اشتقتك في هذه الثواني القلائل يا حبيبي!

- مضاي.. كلميني، أيبك تكلميني مثل ما تعودنا أنا وإنتي..

...

- شاللي صار وخلاك بعيدة عني هاليومين؟

...

- أنا أدري عن كل شي، لا تظنين إنك طول هالأيام تتصرفين

بدون معرفتي..

.. -

- أدري إنك تحبينه..
- .. -
- أعرف بالضبط شنو تحسين!
- .. -
- و فاهمة إلي تمرين فيه..
- .. -
- بس كنت أتمنى إنك ترجعين لعقلك..
- .. -
- كنت أظن إني ربيتك صح عشان تدورين على مصلحتك إنتي..
- .. -
- كنت أظن إني عزلتك عن تأثير أمي وأختي و..
- .. -
- إني حميتك منهم..
- .. -
- بس.. واضح..
- وتحشرج قليلاً، بدون أي تأثير مني:
- واضح إني فشلت!
- .. -
- وإلي حاز بخاطري أكثر.. إنك عزلتيني أنا عن حياتك، صرنا ما نتكلم.. صرتي تتحاشيني.. أنا ما أقدر أشوف بتي الوحيدة تجني على نفسها وأسكت!
- امتلاً صدري فجأة بأشياء كثيرة، لا أعرف كيف تدفقت الكلمات من فمي بهذه السرعة، وكأنه شيء أردت أن أقوله طوال حياتي:

- يمه أنا ما أجنبي على نفسي، أنا أحب فهاد وفهاد يحبني بغض
النظر عن موقف أمني غيضة، فهاد ما له ذنب في أي شيء، فهاد ضحية
نفس الأفكار إلي سيطرت على حياتي، إذا كنت أنا ضحية، فهو أكبر
ضحية.. هو ماله ذنب إذا كانوا صنعوا منه ولي أو نبي أو قاتل أو أي
شيء! ليش ندفع أنا وفهاد ثمن أخطاء ما ارتكبتها؟

وبدالي لو هولة أنها سررت لمجرد أنني بدأت في الكلام، بقدر
ما سررت أنا بقدرتي على الرد! بدأت تهز رأسها.. تظهر لي - بقدر
الإمكان - أنها تهتم بما أقول، وتأخذه على محمل الجد، وفيه هي
تهز رأسها بشيء من الاصطناع، كنت قد بدأت في الانفجاء:

- أنا أحب فهاد بغض النظر عن أي شيء! ما يهمني شنو الناس
تشوف فيه، كافي إني أحبه!

- إنتي تظنين إنك تحبينه، بس فعلياً إنتي ما تدرين! إنتي قاعدة
تسوين إلي تبرمجتي عليه طول عمرك، الشيء إلي كل الناس إلي حواليك
أفنعوك إنه الطريق الوحيد لسعادتك.. إنه يكمل حياتك ويحقق لك كل
شيء، إنتي يا يمه تتصرفين مثل ما قالوا لك، مو مثل ما إنتي متصورة!
إنتي مو طرف حر في هالعلاقة، إنتي طرف مسير يتصور إن الحب
اختيار..

- الحب مو اختيار يمه، الحب قدر! أو مثل ما تقولون قسمة
ونصيب، وأنا أحب فهاد، لو ما كان ولد خالي علي، هم كنت راح
أحبه!

جسدي يرتجف وشفتي.. قوة عظمى تجتاح روعي، الحوار الذي
ابتدأ بمنتهى النضج استحال إلى صراخ طفلتين مذعورتين.

- لا تخدعين نفسك بهالأوهام! أنا أمك وأدرى بمصلحتك..

- وأنا مو صغيرة!

- لا تكبرين عليّ! مو بنتي إلي تكبر على الحقيقة..
- الحقيقة إلي هي وجهة نظرك؟
- الحقيقة إلي هي الحقيقة! الحقيقة إلي أي إنسان عاقل راح يقر فيها..

- الإنسان العاقل يعني إنتي؟!؟

وفي ثورة عارمة طارت ذراعي في الهواء، في وجهها رميت
 علب الأدوية ومضادات الاكثاب المرصوفة على الطاولة منذ سنين،
 اشتد جذعي واقفاً، صحت بأعلى صوتي (يمه إنتي شتبين مني؟ تبيني
 أعيش وأموت وحيدة معاك بهالشقة! تبيني طول عمري أكتب قصايد
 عن الحرمان إلي أحسه عشان تقرينهم وتفرحين فيهم؟ تبيني كل يوم
 أشوفك تدمنين هالحبوب وتنامين وتهلوسين ومحد في البيت هامة! أنا
 تعبت! ماني قادرة أتحمل هالعيشة! مليت! حرام عليك يمه مليت!
 وألحين تبيني أسوي مثلك؟ أضيع حياتي ف هالغرفة آخذ مضادات
 اكتاب وأتمنى أموت؟ حرام عليك يمه! حرام عليك!)

رأيت عينيها محمرتين غاضبتين، رأيتها تنفث تلکم الكلمات
 بصوت لا يشبه صوتها: يا خسارة تربيتي فيك يا بنت الكل...

ابتسم وجهي ساخراً، أوليتها ظهري ومضيت لألتقيه.

- وين رايحة؟!؟

تشدني من شعري.. أتملص منها..

- قلت لك وين رايحة؟!؟

- محد له شغل أنا وين رايحة!

- بتروحين له؟ شتروحين تغبرين معاه فوق.. بروحك

بالسطوح؟!؟

- محد له شغل فينا!

- يا وسخة!

- أنا حرّة.

- يا قدرة!

أنتفض، أعض على يدها، أركض، تسبقني إلى الباب، تشدني
من فستاني، أذفعاها، يرتطم رأسها بالجدار.. أفتح الباب.. تستدركني
بوعيدها الأخير..

- يكون بعلمك يا مويضي! زواجك من فهاد لا يمكن أوافق
عليه!

- مو لازم!

- أ يا قليلة الأصل!

- أصلا إنتي عمرك ما وافقتي على شي يخصني، وطول عمرك
كل شي يصير عكس رغبتك، شمعني هالمرّة لازم توافقين؟!
وأوصد الباب في وجهها بعنف..

أهمسُ لي:

- كافي أمي غيضة موافقة!

2

كنتُ قد تأخرت على موعدنا لساعتين، لأظهر أمامه - فجأة - وأنا
ألهث وأبكي، بأنف محمر، وأعين متورمة، بفستاني الذي قد من دبر،
بكيثُ بين ذراعيه وسط ذهوله العارم..

- مضاي! شفيك؟!

...

- قولي لي مضاي! شصاير؟ شفيك??

...

- شفيك مضاي!

- فهاد!

- سمي!

- اليوم..

- أيه؟

- اليوم أنا تخليت عن أمي.. علشانك..

- شنو؟! شلون!

- اليوم أنا أثبتّ لك إخلاصي..

- موضي! إنتي مو بحاجة لهاالإثبات!

- فهاد!

- ليه!

- يا ويلك..

..

- يا ويلك تخذلني!!

فطومة

وبختني أمي طوال خمسة عشر يوماً، وصار عندي عشرات الألقاب الجديدة (غبية، بليدة، قبيحة، و"معفنة")، عندما يبلغ قنطها مني أوجه تخبرني بأنني قد خيبت جملة آمالها، بأنني البنت التي تتمنى لو أنها لم تحظى بها يوماً. لو أنك تحسّين يا موزي بي قليلاً، كنتُ أحترق منه ومنكِ ومنها.. أختي في غرفتي طوال النهار لأواري سوءة خزبي، ليس ثمة شعور أسوأ من أن يلفظك الآخرون هكذا، كنتُ أموت كمدأ أمام عينيه في كل مرة ابتسم لي فيها ابتسامته اللطيفة الكريهة، وأعرفُ بأنك تظنين بأن القدر قد أنصفك، وبأنك أحق به مني، تظنين بأنني أريده لأحوز على حظوة جدتنا العظيمة، أو لأجعل أمي امرأة فخورة، أو لكي أنتسب - بشكل أو بآخر - إلى ابن الشهيد، وتظنين بأنك تريدني لأجلك أنت فقط، ولكن الحقيقة أنني أردتُ - مثلك - وبمتهى البساطة أن يحبني وأحبه، كان كل شيء حولي يابساً ومجذباً، تمددت على ظهري ورحت أحرق في السقف، الصمت الجليدي الذي ملأ عالمي وقلبي كان شيئاً يصعب اختراقه، للحظة، لتلك اللحظة على الأقل، كان جل أمانتي أن أنتحر وأرتاح مني.

دخلت أمي غرفتي، وقفت على الباب هنيهة تتفحص ابتها، ولا يعجبها ما تراه، أسندت جذعها على الباب، وكانت بطنها - مرة أخرى - مكورة بطفل جديد، أوليتها ظهري، وصممت في داخلي أن أكون صماء طوال الساعة المقبلة، يخترقني صوتها خادشاً روحي: بعدك منسدحة؟ إنتي ما وراك هاليومين إلا التسدح!

و في رأسي كنتُ أردد "طوط، طوط، طوط" .. أنغمس في مكاملة متخيلة من طرف واحد، الخط مشغول يا أمي اذهبي أنتِ وبطنكِ إلى حربٍ أخرى، تمايلت وتهادت حتى باتت قريبة من سريري، أشارت لي أن أزيح جسدي لكي تجلس، على مهل باعدت ما بين ساقها وجلست، نظرت إليّ ثانية.. هي كريمة جداً معي اليوم! تمنحني التفاتات مجانية

وغير مسيبة! تنهدت بعمق، أنفاسها تغوصُ عميقاً في روحي.

- فطومة يمه.. هي كلمة ورد غطاها..

ألتفتُ صوبها، كانت المرة الأولى التي تستخدم معي فيها تلك
الكلمة الطيبة: يمه!

- كلمة ورد غطاها!

تكرّر..

- إنتي ما ينقصك عن مضايوي شي، ومضايوي ما تزيد عنك
بشي.

وكان ذلك - كما يمكنك أن تتصوري - أجمل شيء سمعته في
حياتي! كانت المرة الأولى، والوحيدة، التي لا تحط فيها من قدري
وتشعرنني بأنني أمامك أقل وأحقر و.. شدتني كلماتها من أذني لكي
أجلس، متربعة أمامها، أسألها أن تقول المزيد! كنتُ جائعة إلى كلمات
حلوة.

- إنتي بنتي وأنا أعرف بنتي عدل، إنتي مو ناقصة، ولا عايبة، ولا
ينقصك شي، وإلي ما يشوف زينك هذا حمار عينه مخرومة!
وبدأتُ أضحك، راق لي أن أتخيل فهاد بن علي تبت له أذنا حمار،
ابتسمت أمي، متى كانت آخر مرة ابتسمت أمي في وجهي!؟
- بس فهاد..

- فهاد مو حمار، محشوم ولد أخوي! بس بنت ابليس خلته
يركض وراها مثل الأهل، محشوم ولد أخوي!
ابتسمتُ، يبدو أن أمي لا تستطيع الكف عن الشتم على أي حال،
وسبابها لا يخصني وحدي.

تدير ذفني صوب وجهها وتصرّ:

- بس مو معنى هذا إنك تستسلمين بهالسهولة!

- يعني شسوي يمه؟! خلاص هو حب مضايوي وهي حبه.
- بلا حب بلا بطيخ! ماكو شي اسمه حب! هذ اسمه هبال
مراهقين!

تعرفين بأن أمي لا تؤمن بالحُب!

- سمعيني زين! أنا بأعلمك شتسوين.. وإذا سمعتي كلامي -
بحيل الله - بتشوفين ولد علي يرجع لك ركض.. يشترك إنتي ويبيعها
بتراب.

- شلون؟

- أنا أقولك شتسوين.

أوليتها كل ذرة من اهتمام وتركيذ، وأردفت:

- شوفي يمه، أيبك تروحين كل يوم عند شهلة وتاخذين معاك
صينية الغدا، وتأكلينها.. طبعاً لازم تبينين لها إنك تحيينها صدق، وتقولين
لها مثلاً.. هذا زين لصحتك، هذا موزين، سوي لها عصير أناناس خليها
تحس شوي.. يعني صيري ذكية! عرفتي شلون؟!

- زين!

- و أهم شي إنك ما تطلعين من عندها إلا فهاد شايفك ومار
عليك ومسلم عليك بعد، وتقولين له إنك مسوية له شوية سندويتشات،
وكيك.. وجاية له ككاو!

- فهاد يحب الككاو!

- أدري يالهيلة! صدق إنك على نيالك!

- يمه!

- صه بس! خليني أكمل.. طبعاً ما تطلعين من عند خالتك شهلة
إلا إنتي منظفة المكان عدل، ومرتبته، ومبخرته بعد!

- زين يمه إذا أمي شهلة ما رضت تاكل!

- مصمة إن شاء الله! لا تقولين أمي شهلة.. من اليوم ورايح
تنادينها خالتي.. فهمتي؟ خ ال ت ي.. خاء ألف لان (!) تاء ياء..
زين؟

- زين.

- إنتي لازم تكسينها صوبك، سوي لها كل شي.. إن بغت تروح
الحمام وديها، إن بغت أحد يقص لها أظافرها، قصصها، وإن بغت تغير
ملابسها ساعديها، وإن بغتك تتطمشين معاها على "دعاء الكروان" ولا
أي هباب، خلك شاطرة وقعدي حولها.. ونسيها عدل.. طلعي زينك
بنيتي فهمتي؟

- ايه!

- إذا كسبتي أم الولد تكسين الولد، خليها حلقة بإذنك وأنا
أمك..

- زين.

- والله الله بالمساج، تعلمي تفننين فيه.. خليها تمدحك جدامه،
تقوله إنك سويتيلها مساج ولا منه! خليه يكتشف فيك كل يوم شي
جديد.. فهمتي؟

- ايه.

- وإياني وإياك تروحين له فوق وإنتي لابسة هالخلاقين! أبيك
تكشخين عدل، تسوين شعرك "بالششوار" وتلفينه "بشباصة" سنعة
وتعطرين من العود البورمي الأصلي، ولا تدخلين عليهم إلا وإنتي
بيدك شي.. يوم كنافه، يوم عصيدة، يوم ككاوا!

- يمه!

- مصمه! سكتي بس أهوه.. بدت تتدلح، موب لايق عليك بس

شسوي فيك! بتي ومالي غيرك.. المهم قومي ألحين أهوه، قومي تسنعي
ولبسي "نفنوفك" الأصفر.. وحطي "بخديداتك" شوية بودرة لا يقولون
عنك فيها "بو صفار"! فزّي أهوه، وبعدين تعالي المطبخ أكون جهزت
لك شي تاخدينه معاك، ولا أبي أشوفك إلا بالليل.. وإذا قالت لك
خالتك تنامين عندها نامي عندها ولا عاد تجيني فاهمة؟ مابي أشوفك
بعد.. فاهمة؟

هو

كانت هناك في تمام الموعد، ممددة على أرضية السطح في بقعة اللقاء إياها، الغبار يغطي ثيابها ويملاً منخريها ولا يبدو عليها أنها تمنع، تغطي عينيها بساعدها الأيمن، ترتدي بلوزة زرقاء وينظلون رمادي، تسأل ماذا حل بالفساتين التي يحبها؟ إنها - ومنذ أسبوع على الأقل - تبدو متعبة بما يتجاوز التعب، لم يتجهج لرؤيتها، لماذا أنت طالما أنها بهذا المزاج المغبر؟ سألتها ملاحظاً:

- مضايقي؟ شفيك؟

تردّ، بدون أن ترفع ساعدها عن عينيها، بدون أن تنظر إليه: أبي أنام!

- تنامين هنيه؟

- أي مكان!

رفعت ساعدها عن عينيها، كانت عيناها محمّرتين ومتورمتين، واضح أنها كانت تبكي قبل دقائق من وصوله.. تربع جالساً على شمالها، بدأت أصابعه تتسلل داخل خصلات شعرها.. تجوس فيه، شعر بثقل نبضات قلبه، بالعالم يتجرد من ألوانه، عندما يصب فتاته الحزن يصبح العالم كله أسود، همس سائلاً: شصاير؟

زفرت بضيق، وكأنها لا ترغب بالخوض في الأمر، بقدر ما هي لا تملك شيئاً آخر تفعله، وبدأت تشكو من فورها:

- صار لنا أسبوع ما نتكلم، أسمعها تبكي بالليل وطول النهار تام، تاخذ حبوب تخليها تهلوس، وإذا حاولت أكلها تقط بويهي أي شي: مزهريّة، مخدة، نعال! إنت وحظك!

- طيب يمكن لو أكلمها أنا..

زفرت من جديد، ثم حسمت الأمر بردٍ مقتضب:

- بلاها هالسيرة!

واغرورقت عيناها بالدموع، سمحت لنفسها أخيراً بأن تخبره:

- أنا من وعيت على الدنيا وأمي تحذرنى من إنى أحبك وأرتبط

فيك.

- ومع هذا حبيبتى؟

اعتدلت جالسة، وهي تنظر إليه.. الثقب الأسود في عينيها يمتص
روحه، اكتسى وجهها فجأة بلامح قاسية لا يعرف من أين جاءت،
وبصرامة قالت:

- لا تطلب منى في لحظة إنك تكون في حياتي شي أكثر من

حبيبي.

ابتسم، قبض على يدها وسأل: فيه أكثر من هالكلمة؟

- بس أمهاتك..

- موزي! خلاص عاذ.. أنا أدري أنا منو بالنسبة لأمهاتي، وأدري

أنا شنو بالنسبة لك.

وبدا أنها قرّت أخيراً، عادت تستلقي على ظهرها، تتأمله بعينيها

الكبيرتين الحماوين، شعورٌ بعدم الارتياح صار يتابه من الطريقة التي
تنظر بها إليه، شعر بروحه تشيخٌ وتهترى في مواجهة عينيها، تساءل كيف

يسعها أن تكون سحيقة هكذا؟

- فهادي؟

- سمي..

سألته وهي تبتسم: من إنت؟

حدس بضيق بما تريد الوصول إليه، فإذا كان يعرف من هو بالنسبة
لهن، ويعرف من هو بالنسبة لها، فهل يعرف من هو بعيداً عنهن وعنهما؟
هل يعرف من هو أمام نفسه؟ أبعد يده عن كفها وزفر: سؤالك ماله
جواب.

تصعر وجهها بابتسامة ساخرة،

لسان حالها يعاتبه: دائماً تهرب من هذا السؤال!

نهض واقفاً والضيق يعتمر فؤاده، أولها ظهره وأمعن في تأمل
الليل والسؤال.. ما الذي تريده منه؟ ولماذا تجنح دائماً إلى فلسفة كل
شيء، أي عاشقة هذه التي تحوّل كل لقاء غرامي إلى مناظرة فكرية؟ لا
يمكن للإنسان أن يعرف ذاته بدون الآخرين؟ إذا كان ثمة من يعتقد بأنه
ابن الشهيد الولي صاحب الكرامات فكيف يمكن أن لا يكون ذلك، وإذا
كان ثمة من يعتقد بأنه القاتل ابن الإرهابي فكيف يمكن أن لا يكون
ذلك أيضاً؟ إنه النقيضين معاً جنباً إلى جنب، ولا يستطيع أن يعرف نفسه
إلا من خلال ما يعرفه الآخرون عنه، الآخرون هم المرأة الوحيدة التي
تملكها عنا، أليس كذلك؟ لو ترك في صحراء جدد مترامية وخالية،
لو وجد نفسه وحيداً في الصحراء، فمن سيكون؟ سيكون لا أحد، لا
أحد! إن صورته التي يملكها عن نفسه هي خلاصة الأفكار المتناقضة
التي كونها الآخرون عنه، إنه مكتمل ومتحقق وواضح!

أما هي، فلا يمكنها أن ترضخ لأفكار الآخرين، وأن تقبل بها
كمسلمات، لا يمكنها أن تكون واضحة وبسيطة هكذا، كأن تكون الفتاة
العنيدة، أو الابنة الناشز، أو الحفيدة صاحبة الوجه الجميل، تريد أن
تكون أكثر من ذلك، تريد أن تختار ما تريد، لا أن تتورط بمجموعة
مواقع تشغلها في شبكة العلاقات، ولا أن تُعرف على أساس ما تفعله
فتكون "طالبة" أو "كاتبة" مثلاً، ولا تريد أن تنتسب إليه ولا إلى غيره..

كأن تكون حبيبة الفتى، أو ابنة الرجل الذي لا يريد أن يكون أباً، تريد الوجه المجهول منها، من قدرها، الجانب المعتم الذي لما يكتشف به، ولما يتحقق بعد، تريد أن تكون هناك.

كان الفارق بينهما شاسعاً! فطوال حياته، وحتى قبل ولادته، كان ابن الولد وصاحب الكرامات الذي ضخ اللبن في الضروع الخالية وعجز الشيطان عن أن يلكزه، كان كل المطلوب منه هو أن يعبى القوالب المخصصة له سلفاً، وأن يقيس نجاحه وفشله كإنسان بمدى قبول الآخرين ورضاهم، ولكن هي.. التي تبحث عن إمكاناتها، كل يوم في حياتها يضيف إلى رصيدها الذاتي، وكل يوم في حياته هو تحصيل لحاصل مكتوب، كانت هي السؤال، وكان مزدحماً بالأجوبة!

غرق الاثنين من أفكارهما حتى الألم، كيف يمكن أن يتألم إنسان من فكرة؟ من كيان يستطيع أن ينفيه أو يثبته بنفس القدر، كيف يستطيع أن يغضب من مادة لا يفقه كنهها؟ شداها إليه من ساعديها ودفنها فيه عميقاً، يهمس بأذنها.. أحبك، وهي.. يحس بوجعها وهي بين يديه، عصفورة عديمة المنقار، تنقسم بين رغبتها بدفعه وحلمها باحتوائه، يوشوش في أذنها: شش! ششششش! تشد جذعها بعيداً عنه، تعتدل جالسةً وهي تضم ساقها إلى صدرها بقوة، ترمقه بنظرة سريعة، تبسم فيبادلها التبسم، يدس يده في جيبه ويخرج لها قطعة شوكلاتة، بقرطاس أصفر لماع، تدهش، تخطفها من يده وترفعها في الهواء، لو أنها تلمع.. لو أنها تملأ العالم بريقاً للحظة.. لو..

يردف..

- تذكرين؟ نفس الككاو إلي كنا ناكله في الروضة..

- من وين لك! يبيعونه في الدكان ليلحين؟

- عطنتي إياه فطومة.

يتغير وجهها، تلتفت.. شياطين تتوعد في عينيها، تهتف ذاهلة:

- فطوم؟؟؟

- ايه.

- آها..

بدأ وجهها يكتسي حلة باردة، ضحك مغتبطاً: يا حلوك وانتي
غيرانة!

تبتسمُ بوهن، ترسل عينها إلى البعيد.. تفكر - للحظة - بأن
عليها أن تنام قبل أن تمشخ إلى خفاش، تطأطئ برأسها، ابتسمت
بأسى، همست لنفسها: خاينة!

- غريب.

- شنو الغريب؟

- غريب إنك في كل مرة نكون في سيرتها تتكلمين عنها وكأنها
عدوتك، بس وجهك يكون دايمًا مبتسم!

- لأنها أختي.

- و تحبينها موت!

- ايه، بس تقهرني..

- ليش؟ عشان عطنتي ككاو؟

- لأنها ما عزت نفسها قدامك.

- يعني لأن البنت عطنتي ككاو صارت تتدلل لي؟ البنت هذي
على نياتها وما تقصد شي..

- والله إنت إلي على نياتك!

قامت من مقعدها بعصية، تحاول أن لا تنظر إلى وجهه، انفرجت
شفتها بألية: تصبح على خير، ومضت تنزل الدرجات على مهل، هزيلة،
مریضة، ومتعبة.

فاطمة

علبة "الكلينيكس" في وسط الطاولة، أشرطة الفيديو متحاذية، تقف على الأرفف تلتصق ظهورها ببطونها، بوسعي أن أضيف مزهريه هنا، اليوم سأطلب من رقية أن تشتري لنا ورداً أحمر، نعم لنا، أنا وفهاد وخ ال ت ي.. في هذه الشقة الصغيرة الدافئة، حيث الصمت لا يخدشه إلا شخيرها الذي يتسلل عبر الباب، كل شيء في مكانه الصحيح.. أنا، في وسط غرفة الجلوس، أرتب الوسائد، وهي، الموشكة على الاختناق أبداً، في مكانها الصحيح، وهو نائم لم يزل، ما الذي يبقيه ساهراً طوال الليل لكي ينام حتى المساء؟ أين يذهب وماذا يفعل وما علاقتها هي بالأمر؟

أنهيت عملي تقريباً، ملأت الهواء بالبخور، مسحت الغبار، نفضت الوسائد، غسلت الصحون، سقيتها عصير الأناناس مع جرعتها اليومية من الأدوية، ولبيت جميع طلباتها الأخرى، أخذتها إلى الحمام، مشطت شعرها لأنها لا تستطيع أن ترفع يدها، وكلما نادتني "فطيط! فطيط!" بصوتها الذي يتسرب من منخري أنفها، ونخراتها التي لا تنتهي، أتيها مليية، سمي يا خالة، أبشري يا خالة، حاضر يا خالة، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، صرت أخبرها بأنها تبدو جميلة في الصباح، بأن "الدراعة" الخضراء ثلاثم لون بشرتها، بأنها تبدو وكأنها نحفت خمسة أرتال من خديها فقط، أقول لها أشياء تجعلها تضحك وتترجج.. الله يقطع سوافك يا فطيط! تعالي بس شغلي لي دعاء الكروان، ونترجج معاً على دعاء الكروان، نبكي على ذات المقاطع، نردد حوارات الفيلم ونرتله ترتيلاً، كان فيه بنتين حلوين.. لقد قمت بكل شيء على نحو جيد، ولأنتي - وأنا في عقر داره - يندر أن أراه، فأنا لا أنصرف حتى

أترك أثراً في المكان، أترك بخوراً، أترك زهوراً في المزهريّة، أترك عدد من مجلة "سيدتي"، أو أترك المكان نظيفاً ولامعاً على غير العادة، ذات مرة تعمدتُ أن أغفو.. تناولت أقرصاً منومة لكي لا يبدو الأمر مفتعلاً، يبدو أنني لا أخلو من الكيد النسوي بدوري، وفيما كانت هي تشخر في غرفتها كنتُ ممددة بشكل حقيقي جداً على أريكة الصالة أمام الفيلم، وشعرتُ به يقتربُ على مهل، يغطيني بلحافٍ ما.. ما كان أروع ذلك! لقد وجدتُ مكاني، مملكتي، وليس ثمة قوة في العالم تستطيع انتزاعي من هذا المكان، ولا حتى قوة الحب، إن كان للحب قوة أصلاً، إن لم يكن الحب في مجمله مجرد "هبال مراهقين" و"كلام فاضي" كما تقول أمي، اليوم أنا لن أنصرف، سأبقى في مكاني الصحيح، متربعة فوق الأريكة، أشرب الشاي بالليمون وأقطع الجوز بأسناني وأتفرج على التلفزيون، سأبقى كما أنا حتى يستيقظ، لن أغادر حتى أحصل منه على تحيةٍ ما، ابتسامةٍ ما، شيء ما..

استيقظ أخيراً: صباح الخير!

طق.. أكسر جوزةً بلساني..

- أي صباح؟ الساعة أربع العصر..

- مساء الخير طيب؟

- مساء النور.

وأريت على المكان الفارغ بجانبني..

- تعال شوف!

- هباب جديد؟

- ايه، هباب أمريكي.. تخيل؟

يجلس، يدعكُ عينيه..

- شصاير اليوم؟

- شفت هذا الرجال الجتل؟
- ايه..
- زوجته هذي..
- جنيفر أنيستون؟
- مدري! إلي هي!
- يضحك، تسترسل:
- تخونه مع إلي يشتغل في بقالة الفريج..
- والله؟ فيه فرجان بأمريكا؟
- أرتشف الشاي وأرد:
- أمريكا فيها كل شي!
- صرتي تعرفين ما شاء الله!
- التلفزيون يعلم!
- صدق..
- يتشاءبُ طويلاً..
- تصدق يوم عرف إنها تخونه قام يصيح..
- أفا!
- كنه بزر..
- كر يا وجهه!
- على قولتك! أنا قلت راح يذبحها مثلاً.. يبرد كبدي شوي..
- يضحك..
- يعني ما تبرد كبك إلا بالذبح؟

- ويشرب دمها!
- الله يقطع سؤالك يا فطومة..
- فطيط رجاء!
- أووه، نسيت.. فطيط! إلا على طاري فطيط.. شلون أمي؟
- خذت الدواء ونامت.
- عسك ع القوة.. ما تقصرين، كله - إن شاء الله - بميزان حسناتك.
- ايه ايه! درينا.. كل يوم تقولي ميزان حسناتك وميزان حسناتك، خلك ف ميزان حسناتك إنت.. إلا أصب لك شاهي؟
- شاهي!
- ايه، خالتي شهلة تسميه شاهي! ولا؟
- إلا.. صبي لنا شاهي يله.
- يتناول "الاستكانة" من بين يديّ، أراه يسرّح بعيداً.. أتساءل، ما مدى اقترابي (أو ابتعادي) عن أفكارك هذا المساء يا فهاد؟ أشعرُ بي قريبة.. ق ر ي ب ة.

موضي

.. منذ ثلاثة أيام وأنا أقبضُ على رأسي بيدي، أعتصره، وأضره بظهر الدولار، أرى أسلتي الفادحة تنساب بين أصابعي، لو هجرتنا الأسئلة، ماذا سيحدثُ لنا؟ هل ينتهي وجودنا أم يبتدئ؟ ثلاثة أيام وساعتين من النوم، أغفو في غرب الأماكن، وغالباً ما يحدثُ ذلك بأعينٍ مفتوحة، أرحلُ عني وأعودُ إليّ وأسمي الأمر نوماً، وأزعمُ بأنني أكثر راحةً، بالأمس رأيت كابوساً بعينين مشرعتين على الآخر، كنت عروس الحفلة، أرتدي ثياباً ملونة وغير ملائمة، وأسألُ أمي بعصية أين أزهارني؟ كنتُ غاضبة من فستاني، من أمي ومن جميع الحضور، ولما وصلتُ إلى نهاية الطريق لم يعجبني الكرسي، رغم أنه مغطى بالتبر والورد، ولكنه ليس كما أردته، عندما أغمضتُ عيني كان الحلمُ قد انتهى، بحثت في كل كتب تفسير الأحلام التي أملكها، منذ بن سيرين وحتى سيغموند فرويد، ألا تقول الكتب بأن الأعراس جنازات؟
يرنّ هاتفني..

إنه الشخص الوحيد الذي لم يغادر عالمي، الحبيب الذي جاء وبمجيئه ذهب كل شيء: الأم والأخت والأمهات الأخر، أتجاهلُ الرنين، لا أريد أن أسمع صوتي مغبراً إلى هذا الحد، لن أرد، سيظن بأنني قد نمتُ أخيراً، ستعجبهُ الفكرة لأن لقاءنا لم تعد مفرحة، يومٌ آخر يمضي بسلام، أليس هذا حلاً معقولاً؟ فأننا مؤخرأ لا أجد إلا الانفجار في وجهه.

فتحتُ الدولار، امتدت يدي صوب الشال الأسود ولففته على رأسي، يجب أن أخرج من هذا المكان! خلال دقائق كنتُ في الشارع، ألف رأسي وأخبي وجهي وأمشي، هل يهم الطريق حقاً أم أن المشي

بذاته كافياً؟ لو أن هذي الرأس تكف عن فلسفة كل شيء! أريدُ أن أمشي، هذا كل ما أريده، وبقدرٍ ما يبحثُ رأسي في الأسئلة المستحيلة، أردتُ لجسدي أن يبحث أيضاً، أن يمشي، وطوال تلك الخطى كنتُ أتساءل، هل أستطيع أن أحرر حبي له من غضبي عليه؟ وهو الذي يحمل على أكتافه ذلك الإرث الطويل الذي ما فتئ يردد على مسامعي بأنه جزء من هويته، وربما.. جزءٌ من حبه لي! بقدر ما أردتُ لهذه العلاقة أن تكون بالغة النقاء والتحرر من كل شيء، بقدر ما هي مليئة بالشوائب والديدان.. تعبتُ من المشي! تعبتُ من كل شيء: أريدُ أن أموتَ لبعض الوقت، ثم أبعث لأجد عالمي مرتباً، أم سعيدة وأبٌ محب و جدة حنون و.. كل المعاني التي أمعنت في التساقط أمامي، جلسْتُ على الرصيف، وأمامي تماماً.. البيت الجديد الذي انتقل أصحابه للسكن إليه مؤخراً، لكم هو رائع أن يغير المرء عنوانه، بيته، وطنه، أسرته! أملتُ رأسي على كفي و، آه.. هنا تماماً - حيث أقف - قام حبيبي بأول جريمة قتل في حياته!

رقية

لأول مرة منذ عشر سنوات تنام غيضة قريرة العين، غير راغبة بالسيطرة على العالم، الحربُ التي خاضتها طوال سنوات كانت قد انتهت دون نتيجة بيّنة، وهي تستريحُ أخيراً، تنفرطُ التجاعيد في وجهها ويصبح جسدها في كل دقيقة أكثر وهناً، ولكنها مع ذلك تبتسمُ ابتسامَةً مطمئنة عميقة المغزى، تسألني عن الفتى كيف أخباره؟ هل عشق العنيدة حلوة الوجه، أم طيبة القلب بسيطة الشكل، أم الاثنتين معاً؟ أسرّ لها، كل يوم يلتقيان في السقف، الله وحده يعلم ماذا يصنعان! تضحكُ، يصبح وجهها أكثر خبثاً كلما ضحكت: الله يهداك يا رقية يعني شيسوون؟ يطيطون حمام؟ تغمزُ لي، الله يا أمي، لم تكوني يوماً بهذه العذوبة معي! ماذا حصل لك؟ تغمضُ وتميل برأسها إلى الورا، تتكئ على مسند السدو، أحدق في وجهها المستغرقة، أنتظرُ أن تدلي بكلمة منها، ألن تطلب أن يحدد موعد الزواج بأقرب فرصة؟

- يمه أجيّب لك شي؟

- سكري اللمة يا أمك..

كانت غيضة قد وجدت السلام الداخلي أخيراً، وقررت أن تترك للحياة حرية اختيار مجراها الطبيعي، وكان كل ما تريده هي أن تغمض في الظلام.

عبرتُ الحوش إلى شقة نورة، آخر مرة رأيتها كانت محمولة تهذي، هل يمكن أن يكون تعلق البنت بابن علي بهذا السوء حقاً؟ فتحتُ الباب، الفتاة في غرفتها والباب مقفل، كما هو الأمر منذ ما يزيد عن أسبوعين، دفعتُ باب غرفتها برفق، صمتٌ وظلمة.. هل هي نائمة؟

اخترق صوتها عتمة المكان وسكونه: منو؟ مضاي؟

- لا يا عيني أنا رقية.

- رقية؟ تعالي رقية! تعالي يا خيتي.

أذنو من وجهها الشبحي، أراها نمشاء وشعشاء وبالغة الهزال، يهتز قلبي تأثراً.

- ليش يا نورة تسوين بروحك جذي؟ مو حرام عليك!

- وين مضاي؟ مريتي عليها؟

- مضاي في غرفتها نايمة.

- ما تنام، البنيت هذي ما تنام.. أسمع حسها طول الليل.

- طيب إلى متى ما تتكلمون؟

- مو المفروض هي إلي تجي وتتسامح مني؟ مو أنا أمها؟

- هي "بزر" وما عليها شرهة.

- طيب روجي طلي عليها، شوفها شلونها..

ولحظة هممتُ بالوقوف رأيت الصغيرة تقف على الباب، مثل طيف شارد، جذعها ممتد ويدها الهزيلتان تتدليان على جنبها، لشد ما أخافني حضورها المفاجئ!

- أخباري طيبة يمه، إنتي وش علومك؟

ولشدة عجبي، أدارت الأم وجهها وراحت تبكي.

أفسح للفتاة مكاناً على سرير أمها وأناديها.

- مضاي تعالي يا أمك قعدي جنب أمك تراها مشتاقة لك..

تقتربُ الفتاة خطوتين، كانت هزيلة على نحوٍ مخيف، عيناها جاحظتان وشفتاها قاسيتان متشققتان، جلست إلى جواربي، تمنعُ النظر في الأم التي استسلمت للبكاء بصمت.

- شلونك يمه؟

كانت الطفلة قد كبرت ونضجت قبل أوانها وعلى نحوٍ محزن،
وصار بكاءُ نورة أكثر وضوحاً.

- يمه إذا بتبكين ترى بطلع وأخليك.

نهرتها: بالذمة هذي طريقة تكلمين فيها أمك؟

ردت بعصبية: أنا ما أتحمل أسمعها تبكي، إذا إنتي تتحملين -
خالتي رقية - إنتي خلك معاها وأنا بطلع، أنا جاية أسولف بس، سمعتها
تسأل عني وجيت.

بدأت نورة تنسج..

- شاهدة يا رقية؟ شفتي بنتي شلون صارت تكلمني؟

وكان وجه الطفلة بارداً وبأساً:

- خلاص يمه لا تبكين، إنتي مو تبين تسولفين معاي؟ أنا جاية

أسولف.. يله سولفي!

أدارت نورة رأسها، وبدأت كل واحدة في تمعن الأخرى، شحوبها
وهزالها وحزنها الأسود، تحاملت الأم وابتسمت:

- شأخبار دراستك؟

- أي دراسة يمه؟ ما خلصت العطلة..

- ومتى بتخلص؟

- باقي أسبوعين..

- طيب وإذا بدت الدراسة من يوديك ويجيبك من المدرسة؟

- مو مشكلة، السابق موجود، فهاد موجود، خالتي هيلة..

.. وإنتي..

- أنا أوديك وأجيبك!

- خلاص، إنتي توديني وإنتي تجيبيني.
ابتسمت نورة، على نحو جعلني أذرفُ دمعةً يتيمةً في قلبِ العتمة
التي تلف المكان، كيف يمكن لقلب الأم أن يتهج إلى هذا القدر
بمهمة توصيل!

- كلها كم شهر وتخرجين من الثانوي!

ردت الطفلة باسمه / ساهمة: إيه.

- طيب، شنو قررتي بخصوص الكلية؟

- ما أدري.

- ما ودك تصيرين دكتورة؟

- لا.

- مهندسة؟

- لا.

- محامية؟

ابتسمت مضاي وأضاء وجهها، هتفت والبريق في عينيها:

- محامية ممكن! إلى ألحين ما فكرت في الموضوع.

- بس لايق عليك محامية..

- عشان لساني طويل؟

- أيه!

ضحكنا جميعاً.

حملتني خطاي إلى الخارج، تركت الأم والابنة تتجادبان حديثاً
عادياً، كما ينبغي لأم ابنة.

فاطمة

.. كل شيء يلمع ويشرق ويضيء، باستثناء الفتاة الساذجة التي تنفض الوسائد وتغسل الأواني منذ الصباح، على أمل أن يلحظها، أن يحييها في مرور عابر، لحظة يغادر إليها، أو لحظة يطير إلى الأريكة المجاورة للهاتف، يتربع وتطلب أصابعه رقمها.. كل شيء أفعله هنا متعب، شاذ، مهين! كان قلبي يذوي ويذبل في كل لحظة لعينة أمضيتها في هذا المكان.

- فطيم! وين خالتك؟

كانت أمي تطل برأسها من الباب شبه المغلق، أنفها يقتحم فضاء الغرفة وجسدها منتصب خارجة، وبدأت من فورها تبحلق في أرجاء المكان لتقيّم مهارتي في التدبير المنزلي.

- خالتي نامت.

- زين.. و..

بدأت تبالغ بالهمس حتى استحال همسها إلى ما يشبه الفحيح:

- وين فهاد؟

- وين بيكون يعني؟ مع مضاي!

تجرات بالدخول أخيراً، دون أن تكف لحظة عن تفحص المكان.

- ما شاء الله على بنتي ربة بيت وعلى الأصول! بخور وطيب! والخدود موردة والشعر مرتب والمكان يبرق من النظافة! تبارك الرحماان! عين الحسود فيها ألف عود.. تف! تف! تف!

بعد أن شبع من النفث في وجهي.. كنتُ قد بدأتُ أذرف تلکم
الدموع:

- لا تقصين علي وتقصين على نفسك يمه! أنا ربة بيت؟!
- ربة بيت ونص! وش ناقصك؟ وش عايك؟ ما فيك إلا الزود
والسنع.. أسنع من هالخبلة إلي مو فالحة إلا تتلقاه فوق السطوح!
أستغفر الله العظيم! أنا ما أدري ليش أمي ليلحين ساكتة عليهم!
- شتبينها تسوي يعني؟ تزوجهم وتخلص الموضوع؟
- فال الله ولا فالک! لا الشر بعيد إن شاء الله! خليهم يهرجون
لين يفتن إنه مهوب لآقي راحته إلا معاك!

.. مسحتُ عيني بمنديل ورقي وطويته برفق، على شكل مربع
متقن، ثم ألقيته في كيس المهملات، ثم انتزعتُ الكيس ولففته بيدي
لكي ألقيه في سلة مهملات المطبخ و.. هكذا دواليك، أخافُ على
سلال القمامة من أن تبدو وسخة!

- أمي غيضة تبيه هو إلي يختاز.
- وهو.. بيعرف مصلحته أحسن من أهله؟
- أي أهل؟

أشيرُ برأسي إلي الباب الموارب.
- أمه ما وراها إلا الزحير والشخير..
- وطى حسك!

تربعت على صدر الأريكة، وراحت تمد يدها صوب الفستق
والكاجو والمشمش المجفف الذي صففته على الطاولة، صحت فيها
بحرقة:

- يمه لا تاكلين!

- ليه؟
- تبين فهاد يرجع ويلقى الصحون خالية.. شبيقول عني؟
- يا بعد عيني يا فطيم! والله وصرتي تعرفين السنع.
- ورحْتُ - من فوري - أنتزع جبات الفستق من بين أصابعها وأعيدها بترتيبٍ إلى الصحون الصغيرة المترامة على الطاولة في خطٍ مستقيم متقن.
- طيب قولني لي.. هو شلونه معاك؟
- حليو..
- وش فيك مية من الحيا؟
- وبدأت تلكنزي بكوعها وتغمزُ، شعرتُ بحرارة وجهي تتضاعف..
- يعني شلون يكلمك؟ شلون تحسين نظرته؟
- عادي!
- شلون يعني عادي؟
- عادي يمه! عادي! أنا قاعدة أضيع وقتي، وأتذلل قدامه.. وهو يشوفني عادي! مثل أخت.. ولما يتصل فيها، وأسمعه.. صوته يكون غير، عيونه غير.. كل شي غير يمه! هو بحياته ما راح يعطيني هالنظرة، ولا هالصوت.. ولو تشوفينه شلون يطير لها لما تواعده، يطير لها طيران! ينسى حتى يسلم علي..
- وبدأت أخيراً تتخلى عن مزاجها الرائق، وراحت تفكر في "خطة" جديدة أو ما شابه. كنتُ متعبة، كنتُ لفرطِ التعب أقيس المسافة ما بين الشمعدانين بالمسطرة.
- أحس إني راح أنجن! أقعد نص ساعة أحسب مكان المزهريّة في الطاولة! أحس إني لازم أقيس كل شي بالمسطرة، أحس إني لازم..

لازم.. أسيطر على كل شيء.. حولي، بس الصدق يمه، ماني قادرة
أسيطر على الموقف أبد، هو يحبها والموضوع محسوم من زمان.

ساد صمّت غريب، تفرغت فيه أمني للتطلع إلى وجهي، فيم أنا
أعيد غسل الصحون النظيفة، أبحث عن شيء آخر جدير بالترتيب
والتنظيف، شيء ما.. عدا الفوضى التي تملأ عالمنا نحن الثلاثة،
وللحظة واحدة، لم أكن أستطيع أن لا أفكر بها، وعدي لها ووعدا
لي، سعادتها به وخيبتها مني، للحظة مارقة شعرت بشيء من التواطؤ
معها وكنت سأجرجر نفسي خارج اللوحة، لحظة واحدة فقط حالت
بيني وبين ذلك.. لحظة قفزت فيها أمني من مكانها كالملدوغة، وبدأت
تزيل دبابيس شعري وتنكشه بأصابعها، ثم فتحت أزرار قميصي لكي
يظهر بياض نحري وطوت أكمامي إلى أعلى ..

كانت الخطة واضحة! إذا كنتُ أنا "ربة البيت" المهووسة بوضع
الأشياء في مكانها الصحيح، وكان هو يميلُ إليها، هي التي تثيرُ الفوضى
وتخلخل الموازين أينما تذهب، فالمخرج الوحيد من هذا المأزق -
بحسب أمني طبعاً - هو أن أشبهها..

- أوه ما شاء الله..

تهلل وجهه بابتسامة عريضة: جاية بكبير اليوم! تسأل لماذا يحرضه غنجها على أن يستعير لهجاتٍ أخرى؟ كثيراً ما سمع نفسه يطعم لسانه بكلماتٍ لا تمت له بقراية، صباحية مباركة على الطريقة المصرية في الصباح، وحشتيني يا وحشة في فراغات غيابها، وأحياناً عندما يرغب بامتداح فستانها يجد نفسه يستخدم كلمة "مهضوم" لماذا، معها هي تحديداً، يعوج لسانه ويعرج إلى جغرافيا مغايرة، لو كان يجيد لغة غير العربية هل كان ليختارها لمغازلتها مثلاً؟ ولماذا لا يستطيع أن يحتكم إلى لسان الصحراء كما يليق بأي قصة حبٍ بدوية؟ فكّر لو هلة.. يلعنك يا زمن الستلايت! تذكر.. "فطيط" الملعونة! يجب أن يطعم لسانه بألفاظ بدوية عندما يكون معها، مع صفائرها ودبابيس الشعر المليون المغروسة في كل شعرها، اللسان البدوي يناسب كل شيء في عالمه إلا حبيته الغريبة، هي لا تشبه المكان، ولا لسان المكان.. سمح لنفسه بأن يشدها صوبه وأن يغرّس أنفه في غابة شعرها، كانت نسماتُ الليل تراقصُ تلكم الخصل برفق، إذ الكويت تحن إلى ربيعٍ آخر، النسائمُ عذبه، وهي تبدو جميلة كما لم تكن منذ مدة طويلة، توردت وجنتاها وامتلات شفتاها بعصارة الحياة، أغمض عينيه وسمح لعطرها بأن يملأ رتتيه: ما سرها؟ حوطت عنقه بذراعيها ومالت بجذعها إلى الوراء، تتعلق به كما تتعلق بعامود الأرجوحة وهي طفلة.. تفجر صوتها الضاحك بما يشبه الموسيقى:

- نمت!

- أخيراً؟!

ضحكاً، هل يستطيع النوم أن يعيد إليه حبيته حقاً؟! كل تلك اللقاءات "غير الممتعة" الخاصة بالأسئلة العبثية، مجادلات لا تقضي إلى شيء حول الحرية والقدر، هل يستطيع النوم أن ينتزعها من برائن الأسئلة، ويعيد إليه مضايي الطفلة التي تلعب في "الحوش" مع المعزاتِ وفسائل البتونيا؟ لف ذراعهُ حول خصرها، تحسس نحولها وتواء عظامها، سرت قشعريّة غريبة في أنحائه.. ابتسم:

- نوم العوافي يا قلبي..

استندا إلى سور السطح الصخري إلى جانب بعضهما، كانت لحظة من التواطؤ الغريب الذي تكف فيه هي عن كونها نداً، عن كونها منطوقة الشك المعبأة بالأسئلة، كانت لحظة غريبة من السلام، وخلال تلك اللحظة أراد أن يستعيد تلك الليلة، ليلة لقائهما الأول، الحوارية القدرية التي سرت في الجسدين حين كانت أنهارُ الجنة تجري من تحته.

- و شلونك ألحين؟ مرتاحة؟

- تمام!

مطت ذراعها فوق رأسها، ثاءبت كقطعة، بدت جفونها أكثر ثقلاً ورموشها أكثف حجماً، فتحت ثغرها أخيراً وأطلعت على الخبر الجديد: أنا وأمي سولفنا! وابتسمت كما لم تبتسم يوماً..

- يعني كل شي تمام ألحين؟

ومرة أخرى: تمام!

- زين زين! الحمد لله ع السلامة!

- سألتني عن الدراسة.

ازدرد ريقه بصعوبة.. دون أن يفهم لم.

- تصدق؟ أمي أهم شي عندها في العالم دراستي.

- إيه! الدراسة زينة!

- أهم شي في العالم! تخيل!

- وإنتي، شنو أهم شي في العالم عندك؟

صمتت هنيهة تفكر، ثم أطرقت برأسها واختفت من وجهها علائم التفاؤل سريعاً، تبخر كل شيء أمام جوابها الغريب: كل شي نسبي ومشكوك فيه!

لم يفهم ما الذي حدث، كيف يمكنها أن تتحول هكذا، من طفلة ضاحكة إلى امرأة بائسة بالغة القدم في حزنها؟
توجس من الآتي، ومع ذلك تجاسر وسألها: حتى الحب؟
ابتسمت: لا، الحب مطلق.

فكر.. من حسن حظه! من حسن حظه أنها تحبه بطريقة غير ملفقة، لا تقبل التجزئة ولا الانقسام، حيث كل شيء واضح ومحدد سلفاً، لا مناطق رمادية ولا ظلال مازقة ولا أشباه أحاسيس، كل شيء مسمى ومصنّف.. أليس مريحاً أنها متأكدة منه إلى هذا الحد؟ أن تخبره صراحة بأنها إما أن تحبه أو لا تحبه، ولا يمكن بأي طريقة أن تعلق في برزخ المابين، رائع! همس صوتاً في داخله، ولكن إحساسه لم يكن بذات الروعة، ازدرد ريقه ثانية، وفكر: إنها تحبه بطريقة قاسية جداً، إن كل ما أراده من إلقاء ذاك السؤال هو أن تقول له بأنه "أهم شيء في العالم" أو أن تهمس له "أحبك" مثل أي عاشقة طبيعية، مثل أي ممثلة تشرح وتمرح في أفلام "الهاب" بالأبيض والأسود، لماذا لا يمكنها أن تمنحه لحظة بهذه البساطة؟ لماذا يتحول كل شيء في رأسها إلى قيمة، أفهوم، نظريات.. وشعر بقلبه يغوص في اللحظة، كان يسمعها تهمهم وتبرطم ولكنه - لوهلة - ضاع في صمت موجع: هل الحب مطلق بطبيعته كما قررت هي؟ ومن هي لتقرر أمراً كهذا؟ بأي صفة تعلن هذه الصغيرة أمراً كهذا وتسيغ عليه صفة الحقيقة؟ ألا يسع المرء أن يحب هنا قليلاً وهنا قليلاً؟ هو يجد الأمر طبيعياً ومقبولاً جداً، هنا في السطوح، يحب

أن يتشمم عبق شعرها ويمسح بيده على خدودها، وهناك في الأسفل،
يحب أن يمصمص الفستق المملح برفقة...!

- على العموم، كلها أسبوعين ونرجع للمدرسة و..

لماذا لا يمكنها أن تشعر به ينحسر ويغيب مع كل لحظة؟ لماذا
تلح على موضوع "الدراسة" هذا؟ ثلاث سنواتٍ من عمره ضاعت
بسبب لعبة قاتلة! سلاح وضعوه بين يديه لكي يقتنص به حقيقة رجولته،
وعليه الآن أن يلحق بالركب، أن يركض خلف الركب الذي تترأسه
هي، هي التي تشيرُ إلى نقصه وخيبته بلا رحمة، والورقة التافهة التي
ثبت أنه كان تلميذاً في مدرسة الأحداث، خريج سجون بمعنى الكلمة،
هل سيأخذها إلى معهد ما ويطلب باستكمال المسير، وكيف سيجابه
نظراءه الذين رأوه يردي البناء قتيلاً، هل يرغب بذلك حقاً؟ هل أحب
الدراسة يوماً على أية حال؟

- أنا قررت أصير محامية! لايق علي؟

هل هذا هو السر إذا؟ خدها يتوهج وعينها تبرق وكل شيء فيها
يتفجر واعداء، ألهذا تبدو حبيبته جميلة هذه الليلة؟ لأنها قررت أن
تصير محامية؟ وكأنها لا تكتفي من هذه "القضايا" التي تأكل عقلها
لكي تبحث عن قضايا الآخرين وتنادي بها، وماذا سيفعل هو، إذا ما
صارت "الأستاذة" موزي محامية أشهر من "النار على علم" - وهو
ما لا يشك في حدوثه - فيم حصل هو على شهادة متواضعة بحضور
بضعة دورات تدريبية، أو ربما - إذا أسعفه الحظ - حصل بمباركة
الواسطة على قبولٍ من معهد ما هنا، بمعدلٍ المتواضع، هذا إذا عقد
العزم على العودة إلى الدراسة أصلاً وهو ما لا يريده، كل ما يريده هو
أن يأتي إلى السطح في الليالي الباردة ويحتضن هذه الحبيبة القاسية في
كل ما تفعل، حتى في الطريقة التي تحبه بها، لماذا سيحتاج إلى الشهادة
أصلاً؟ عنده مالٌ يكفيه، وجدة عظيمة تحميه، وفتاة يحبها وأخرى تكنس

أرضه، وثلاث أمهاتٍ، وإرثٌ يحتكر مجده وحيداً، بوسعه في أي لحظة أن يمارس تجارة الذهب كأبيه وجده من قبله، هو الذي - بالصبر الجميل وحده - وصل أخيراً إلى هذه المرحلة، مرحلة أن يكون "رجل البيت" كما أردن له جميعاً، أليس هذا قدره؟ أليس هذا أو ان تحقق الأقدار؟ لماذا أصبح كل شيء يملكه ويحبه الآن محط تساؤل، ماذا حدث لفصول الحكاية؟ أليس هو - في النهاية - الذي عجز الشيطان عن لكزه؟ والذي أعاد الحليب إلى الضروع الخاوية؟ والذي استطاع دونما جهد يذكر، أن يجعل أوراق الشجر تطير، والمناديل ترفرف، والقصاصات تحلق.. بحركة من يده؟ أليس هو الذي يملك كل خصال الكمال من جميع الجهات؟ لماذا تجيء هي الآن لتزلزل معالم "كماله" وتخبره - دون أن تقول ذلك حقيقة - بأن عليه أن يتحقق، أن ينطلق وراء إمكاناته! أي إمكانات؟ هل توجد مرتبة تماثل مرتبته في زمنٍ مثل هذا، لقد انتظر طوال عمره أن يكبر، ولم يكن وحده ينتظر شيئاً كهذا، كل شخص يعرفه كان ينتظر أن يكبر، أن ينبت ذقنه وتمتد قامته وينقل صوته، وها هو قد حقق كل ذلك، لقد فعل بالضبط ما ينبغي عليه فعله، لقد تحول إلى رجل، ليس ثمة مقام يبلغه المرء بعد ذلك، وحتى لو كان ذلك فهو لا يريد الذهاب إلى أي مكانٍ غير هذا السطح، ولا أن يفعل شيئاً غير حبها، لماذا أصبح الأمر صعباً إلى هذه الدرجة؟ الحواجز التي ما فتئت تنبت وتمتد وتكبر وتتطاول وتتعالي.. أدارها إليه من ساعدها بقوة، أراد أن يضمها وهي في تمام تلك اللحظة من الدهشة واللا فهم، شيءٌ ما كان يثقل عليه، يمنعه، تبدو وهي في أقصى حالات حضورها بعيدة، مستعصية، مستحيلة، هل يريد أن يعانقها حقاً، أم يريد أن ينفذ إلى تلكم الرأس، أن ينظف مخها من كل أفكارها المجنونة، أفكارها بالانطلاق إلى العالم، نعم الانطلاق إلى العالم! هذا كل ما تريده، أن تندمج وتمتزج وتتحد و.. أن تصحح أخطاء العالم بالقلم الأحمر، يا عالمي يا صغيري هذا خطأ، تعال أمشط لك

شعرك وأربط لك خيوط حذائك، تريد أن تربي العالم هذه المجنونة، أن تعيد تشكيل كل شيء! ويقدر ما يبدو الأمر شاعرياً بالنسبة لها فهو مخيف بالنسبة إليه، لقد كان هناك مرة، في قلب العالم، وكان يصوب بندقيته صوب إنسانٍ وكان يقتل، ثم جاء العالم إلى باب بيته وانتزعه من أحشاء أمهاته الدافئة وزجه في السجن لثلاث سنوات، ليس العالم بذات اللطف، المكان هنا أفضل، إنه المكان الوحيد الذي يريد أن يكون فيه، لا يريد أقارب ولا جيران ولا أصحاب ولا غرباء، كل ما يريده هو أمهاته وجدته، والطفلة التي يحبها والطفلة التي تحبه، كل ما يريده هو موجود ملء يديه الآن فلماذا - بحق السماء - سيذهب لبحث عن شيء لا يريده؟

رآها والعالم القديم في عينيها، اتسع بؤبؤها وغمره ظلامُ اللحظة، شعر بجفافٍ في حلقة وثقل في لسانه، كان يقبض على ساعدها بقسوة وهو متأكد بأنه يؤلمها.. الألم بداية اليقظة! هذا أفضل، ستفيق الآن، ستفيق لأجله على الأقل، يجب أن تفيق:

- موزي لازم نتزوج.

- نعم؟

- لازم نتزوج!

موضي

أهز رأسي كالمجدوبة يمينة ويسرة، أنتظر أن تتساقط اللحظة من جعبة الزمن وأن نعيد صناعة المشهد، يدك، ساعدك العنيد الذي يسندني هنا ويجذبني هنا واسمي الذي كان يتطاير في هواء الليل مع رذاذ فمك، لماذا يبدو اسمي مهترناً إلى هذه الدرجة؟ ومتى صرتَ تستخدمُ هذا الاسم لتوقظ العاشقة المسرمنة من سكرتها؟ ألم نكن طوال عمرينا، مضايوي وفهود؟ لماذا كان ينبغي أن نكبر بهذا القدر في تلك اللحظة، في تلك النقطة ..

نفضتك بعيداً، دفعتك من صدرك بكلتا يدي واستندت على جدارٍ من الخرسانة أمعن النظر في وجهك: لماذا؟ أردتُ طوال حياتي لحظة كهذه، خططتُ لها، حلمتُ بها، صليتُ من أجلها و.. لماذا جعلتُ الأمر يبدو كما لو أنك تلفتُ جبالاً حول عنقي؟

تردد كالمجنون "لازم نتزوج! لازم نتزوج! لا تصيرين محامية، ماله داعي!" وأنا أتساءل عن وجود علاقة بين الاثنين؟ هل تتزوج بي لكي لا أصير محامية؟ هل زواجك بي هو الحل النهائي لطيشي وجنوني وآفات أحلامي بعالمٍ أختاره أنا، حياة أقررها أنا.. أنا وأنت يا حبيبي، أنت وأنا، لماذا كان عليك أن تكون قاسياً هكذا؟ مددتُ ساعدي أمامي، حيرتني تتناول: ليش؟ جثوتُ أمامي، قبضتُ على كفيّ بيدك، وبدأت الكلمات تنفرطُ من شفطيك بسرعة..

- أمي غيضة كلمتني في الموضوع، قالت لي إذا تزوجت بتسوي لي مكان في البيت.. بنني لنا دور جديد نعيش فيه أنا وإنتي، كل شي نبيه موجود، كل شي متوفر، مو ناقصنا شي، مو هذا إلي تبينه موضي؟ مو هذا إلي تبينه؟ نتزوج؟

- موزي؟

- ايه موزي! مو إنتي موزي؟

- لا تنادينني موزي..

صاح بها: موزي! مضاوي! شالفرق؟

صاحت به: فيه فرق! فيه فرق!

هكذا إذا، سنبنني طابقاً ثالثاً ونعشش في عش جدتي، وننجب أطفالاً آخرين إلى هذا البيت الذي يكاد يتفجر من ساكنيه، سنلقنهم بأن جدهم استشهد في قندهار لنجدة المنكوبين، وبأن أباهم يأتي بالحليب من أنهار الجنة، ويجعل القصاصات تطير بحركة من يديه، سندشن لنا مكاناً في هذه المستعمرة النسائية الخالدة، مكان يتسع لسرير ووسائد وكل ما يلزم لإنجاب الأطفال واستمرار السلالة، وتكريس كل ما هو جدير بالتكريس، الخرافة والهراطقة والخرق البالية، هذا هو السر، سر الوجود، سر الأسرار، هذا هو المعنى الخفي وراء كل شيء: اللا معنى.

وبدأت عيناى تغوران في مجاهل الدمع، بصعوبة فتحت فمي، بصعوبة سألت: شنو معنى الحياة في هالعالم؟ تبدو الجملة ملائمة لفاتحة قصيدة، لولا أنك رححت تصرخ كالمجنون:

- العالم! العالم! طول الوقت تتكلمين عن العالم وإنتي عمرك ما تركتي غرفتك! إنتي ما تعرفين عن العالم شي! وجاية على آخر الزمن تبين تصيرين محامية!

- وليش ما أصير محامية؟

- لأنك بنت!

آه! إنه سبب الأسباب، الوصمة الأبدية، العارُ الموروث، الحقيقة الشائثة، الشيء الذي يفسر كل شيء، صنوف الظلم والتفرقة والقرف:

الأنوثة! وفيَمَ كنتَ ترطنُ بالأسباب، تدجج حوارك بالبرهانِ العقلي والدليل المنطقي وخلافه من الترهات، كيف يمكن أن تسمح لأنثاك بأن تعمل في محيط المجرمين، أن تخلخل الزنازين وتراجع في "المخافر" وتقف مرتدية تلکم العباءة السوداء لكي تقنع قاضياً ما بقضية ما.. كان ذلك عالمُ الرجال، وكنتُ أتساءل، لماذا لا تقتحمه إذاً إن كنتَ رجلاً؟ لماذا تختبئ خلف أسوارِ جدتك العظيمة، وتملي عليّ أفكارك عن فظاعة المكان في الخارج، عن قبح العالم وشناعة الوجود.. الأمرُ غير جدير بالتجربة، من وجهة نظرك، فعل الحرية، فعل التحرير، كلها ترهات مضیعة لحياة الإنسان، عليّ إذاً أن أفعل كما تفعل، أن أخلع عني أحلامي بخلق علاقة مع وجودٍ مغاير وبعيد ومختلف عن هذا الماء الآسن الذي يملأ صدري، الذي يغرقني في قلبِ الجفاف، أن أجلس إلى جانبك، في هذا السطح أو في الشقة الجديدة التي ستهبنا إياها - مشكورة - جدتنا العظيمة لكي نتزوج ونتناسل وننجب آخرين، نقذف بهم إلى حياةٍ تافهة كهذه.

- شقلتي حبيبي؟

أمعنتُ النظر في وجهك ببلاهة، تعاود السؤال:

- شقلتي؟

- بخصوص سنو؟

- بخصوص زواجنا أنا وإنتي و..

آه نسيت! الزواج! الحلم الذي يتحقق الآن على أقبح وجه، خلعتُ يداك عن يديّ، ببطءٍ مشيئاً، ببطءٍ أوليتك ظهري، سلختك عني، ببطءٍ وألم.. كنتُ أرحل.

كنتُ أتركك يا حبيبي.

هو

لو لم يكن هو الذي يتأمل هذا الشروق لكان هذا بالتأكيد مشهداً جميلاً، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة له، كان حزينا، وكان كل شيء يبدو له حزينا. حاول أن يستجمع داخل رأسه نكهة الليلة المنصرمة، هل كان حلماً؟ كانت قد ذابت بين يديه، تبخرت في جنون الهواء وانتهى وجودها، تركت له أوجاع اليقظة وصمتٌ وفير، ماذا سيفعل الآن؟ تسمر في مكانه متمسكاً بالأمل الهزيل بعودتها، هل كان يحلم؟ ربما عادت لتجده قد تحنط في غيبوبة لحظية فعجزت عن النفاذ إليه؟ هل كانت هنا حقاً؟ هل تركته حقاً؟ بهذه السهولة؟ سهولة انفلات خيط الحلم من بين الأصابع؟ وهو.. بماذا يشعر؟ هل هو حزين حقاً أم أنه يشعر بالخفة وحسب؟

طلعت شمس يوم جديد، سأل الدفء في عروقه وشعر بثقل جسده على الأرض، هذه الأرض الناقصة مأكولة الأطراف كانت ترسم له درباً، فتح الباب، امتلأ أنفه برائحة "الغسيل الجديد" وأمه السوداء التي تستيقظ مع الفجر لتملأ عالمه برائحة الصابون، أولاها ظهره ونزل الدرج، عرج صوب الممر الهزيل، قبالة الباب وقف، كل ذرة في جسده ترتعش، ماذا كان يتمنى أن يجد خلف باب شقته؟ عبر العتبة وتنشق البخور و"العود"، دخل الأرض الجديدة التي كانت تحت قدميه طوال الوقت، سارَ بمحاذاة الحوائط، يتبع أنفه، حدسه، يبحث.. في صالة الجلوس كانت الفتاة نائمة والتلفزيون مستيقظ، ولم يسبق أن رآها بهذا الجمال من قبل حتى خيل إليه بأن قلبه سينفجر في عميق صدره، كان شعرها الأسود ينفرش في جميع الجهات، وكان وجهها المغمض يبدو في أوج لحظاته براءة وجاذبية، لم يسبق له أن لاحظ أن لها أهداباً

جميلة، وأن شفاتها قاسيتان بما يوحى بكثير من العمق على خلاف ما افترض عنها طوال عليه، كانت أزرار قميصها الأرجواني مفتوحة، ازدرد ريقه وتتبع بعينين حذرتين ذلك الانفلات الطاغي للأنوثة في الجسد الغض، شعر بالحرارة تصعد حتى وجنتيه وعينيه و.. بدأ يدمع، لسبب غير مفهوم، وشعر بأنه وصل أخيراً إلى المكان الذي يفترض به أن يصله، وبأن من حقه الآن أن يرتاح، أن يدفن نفسه في غمرة تفاصيلها الفارحة، أن يتوسد بطنها كما كان يفعل في طفولته، عندما تدعوه لكي يسمع "موسيقى" معدتها وقرقراتها المضحكة، هي دائماً سخية معه، دائماً تعطيه، تؤثره.. تذكر كيف كانت تهديه قطع البسكويت والكاكاو و.. سال ريقه لهذا الخاطر، شعر بكثير من الإعياء، خر على ركبتيه، دنا من وجهها، توسد كفها ونام..

نورة

كانت الساعة توشكُ على الخامسة فجراً، عندما فتحتُ باب غرفتي، تسللت إلى سريري، وجلست تتلمى في الظلمة، تبحثُ عن وجهي.. يمه! قالت، يمه إنتي نائمة؟ ولم أكن لأنام، لا أنامُ حتى تعود، يخيل إلي طوال الليل بأنها لن تعود من عنده أبداً، ولكنها كانت تعودُ دائماً، أكثر شحوباً وتهالكاً، كانت تعودُ لكي أنام. الشمس تزعُ من ضفة العالم على مهلها، وتسلك الضوء الأزرق شفيفاً عبر ستائر الشيفون، نظرتُ إليها ونظرتُ إليّ و.. في لحظةٍ وجدتها تتعلق بي، تحاصرني بذراعيها، تدفنُ وجهها في بطني، وقبل أن أسأل، قبل أن أفهم، كان صوتها هامساً يسيل: مخنوقة!

قالت بأنها تركته وراءها وجاءت إلى هنا، فعرفتُ بأن عليّ أن أفعل شيئاً من أجل ابنتي، أعرفُ - غيباً - ما سيحدثُ الآن، ستجري الأمور بذات التسارع والسهولة، ستتصل بي هيلة وتعلمني بموعد زفاف فطومة وفهاد، وسيكون على كلينا أن نتظاهر بأن الأمر عادي، وأن تجيب الأخرى بالكلمات الآلية إياها: مبروك وما شابه، سيكون علي أن أرى ابنتي تنهش لحمها بأسنانها أمام قدرته العجيبة على استبدال الحبيبة بالأخرى، سيبدو الأمر كما لو كان انتصارٌ لهم بقدرٌ ما هو انتصارٌ لي، انتصارٌ لها، ولكنها مع ذلك - بحكم بشريتها على الأقل - ستحس بالإذلال وهي تجلسُ أمام "كوشة" الزفاف، لترى قدرته "الاستثنائية" على تجاوز حبها، وكأنها لم تكن قط، وسيكون علينا - بصفة القرابة - أن نشارك في إقامة هذا الحفل على أتم وجه، وربما سيكون عليها - بحكم الأخوة - أن تأخذ أختها إلى السوق، تساعدنا في مهمة انتقاء "قمصان النوم" و"المكياج" و"العطور".. وربما تختارُ لها ما ينساب

ذوقه، فهادي يحب الطيب، فهادي يحب اللون الأحمر! لعنة عليك يا فهاد ابن علي، يا صغيري! ماذا سأفعل؟ سأطلبُ منها أن تصمت وأتأمل معها جريانِ الأمور، العفويّ والطبيعي، أصوات الزغاريد واللؤم المبطن والخبث المدسوس في بواطن الكلم و.. أراها تفجع مرة أخرى، لأنها تجد نفسها خارج جغرافيا المفترض، تراودها شكوك الخسرانِ أمام بهجة تلك التي أصبحت - على حين غرة - زوجة الولد ابن الولد وعلى هذا العالم اللعنة.. كان عليّ أن أفعل شيئاً، فيم ابنتي تهمسُ أريدُ عالماً آخر، كان عليّ أن أحفر في الجدارِ - بأظفاري - ثقباً وأتركها تسيلُ من خلاله، كان عليّ أن أفعل شيئاً من أجل ابنتي، أنا أمها، أنا الجانية، أنا التي جاءت بها إلى هذه الدنيا، أنا الكوة التي قذفت من خلالها إلى هذا الوجود، وفيّمْ كنتُ أصول وأجول في الغرفةِ الزرقاء الصامته، وابنتي تتكور بجسدها تحت اللحافِ، تبتهل وتبكي وتغني ملتاعة، ابنتي التي تريدُ عالماً آخر، عالم لا يدورُ حول الرجل مهما امتلأ بالنساء، عالم لا تنتقل فيه الامتيازات بالوراثة بل بالاستحقاق، عالمٌ لا يتمايز فيه البشر باختلافات بيولوجية لا فضل لهم بها، عالمٌ عادل، أراها ترتجف تحت اللحاف، أركضُ إلى الدولاب وأنتزع لحافين آخرين، ألقيهما فوقها، أدثرها، أزملمها، أحتوي فيها ارتجاجات النبوءة، هي في عالمها المفارق الذي لا يشبه "المفروض" ولا يوشكُ عليه، أحتوي فيها ذعر الاختلافِ ويطولة التمرد، عظمة العصيان وفضيلة الشطن، أرى جسدها يسكُرُ في حمّاهُ، أرى جبينها يتفصد ويتندى، أرى عيناها تزوغانِ في الزرقة الشفيفة، تبحثانِ في وجهي عما لا أدري.. هذا العالمُ، كما هو واضح، أكبر من قدرتها على الاحتواء، أنا التي أردتُ لها دائماً أن تفكر، أن تفكر بنفسها ولنفسها، ماذا جنت من كل تلك الأفكار؟ صنوف الحمى وأشكالٌ جديدة للعبز والخذلان، أرى عيناها تستجيران، لماذا أحملها فوق ما تطيقه أعوامها؟ لماذا أتركها تنتزعُ من طفولة أفكارها وتزج في جغرافيا مجدبة وكل ما يسعني فعله هو أن أهتف من بعيد، فكري!

فكري! لا تصدقي إلا الصوت العميق في داخلك، لا تؤمني ولا تكفري حتى تفكري، هل هذا كل ما يسعني فعله لها كأم؟ ألا يمكن أن أصنع لها سلاماً من نوع ما، هدنة أو ما شابه، شكلاً مختلفاً للحياة، للقلق، للحب، للنسيان، للإيمان، للكفر، للشك، لليقين، شكلاً أقل وطأة؟

.. كان علي أن أوقف هذا العالم عند حده، كان علي أن أفعل

شيئاً من أجل ابنتي، سأفعل أي شيء، سأتدخل!

- ولا يهكم مضاي، ألحين أتصل ف أبوك أخليه ياخذك، وإن

ما رد عليّ بـ أتصل في عمّتك وأخليها تكلمه، أو تاخذك هي عندها، وجدتك ما راح تقول شي، خلاص يمه، ما عاد لهم حاجة فينا!

سأمسحُ حذاءهُ بلساني، سأكنس غباره بشعري، سأمنحه كل راتبي

التقاعددي! سأتصل به الآن وأتوسل إليه أن يخرجني وابنته من هذا العالم الفخ، أن يعطيني غرفة خلفية في حياته، ليس مطلباً كبيراً، وبدأت من فوري أرتل رقمه على الهاتف، سيأتي هذه المرة! لا بدّ أن يأتي! سيأتي من أجل ابنته ويأخذها من هنا، ولن تكون أمي قادرة على فعل شيء لإيقافه، ولن تكون حتى راغبة بذلك أصلاً، الآن وقد انتفى سبب وجودنا، وما عادت هناك احتمالات لمصاهرة ومزاوجة، سيجيء ببساطة وينتزع طفلة من برائن هذا العالم ويأخذها إلى مكان آخر، له برائته الخاصة، ولكنه آخر، لا يشبه هذا.. وتعطلت أصابعي، في منتصف الرقم.. هل نسيتُ رقم زوجي؟ أم..

علقتُ، وأنا أشهد بزوغ حمى البطولة في الجسد الذي أسلم نفسه

للألم عن طيبٍ قصد، كيف أبرر ألمي أمام ألمها هي؟ لماذا كان عليها هي أن تقول تلکم الـ "لا" بملء الفم، ملء الروح وملء الجسد، فيم أنا.. مرة أخرى أتحايل على عالم أرفضه، أداهنه، أستخدم ذات الحيل المثيرة للشفقة، الكيد النسائي والدموع وما إلى ذلك، ما الذي أحاول أن أثبتة لابنتي، هي التي وقفت وقفتها الراضة أمام سطوة الخرافة

والتقديس والإرث العظيم، هي المتفوقة عليّ على جميع الأصعدة وبشتى الأشكال، أي حياةٍ سأهبها؟ حياةٌ كاذبة ما كانت لتنالها لولا التذلل والاحتيال؟ كيف أستطيع أن أبرر جبني أمام جسارتها؟ كيف أستطيع أن أبرر خنوعي أمام شموخها؟ لماذا أطالبها طوال حياتها بلحظة البطولة هذه، لحظة الحمى والارتجاج، وأنسحبُ أنا؟ أي كذبة هي حياتي؟ كل شيء فعلته، كل نصيحة شاحبة، كل قصيدة باهتة، كل شيء حاولتُ تعليمه لها، كل كتاب طالبتها بقراءته، كله.. كله كذب محض، دجلٌ محض! .. (تفلتُ ضحكة).. ضحكة عملاقة ترتج في صدري، تخض بدني كله، ضحكة عظيمة تعصرني، تفلتُ مني دمعة، دمعة واحدة، كنتُ - لأول مرة في حياتي - أكتشفُ كم أنا.. مهرّجة! كم أنا على نقيض كل ما أريد أن أكونه، والسعي السخيف لكي أكون مثقفة، الكتب والدورات والندوات وشهادات تكفي لكي توزع على جيش، كل شيء أصبح سخيلاً وموغلاً في التفاهة، مثل هذه الدمعة، فأنا - بكل الشواهد - مجرد مهرجة، أو اكبُ التيار وأطالب بمعاكسته، أسايرُ العادات وأنادي بهجرها، أداهنُ العالم وأصلي لانقراضه.. أنا، مجرد مدعية، ولأنني مدعية فأنا لا يمكن أن أكون إلا الجانية الأولى والوحيدة على طفلةٍ تنفصد تحت اللحاف وترتجف، وترمق ضحكي بذعر وسماعة الهاتف التي علقت في يدي، ضحكك.. ضحكك على كل هذا الوضوح الذي ملأ حياتي فجأة، ضحكك وكنتُ سعيدة.. أعدتُ السماعه إلى مكانها، ألقيت زجاجات الأدوية ومضادات الاكتئاب وحتى جبوب "البنادول" إلى سلة القمامة، ثم عدتُ وجلستُ على طرف السرير، أتملئ في وجهٍ صغيرتي وأبتسمُ لها من كل قلبي.. نظرت إلي متسائلة:

- رد عليك أبوي؟

- ما اتصلت.

وقبل أن تفتح فاهها، قبل أن تسأل، انساب صوتي ساكناً
ورخيماً:

- أنا أدري فيك تعبانة حيل.. بس ألحين لازم تقومين، ورانا
شغل وايد، قومي جهزي أغراضك..

- أجهز أغراضي؟

هذا صحيح، املئي حقائبك بالبيجامات والدمى والكتب والديبة
القطنية، سنخرجُ من هنا، أنا وأنتِ فقط، سنستأجر شقة على البحر، أو
خيمة في البر، سنطالب بمكان يخصصنا وحدنا، سأخذك - يا صغيرتي
- إلى عالمٍ آخر!

تمت..

الكويت

يونيو 2006 / يوليو 2009

بشينة وائل العيسى

مواليد 3 سبتمبر 1982

زوجة وأم لولدين.

موظفة في القطاع الحكومي.

حاصلة على شهادة البكالوريوس عن تخصص التمويل

والمنشآت المالية كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2005

طالبة الماجستير في إدارة الأعمال - تخصص تمويل. كلية

العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2007

صدر لها

1- ارتطامٌ .. لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى - سوريا

2004 وعن الدار العربية للعلوم 2009.

2- سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات و النشر

- بيروت 2005 وعن الدار العربية للعلوم 2009.

3- عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات

والنشر - بيروت 2006 وعن الدار العربية للعلوم

2009.

4- من تحتها الأنهار (رواية) عن الدار العربية للعلوم - بيروت

2009

عضو في

رابطة الأدباء الكويتية

اتحاد الكتاب العرب

الجوائز

حائزة على جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها «سعار»
2006 / 2005.

حائزة على المركز الأول في مسابقة هيئة الشباب والرياضة
2003 - فرع القصة القصيرة.

حائزة على المركز الثالث في مسابقة الشيخة باسمه الصباح
- فرع القصة القصيرة.

حائزة على المركز الثالث في مسابقة مجلة الصدى
للمبدعين 2006.

للتواصل

<http://www.Bothayna.net>

تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ

رواية

بثينة العيسى

• رواية من الكويت



- وبعدين شصار؟
.. لم تكن مضايوي لتسمح للحكاية بأن تقف عند هذا الحد، وطالبت بأن ينتقل الحكيم إلى الضفة الثانية، إلى فهاد الذي ولد بدون صرخة الميلاد، وتغير شيء في وجه أمي، تقطيع خفيفة علت جبينها إذ هي تجاهد في استجماع تفاصيل ذلك اليوم، قالت أمي بأن الفزع قد أخذ منهم كل مأخذ، وبأن الشكوك قد ساورتهم بأن يكون ابن علي قد ولد ميتاً، أو مريضاً، أو متعباً بما يتجاوز القدرة على الصراخ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، كل ما في الأمر أن الصغير ولد دونما أي رغبة بالصراخ، وحتى عندما حملته الممرضة من قدميه وضربته على ظهره عدة مرات .. لم يبك، ووضع بمنتهى الدعة في حضن أمه، وشرع من فوره في لعبة البهلقة، وراح يمتص العالم بعينه الهائلتين السوداوين، يتفحص الوجوه التي تتفحصه بدورها : ثلاث أمهات وجدة واحدة! وهتفت الأصوات:

- كنه علي، كله علي!

تصميم الغلاف: سامح خلف

لوحة الغلاف:

تفصيل من لوحة للفنان فاتح المدرس

ISBN 978-9953-87-788-4



9 789953 877884

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف: 1676179 2 (+213)
149 شارع حسبية بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار الغربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com